كتاب أورينت
-2-

غسّان عبّود

الحلم السوري وحلف الأقليات




الحلم السوري وحلف الأقليات

غسان عبود

الحلم السوري وحلف الأقليات



ISBN: 978-605-69586-2-5

الحلم السوري وحلف الأقليات

- المؤلف: غســّـــان عبـّــــود

- لوحة الغلاف: الفنان علي فرزات

- خطوط الغلاف: محمد نجيب البربور

- صورة المؤلف على الغلاف الأخير: مصطفى عذاب

- الطبعة الأولى: ٢٠٢٢

- السلسلة: (كتـــاب أورينت)

العدد الثاني – نيسان/ أبريل ٢٠٢٢

الإشراف الفني: محمـــد منصـــور

التدقيق اللغوي: فادي ســميسم

المحتويات

الإهداء

إلى زوجتي ناهد التي ملأت عليّ شغاف روحي.

مقدمة:

عاشق حقيقي لسورية

بقلم: علي الرز

في عام ١٩٦٢، كتب الصحافي المصري الراحل محمد حسنين هيكل كتابه الرابع بعنوان: "ما الذي جرى في سورية" تناول فيه كإعلامي مراقب قريب جداً من الرئيس المصري آنذاك تطورات ما حصل بين الوحدة المصرية السورية والانفصال من وجهة نظر شخصية طبعاً. وما بين انطباعاته و"التوجيهات" المعطاة له، مرَّ الرجل على وقائع سريعة عن طبائع الساحة السياسية في سورية من دون الغوص في الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية وحتى الثقافية التي كانت ماكينة السلطة تمارس تدميراً منهجياً لها... كان هيكل مهتماً بتلميع رئيسه والإشادة بـ"بطولة" خروجه من سورية بأقل قدر من الدماء.

وفي عام ١٩٨٨، ختم باتريك سيل سلسلة "رواياته" عن الصراع على سورية ولاحقاً الشرق الأوسط، بكتاب كان يكفيه أن يقول الناس عنه إنه "الأشجع" وليس الأصدق. والأدلة أكثر من أن تحصى عن السماح له في هذه الصفحة أو تلك برفع السقف حول مجموعة من التطورات الداخلية السورية التي كان الحديث عنها في خانة المحرمات... لكن الفكرة النهائية في رأس من يطوي آخر صفحة في الكتاب محورها تلميع حافظ الأسد ونقله من مصاف الديكتاتوريين القساة إلى خانة الدهاة، بل وتبرير بعض ممارساته الوحشية "من باب الضرورة" والحفاظ على وحدة سورية.

عشرات الكتب طبعاً صدرت عن سورية، إنما توقفت عند هذين النموذجين تحديداً للقول إن غالبية من كتب إنما فعل ذلك إما لاقتراب الموضوع السوري من موضوعه الخاص أي وطنه ورئيسه في حالة هيكل، وإما لإعادة إنتاج صورة جديدة لحكم الأسد كلما اعتقد العالم أنه محاصر بسبب ارتكاباته في حالة باتريك سيل. وفي النموذجين تتقدم السياسة ولعبة السلطة ويختفي الناس... يختفي السوريون.

غسان عبود، السوري، المنغمس مع الناس، الإعلامي، المهاجر، العصامي، رجل الأعمال المعروف... قلب الحكاية. بدأ بتحليل ذلك

النسيج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في سورية، ونقل القارئ بشكل علمي وتدريجي إلى تاريخ تهميش وتغييب السوريين، ليصل إلى خلاصة استنتاجية مفادها أن هذا الحكم الديكتاتوري القبيح إنما هو نتاج الحرب على سورية والسوريين وليس العكس.

لم يترك عبود تفصيلاً يخدم المتلقي إلا وأتى على ذكره. أسّس لبناء معيار فكري يسمح للقارئ بأن يستنتج قبل أن يصل إلى الخواتيم، بدءاً من تقسيم سورية جغرافياً، مروراً بالسعي الحثيث للتشويه التاريخي، ووصولاً إلى تخريب كل شيء: التعايش الديني والتواصل المذهبي والطبقة الوسطى والتجار والطبقة الصناعية والمزارعين والمفكرين والحرفيين وأصحاب المهن العلمية... مع مواكبة للمواقف الدولية من هذا التخريب التي تستنكر علناً وتؤيد ضمناً.

لم يترك عبود شيئاً مما يقال له "محرمات" إلا وفتح صندوقه، الجيش، الشرطة، الأمن، سلطة الأقلية، حلف الأقليات، المعارضة، الثورة، عملاء النظام، تدخلات الدول القريبة والبعيدة، لكنه لم يفعل ذلك من باب الطرف المقابل، أي لم يكتب عن العلوي لأنه سني بل لأنه سوري، كما إنه بهذه الجرأة رفع الغطاء عن المبتزين الذين جهدوا لتكريس "قدسية" هذه المواضيع التي تحدث عنها بكل وضوح كاشفاً أن تحييدها نوع من المشاركة في تكريس مخاوفها.

يختلف ما كتبه عبود عن كل الكتابات الأخرى، ففي الشكل تتراوح النصوص بين المقال والبحث والتوثيق والتحليل والتحقيق، كأنك أمام شاشة عرض مرنة تنقل... وتنتقل إليك. أما في المضمون فهو يبدأ بالسوريين وينتهي بهم، في وقت كان تجاهل هذا الشعب القاسم المشترك بين غالبية من كتبوا عن سورية. يعرف من هو السوري، وأين نشأ وماذا درس وتعلم وكيف أراد متابعة مهنة والده أو الانتقال إلى مهن أخرى أكثر تطوراً. يعرف كيف تعرض لواحدة من أكبر عمليات التشويه الفكري وبالتالي التوجيه المركز، ويعرف أن سورية لو ترك لقلب مجتمعها أن ينبض بشكل طبيعي لكانت درة التاج الاقتصادي العالمي وليس العربي فحسب... ثم يعرف أكثر كيف توالت المحن وتكالبت وكيف كان أركان الحكم الحالي وامتداده السابق يغلقون شرايين هذا القلب لتغذية استمرارهم في السلطة.

الثورة تحضر بقوة في الكتاب، كيف لا، وغسان عبود كان صوتها وصورتها عبر تلفزيون أورينت الذي استمات النظام لتأميمه لكنه مُني بالفشل. وللثورة حضور خاص هنا لأن من يكتب عنها ليس مستشرقاً ومراقباً بل فاعلاً ومشاركاً. صارت عواصم القرار وجهته المستمرة، والميدان على الأرض في سورية هاجسه الدائم، يلاحق أحياناً عمليات الإغاثة الإنسانية وبناء المستشفيات الميدانية ودعم

الصامدين والثوار مثلما يلاحق أنفاسه... بعض ما حصل يذكره الرجل بتفاصيله فيما يتحفظ على الكثير لمحطات أخرى.

ما الذي جرى في سورية؟

في هذا الكتاب إجابات عما جرى ويجري واستشراف للمستقبل. مجموعة من الأبحاث القيمة مكتوبة بلغة مباشرة لم يرد كاتبها أن يغلفها بأي قناع بل تقصد المبالغة في إسقاط الأقنعة عن آخرين. يراهن على الثروة البشرية لسورية ويدعو السوريين إلى ثورة ذاتية تعيد فرضهم على خريطة الحدث كعنصر أساسي وليس هامشياً.

تبقى نقطة أخيرة بعد قراءة الكتاب قد لا يتوقف الكثيرون عندها، وهي أن غسان عبود عاشق حقيقي لسورية. يتحدث عن تاريخها بفخر، وعن جغرافيتها بعمق، وعن أصالتها وعراقتها بحب، وعن طبقة المبدعين الخلاقين من رجال أعمال وصناعيين بشغف، وعن المقاومين للحفاظ على دورها وحضورها بعنفوان، وعن انكماشها بحسرة، وعن تسليط حكم بعينه عليها بمرارة، وعن واقعها بحزن... لكن من يعرفه يدرك أن لا مكان لليأس في قلبه وعقله، يحمل المشعل ويمشي قدُماً إلى أمل جديد عنوانه "سورية حرة"!

"آية الله" نتنياهو يغازل حلف الأقليات!

لا تخلو يوميات الشرق الأوسط من مفاجأة بحجم كارثة. المفاجأة هذه المرة ليست من دولة أو زعيم دولة ديكتاتورية أو ميليشياوي متطرف، بل من رئيس وزراء إسرائيل "الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط" بنيامين نتنياهو، حين قال في المؤتمر الصهيوني العالمي في القدس الذي عقد في أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٥: "إن هتلر كان يريد طرد اليهود من أوروبا فقط، لكن مفتي القدس آنذاك الحاج أمين الحسيني قال له إن اليهود ينبغي أن يُزالوا من الوجود وإلا فإنهم سينتقلون إلى فلسطين، وطالبه بحرقهم"!

لم تؤكد أي وثيقة تاريخية كلام نتنياهو، كما رفض الناطق باسم الحكومة الألمانية تصريحات نتانياهو، قائلاً: "إنَّ ألمانيا تتحمل مسؤولية المحرقة والألمان يعرفون تاريخ القتل الإجرامي العرقي الذي قام به النازيون والمحارق النازية، وهذا التاريخ يدرّس في المدارس الألمانية ولن يتم نسيانه، وليس هناك مبرر لتغيير رؤيتنا للتاريخ بأي شكل من الأشكال، نعرف أن مسؤولية هذه الجريمة ضد الإنسانية مسؤولية

ألمانية، إنها مسؤوليتنا نحن". هذا التصريح يؤكد أن الدولة الألمانية تحكم أمّة عقلانية، لأن الأمم العاقلة تعترف بأخطائها وتدرّسها في مدارسها لتكون عبرة وقدوة لأجيالها ولا تتعلق بتاريخ تبتدعه، تغسله، تنصّعه، وتزيل منه النقاط السوداء وتؤلّه شخصياته، كما تفعل أمّة الإسلام وأمّة العرب وإيران والكرد، لتحافظ على تخلفها وانقطاعها عن المستقبل وتتفرغ فقط لاجترار تاريخ تظنه عظيماً!

أكثر من ذلك... انتقد تصريحات نتنياهو حليفه المقرب ووزير دفاعه آنذاك (موشي يعلون) الذي قال: "إن ما قاله رئيس الحكومة خاطئ". وأضاف يعلون: "بالتأكيد لم يكن الحسيني مبتكر الحل النهائي (التسمية التي أطلقها النازيون لإبادة اليهود). بل كان ابتكاراً شريراً لهتلر نفسه."

لفت انتباهي تعليق يضج بالألم لأحدهم، قال: "لم يبقَ إلا الهنود الحمر ليحمّلوا السُنة العرب مظلوميتهم التاريخية ويتهمونا بإبادتهم"!؟

كلمات عدة كافية لتعبر عن حالة السُّنة العرب هذه الأيام في المنطقة الذين يُطحنون تحت سندان التعصب الديني ومطرقة المتحالفين الذين رفعوا فجأة مظلوميات دينية تاريخية بوجه السُّنة العرب، بقيادة حكم الملالي الإيراني الذي يشنّ حرباً "مقدسة" ضدّهم ويدمر بلدانهم، العراق وسوريا واليمن، ويعبث في بلدان أخرى، لبنان والسعودية

والبحرين والكويت، بالتحالف مع أقليات المنطقة من العلويين والشيعة الأكراد وبعض المسيحيين. وقبل شهر، أيضاً، بارك بطرك الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية الروسية "الحرب المقدسة" في سوريا!؟

المحرقتان مدخل لليهود والعرب السنة

يبدو أن النخب السورية لم تفهم طبيعة تشكل المجتمع والدولة الإسرائيلية طيلة سبعين عاماً، فكان السؤال المعضلة لديهم: كيف ليهودي ليبرالي أو علماني أو اشتراكي أو ملحد أن يقبل في عقله "وعد الرّب بأرض مقدسة"؟، وما القاسم المشترك بينهم وبين المتدين اليهودي المتشدد؟ أعتقد أن السُّنة في سوريا وهم الغالبية (الإحصاءات الحقيقية تؤكد أنهم أكثر من ٨٠ في المئة بينهم ٦٥ في المئة عرب سنة) فهموا أن القتل على الهوية والمجازر والاضطهاد أفعال وحدت اليهود في مجتمع واحد، مما منحهم هوية وطنية، وليس فقط وعد الرب!

وهذا بالضبط ما يحدث مع السُّنة في سوريا، فصور الجثث المعذبة حتى الموت والمرّقمة التي خرجت من معتقلات الحكم العلوي لنساء وأطفال وشيوخ، تفوق بفظاعتها صور اليهود في معتقلات النازية، كذلك معاناة الترانسفير السّني الحالي، للهاربين من جحيم الموت

بالبراميل في سوريا إلى أوروبا الغربية، وذل وقهر المعتقلات الجماعية في بلدان العبور، دول أوروبا الشرقية، وملاحقتهم بالعصي والكلاب ودمغهم بأرقام تُبنى عليها ملفات شخصية لهم، ساهم في بناء ذلك الفهم اليوم.

إذاً لقد "تكرم" أعداؤهم بصقل هويتهم بالحديد والنار، وإلا ما هو الجامع بين المفكر صادق جلال العظم والشيخ عدنان العرعور وأنا شخصياً!

العظم المفكر اليساري كتب: "الهوية السّنية الآن لم تعد ترتبط بالتديُّن. استغرب ضبط النفس الذي يبديه السّنة في سوريا". (مجلة دمشق شهر أيار/ مايو ٢٠١٣). والعرعور لطالما خاطب السوريين بصفتهم الدينية السّنية. وأنا ألحّيت على حقيقة: "أننا نُقتل بدون تمييز لأننا سُنة عرب"، إذاً بالرغم من اختلاف منهج الخطاب بيننا نحن الثلاثة، لكننا نتشابه في الرؤية الواحدة للألم والعدو والحل.

***

أُدرك أن إسرائيل ليست كتلة صماء، وفيها تعدد آراء ومواقف، كما أُدرك أن جهات عدة لا تؤيد نتنياهو الذي يمثل أقلية إسرائيلية ترغب بالانضمام إلى "حلف الأقليات" ضد السُّنة العرب، مقابل أكثرية إسرائيلية لا ترغب بالتورط مطلقاً، ظناً منها أنها بذلك تبتعد

عن حريق المنطقة، وكأن الأحداث تجري في مجرّة أخرى وليس حولها من كل جانب!.

التحالف مع أقليات المنطقة!

بن غوريون أحد الآباء المؤسسين لإسرائيل، ربط في مذكراته مصير الدولة العبرية بالتحالف مع أقليات المنطقة. كان يرى أن إسرائيل تعيش في محيط سُنّي، ولذلك فمن الضرورة دعم الأقليات الدينية والعرقية.

طبّق حكام إسرائيل فعلياً رؤيته تلك، عندما اعتمدوا على الدروز "لواء جولاني" الشهير بقمعه بعنف للانتفاضات الفلسطينية المتعاقبة، كما يضم الجيش الإسرائيلي ضباطاً برتب عالية من الشركس. في حين يُستثنى منه السُّنة العرب.

تل أبيب أيضاً دعمت وصول حكم الحاقدين من العلويين إلى سوريا، هذا الحكم الذي نفّذ - بدوره - سياسة ممنهجة بتدمير سوريا وشعبها، كما حاولت تل أبيب إقامة تحالف مع بعض الموارنة في لبنان، كان من نتائجه الكارثية تحجيم الدور التاريخي الماروني البالغ الأثر في الثقافة العربية الحديثة، ويكاد أن يهدد وجودهم في المنطقة. وكذلك

أسست تل أبيب "جيش لبنان الجنوبي" الذي يعتقد الكثيرون أنه جيش ماروني، لكنه في الحقيقة جيش يرأسه عدد قليل من الضباط المارونيين، فيما ضباطه وقاعدته وجلّه الأعظم من أبناء شيعة جنوب لبنان، الذين يقاتلون اليوم في سوريا.

لا تستطيع الأقليات تحمل كلفة السلام مع إسرائيل، وإن كانت ترغب في توريطها بالحرب الدينية الدائرة في المنطقة. لذلك فإن من يبحث عن السلام الحقيقي بين الإسرائيليين والعرب عليه أن يبحثه مع السُّنة، فهم "السكان الأصليون للمنطقة "، وعبر حكمهم لدمشق تحديداً بلا دكتاتور، لأن دمشق قلب وموجّه الصراع العربي - الإسرائيلي الكارثي على الشرق الأوسط عموماً، والسُّنة العرب خصوصاً، فبدلاً أن يرمي الخطاب الثورجي لعبد الناصر وبعث أسد الإسرائيليين في البحر، ها هم السُّنة العرب يرمون أنفسهم في البحار بحثاً عن الأمان من توحش حلف الأقليات هذا.

***

إذاً، على قوى النفوذ وصنّاع السياسة الإسرائيلية العقلاء (رَفَضَ بعضهم فعلاً طلب بعض الجهات الدرزية في الجولان والداخل السوري التسلح والتمويل والحماية للتحرّش بجيرانهم)، على هؤلاء

تجميع أنفسهم وقواهم والمبادرة بإرادة قوية، مع جيرانهم لصنع سلام حقيقي يُرخي ظلالاً من الأمن على جميع سكان المنطقة.

نتانياهو يغرّد خارج حقائق التاريخ. إذ كيف يجنّ جيرانه ولا يُدخل رأسه ويخترع جنونه الخاص؟!

الجنون الأول: عندما يسمح للمدنيين اليهود باستعمال السلاح في الشوارع، ضرب الشوارع المدنية ببعضها بدل تدخل الدولة العاقلة بأنظمتها وقوانينها حتى ولو كانت دولة احتلال تحتل أراضي الغير، ولكن تبقى أفضل من أفراد متطرفين مسلحين.

الجنون الثاني: عندما قدم نفسه "آية الله" نتنياهو! فلا يعقل لمجنون أن يصدق مظلومية نتنياهو بأن مفتياً مسكيناً، كالحسيني، في منطقة بائسة كفلسطين في ثلاثينيات القرن الماضي، سيّر هتلر زعيم إمبراطورية عظمى لا شعبها ولا قيادتها تدين بدين شيخ الجامع هذا بالأصل.

***

نتنياهو يقرع طبول حرب، المجتمع الإسرائيلي غير قادر على تحمل تكلفتها، لأنها هذه المرة ستكون حرباً مع شعوب المنطقة وليس مع

جيوش خائبة تتبع أنظمة خائنة. والسُّنة بلادهم بعضها تُدمر والبعض الآخر في طريقه إلى الدمار، ربما لن يخسروا كثيراً من حرب نتنياهو المضافة للحروب الأخرى عليهم، إن حدثت. لكنهم بالتأكيد يرغبون بسلام حقيقي يُعيد الأمان للمنطقة، بدلاً من التسرّع في صب الزيت على الحرائق الملتهبة بالمنطقة، التي ستتحول إلى حريق هائل يحرق الشرق الأوسط كله ويُخرج سكانه جميعاً من ثيابهم كمشهد يوم القيامة.

أورينت نت: ٢٠١٥/١١/٤

من يملك مفتاح السلام مع إسرائيل
الأقليّـــــة أم الأكثريـــّـة؟!

أثناء مفاوضات السلام الإسرائيلية السورية التي بدأت عام ألف وتسعمئة واثنين وتسعين عقب مؤتمر مدريد، تداول السوريون كاسيتاً مسجلاً لحديث للواء العلوي علي حيدر، قائد الوحدات الخاصة والشخصية العسكرية الأهم التي ثبّتت حكم حافظ الأسد آنذاك، يتحدث إلى جمع من الضباط العلويين غاضباً ما فحواه التالي:

"يقترف حافظ الأسد خطأً كبيراً إن كان جاداً في عقد اتفاقية سلام مع إسرائيل. إننا كعلويين مهما طال حكمنا لدمشق عشر أو خمسين سنة ستعود يوماً إلى أهلها ولن ينسى السُّنة فعلتَنا لألف عام. عندما تعود دمشق لأهلها، فليعقدوا سلاماً مع إسرائيل ولْيرفعوا العلم الإسرائيلي في عاصمتهم، نحن العلويين لا نستطيع تحمّل الأعباء المستقبلية لرفع العلم الإسرائيلي في دمشق"!

في تلك المفاوضات كان حافظ الأسد حذراً لهذه النقطة، إذ صدّر شخصيات سياسية سُنية تجلس مقابل الوفد الإسرائيلي في الجلسات

العلنية، خوفاً أنْ تُحتَسَب المفاوضات على الطائفة العلوية، وفي النهاية أفشل حافظ مفاوضات الأربع سنوات، رغم أن تل أبيب وافقت على إعادة هضبة الجولان عدا عن بضع كيلومترات على حدود طبريا كانت لن تؤثر بأي مجال لو كان جاداً في السلام مع إسرائيل!

عقب فشل المفاوضات وفي جلسة ضمت حافظ الأسد مع نجاح العطار (التي كانت وزيرة الثقافة حينذاك، ثم أصبحت نائبة الرئيس) قال لها في رسالة لأهل دمشق: "رأيت لم أعقد اتفاقيةَ سلام مع تل أبيب كانت مفاوضات لأجل المفاوضات لا أكثر"!؟

طبعاً عدا أن بنية حكم أسد الأب والولد غير قادرة على سلام علني مع إسرائيل، لأنها قائمة على دعاية لمبدأ الممانعة والمقاومة، وهي ليست كذبة أسدية بقدر ما هي كمين دولي للشعب السوري جعلتْه يتخلى غصباً عن تنمية بلاده بحجة أن ميزانية الدولة تصرف على الصمود والتصدي ويتخلى أيضاً عن حرياته تحت شعار "لا صوتَ يعلو على صوت المعركة مع إسرائيل"، الأمر الذي بدّد خيرات البلاد في جهنم الفساد، ثم أحرقها!؟

في مثال صارخ آخر على عدم قدرة الأقليات في منطقتنا على صنع السلام مع إسرائيل أقامت الطائفة المارونية عبر ميليشياتها وأحزابها القوية مع بداية الحرب الأهلية اللبنانية عام ألف وتسعمئة وخمسة

وسبعين تحالفاً مع إسرائيل، كلّل بتوقيع أمين جميّل لاتفاق سلام في أيار عام ألف وتسعمئة وثلاثة وثمانين، دفعت الطائفة المارونية ثمن هذا الاتفاق غالياً، فعدا أن الاتفاق نفسه لم يصمد سوى بضعة أشهر، واغتيلت معظم الشخصيات المارونية التي ساهمت فيه بمن فيهم بشير الجميل الذي هندس الاتفاق نفسه قبل أن يوقعه أخوه من بعده، لكن الأخطر أن هذا السلام المنفرد الذي رعته أقلية عرّض ولا يزال الطائفة المارونية للذوبان وجعل نفوذها في لبنان أثراً بعد عين!

أوردت هذين المثالين لأننا بتنا نسمع أصواتاً عديدة من داخل منظومة بشار أسد منذ العام الماضي تطالبُه بعقد سلام مع إسرائيل. فإذا علمنا أنه في دمشق لا يستطيع أحد أن يقاقي دون موافقة أمنية أو إشارة من "القصر الجمهوري"، عرفنا أن هؤلاء مدفوعون لتحضير الأرضية الشعبية لتقبل اتفاق سلام بين أسد وتل أبيب. كما لاحظْنا أيضاً رسائل أسدية يحملها أصدقاء مشتركون إلى تل أبيب، بتنا نقرأ ونسمع صداها في وسائل الإعلام العالميةِ تستجدي السلامَ علَّ ذلك يعطي نظامَه نقطة قوة إضافية. لكنني أعتقدُ أن هناك عاملين أساسيين يجعلان هذا المنال صعباً جداً إن لم يكن مستحيلاً.

العامل الأول داخلي: وهو عدم قدرة الطائفة العلوية على تحمّل هذا الاتفاق وتبعاتِه عليها مستقبلاً، كما إن الاتفاق سيكسر العصا

الوحيدة، عصا المقاومة والممانعة التي تقيم نظام أسد أمام جمهوره، والتي لا تزال فاعلة مع كمٍّ لا بأس به من المغرر بهم. أما الاتفاق نفسه فهو عديم الجدوى فيما لو تم، لأن سوريا الحالية دولة في قمة هرم الدول الفاشلة وينعدم الإنفاق والاستهلاك والإنتاج فيها مثلما ينعدم الأمن الداخلي والانسجام الطائفي وأي أسباب قوة قد تحسب لها إسرائيل حساباً!

والعامل الثاني خارجي: فالإسرائيلي أذكى من أنْ يقع في مستنقع عقد اتفاق سلام مع مجرم حرب صنف العالم إجرامه كأفعال فاقت وحشيتها النازية بأشواط، والإسرائيليون شديدو الحساسية تجاه هذه النقطة، ما سيجعل اتفاق سلام مع أسد لطخة كبرى على جبين السياسة الإسرائيلية لا مبررَ لها طالما إسرائيل تحصل على ما تريد من سوريا منذ أكثر من نصفِ قرن عبر العلاقة السرية.

لكن البعض يخشى من قبول صانع القرار الإسرائيلي توقيع اتفاقيةِ سلام مع المجرم أسد لأن الساسة الإسرائيليين لا يزالون يستجدون اعترافاً من دول صغيرة، بشكل مهين لدولة باتت أكبر وأقوى دولة في محيطها، وأكثرها نُخباً ومؤسسات علمية وتكنولوجيا متطورة وصلادة أيضاً.

مع أنني لا أعتقد أن إسرائيل تأخذ استجداءات أسد للسلام على محمل الجد، كونها تعرف أن توقيع اتفاقية سلام معه سوف يؤثر على الرواية الإسرائيلية للهولوكست والتعاطف الإنساني مع ضحاياها من اليهود، وستؤثرُ كذلك على رواية التحضر وإنسانية الشخصية الإسرائيلية في محيط جغرافي عنيف! إضافة لإدراكهم أن السوريين لن يسامحوا الإسرائيليين على هذا الفعل لزمن طويل، ما يجعل السلام الحقيقي بين الشعبين السوري والإسرائيلي بعيداً جداً!

***

إذاً من يستطيع إقامة سلام حقيقي مع إسرائيل؟

إن من يستطيع صنع السلام بين الدول العربية وإسرائيل هم الأكثرية، السُّنة العرب تحديداً، عبر قيادات عربية تقبل بها شعوبها وتحترمها، قيادات ذات حكم رشيد أو حكم ديمقراطي واعٍ. فالسُّنة العرب هم وحدهم القادرون على حماية السلام وتحمّل نتائجه وجعله حقيقة وليس خيانة، واقعاً تحصد ثماره المنطقة كلها وخصوصاً إسرائيل التي تكاد تكون الدولة المنتجة الوحيدة في بحر من الاستهلاك!

حقيقةً إن العرب والإسرائيليين جيران شئنا أم أبينا، وتجمُعنا جغرافية واحدة مهما كانت مُعقّدة، حقيقة لم يعد يستطيع نقضها إلا الحمقى والمغامرون بمصير شعوبهم، لذلك فإن شعبيْ المنطقة عرباً وإسرائيليين باتوا يحتاجون إلى حياة أكثر هدوءاً وتنمية، ولهذا الحديث مقال آخر..

أورينت نت: ٢٠٢١/٣/٢١

سورية وتركيا: تَقَلُّب السياسة والجغرافيا!

في أواخر العام ٢٠١١ جاءني اتصال من اللواء آصف شوكت، (قُتل ضمن تفجير خلية الأزمة في تموز ٢٠١٢)، حمل اقتراحاً بأن يستقل العلويون بدولة في مناطق غرب سورية ودمشق، ويتخلوا للثورة عن المنطقة الممتدة من إدلب إلى درعا والسويداء مروراً بحماة وحمص وريف دمشق الشرقي، ولم يُبدِ تشدداً تجاه دمشق!

لم يتحمل عقلي آنذاك ذلك الاقتراح فقلت له: "وما الذي سنفعله بهذا {الكردور} الهامشي المحاصر؟! وبما إن قسمتك طائفية، ماذا عن عدة ملايين من السُّنة في المناطق التي ستنفصلون بها، هل سيقبل سُنتها التبعية لكم وهم ما قد عرفوا فيكم؟! إنكم إن فعلتم ستدفعوننا دفعاً ليكون لنا منفذ على بحار الترك"!

أثارت هذه الجملة حنقه وانتهى الحوار الذي دام نحو ١٥ دقيقة. فيما بعد ذَكَرتْ شخصيّتان من السُنة العرب أن شوكت طرح اقتراحه عليهما، وأكدا أنهما رفضا أيضاً، ولولا أن المجالس بالأمانات لذكرتهما، لكني أتمنى على كل شخصية عرض عليها شوكت اقتراحه هذا أن تعلنه، وأظنهم لا يتجاوزون أصابع اليد!

أعتقد أن اقتراح شوكت ربما كان مطلب خلية الأزمة التي يبدو أنها حاولت تجنيب سورية النهاية المأساوية، التي جرها الإيراني وعميله بشار لها، ولو كان الثمن تقسيم سورية طائفياً، وأعتقد أن هذا كان أحد أسباب اغتيالهم!

***

أعلنت القبائل العربية بقيادة الشريف حسين وأبنائه الثورة على العثمانيين ١٩١٦؛ شاركهم ضباط وأفراد سوريون وعراقيون منشقون عن الجيش العثماني وعدد من السياسيين منهم الدمشقي نسيب البكري الهارب من بطش جمال باشا السفاح الذي أعدم خيرة قيادات الحركة القومية العربية الأولى ١٩١٦ التي أنشأها السُنة العرب والمسيحيون الأرثوذكس فقط، ولم تك تضم أي أقلية أخرى!

في العام ١٩٥٧ حدثت أزمة كبرى بين سورية وتركيا، هدد الجيش التركي باجتياح سورية، بسبب معارضة الحكومة السورية برئاسة القوتلي لحلف بغداد ومبدأ أيزنهاور. كان من نتائج الأزمة توقيع اتفاقية تعاون بين سورية والاتحاد السوفييتي، وتوجيه خروشوف إنذاراً للحكومة التركية يطلب منها سحب قواتها ووقف مناوراتها العسكرية على الحدود السورية، ومن نتائجها أيضا الوحدة العجولة بين

مصر وسورية، والتي جاءت تتويجاً لإرسال عبد الناصر فرقاً عسكرية مصرية لمساعدة الجيش السوري آنئذ!

خلال الأزمة تسلح سكان ريف ومدينة إدلب، فلاحين وأصحاب مهن ومعلمين وو.. مساندة للجيش السوري واستعداداً للتصدي للتهديد التركي، وبقي سكان إدلب يذكرون الأوقات العصيبة لهذا التهديد نحو ربع قرن!

أوردتُ هذه الأمثلة لأدحض الادّعاءات التي تتهم سكان المنطقة بمداهنة الأتراك اليوم على حساب الوطنية السورية، لقبولهم الحماية التركية لهم من مجازر المجرم الأسد ومن معه!

علاقة الأسد بتركيا: النار والجنة والولد العاق!

في العام ١٩٩٨ هددت تركيا باجتياح سورية، وضرب البقاع اللبناني المحتل من قوات حافظ الأسد آنذاك، والذي تتمركز فيه معسكرات عصابات أوجلان، ومنه تنطلق العمليات الإرهابية ضد الأتراك. أطلقت القيادات العسكرية التركية تصريحات مهينة لشخص حافظ الأسد "سندوس رأس حافظ الأسد بالصّباط". أدرك حافظ جدية تهديد الحشود العسكرية التركية على الحدود

السورية، فسارع للطلب من إيران ومصر التوسط الذي أدى لتوقيع اتفاقية أضنة التي تخلى فيها عن المطالب السورية بلواء إسكندرون، كما أغلق حافظ معسكرات البي كي كي وطرد أوجلان من سورية، وأعطى الأتراك خط سيره فاعتقلوه.

آنذاك علّق مُحلل من الاستخبارات التركية على خوف حافظ الأسد بتهكم: "كان لديه استعداد أن يسلم أبناء عمومته وعشيرته لو طلبنا منه"! كما انتشر فيما بعد أن اللواء عدنان بدر حسن رئيس شعبة الأمن السياسي، انتحى جانباً بأحد أعضاء الوفد السوري عندما حاول المماطلة بالتفاوض وأمره: "وقّع دون مماطلة. حافظ الأسد أكد لي أنه سيعلق رؤوسنا إن فشلت المفاوضات"، كما سربت الصحف المصرية أيضاً تلاعب مبارك بخوف حافظ مع الأتراك!

علاقة الرئيس التركي رجب طيب أردوغان ببشار الأسد كانت في أحسن حالاتها حتى اندلاع الثورة، لا بل وحتى بعدها بشهور! وسأكشف سراً: حين حاولت تنظيم المؤتمر الأول للمعارضة السورية بعد شهر من اندلاع الثورة، رفضت سلطات دول الربيع العربي والدول المحيطة بسورية بما فيها تركيا طلب تنظيم المؤتمر على أراضيها (!؟) مما اضطرنا للسعي لعقد المؤتمر في المياه الدولية على ظهر سفينة استأجرتها لهذا الغرض، وقررت أن أعنونه: "لم نجد مكاناً على

الأرض لنعارض منه إجرام بشار الأسد فلجأنا للمياه التي لا سيادة للدول عليها"!

أعتقد أن هذا دفع بعض الجهات الأوروبية للتوسط لدى تركيا لقبول عقد المؤتمر على أراضيها. وحصلنا على الموافقة بداية شهر مايو أيار، وعقدناه في أنطاليا كأول مؤتمر للمعارضة السورية في ٢٠١١/٥/٣١، إذ كان موقف الحكومة التركية يراهن على استجابة بشار الأسد للمطالب الشرعية للشعب السوري، وأذكر قول الشخصية الحكومية التركية المكلفة بمتابعة تنظيم المؤتمر: "يعتبر الرئيس أردوغان بشار كابنه وهو يراهن على كياسته"! لم ينفض أردوغان يده من بشار إلا بعدما استفحل إجرامه حين هاجمت ميليشياته المتظاهرين بالرشاشات والمدافع وبدأت تقع عشرات الضحايا ومئات الجرحى يومياً.

***

اليوم بعد الدمار الفظيع يوجد في تركيا نحو ٤ ملايين لاجئ سوري يعتبرون تركيا أفضل بلد في التعامل معهم بعد دول العالم الجديد وبعض دول أوروبا، وحصل عشرات آلاف السوريين على الجنسية التركية. كما إن السوريين ممتنون لأردوغان لبسط حمايته على نحو ٤,٥ مليون سوري في مناطق شمال سورية، لولاها لحدثت مجزرة كبرى

ستكلف مئات آلاف أرواح السوريين العزل المصرّين على مقاومة إرهاب أسد الطائفي حتى الموت! وهذا ما جعل سكان الشمال السوري من السُّنة العرب ممتنين للأتراك على موقفهم، مع أنهم أنفسهم من قام أجدادهم بالثورة العربية على العثمانيين، ووقف آباؤهم بسلاحهم البسيط لمواجهة تهديد العسكر التركي ١٩٥٧!

هم بالتأكيد يقبلون الموت، وأنا منهم ومعهم، ولا يقبلون حكم الأسد ومن معه! فالحرية والكرامة وحق الحياة أهم من الجغرافيا وتقلباتها!

في نهاية العام ٢٠١٧، زارتني شخصية سياسية برلمانية تركية تحمل دعوة لزيارة تركيا ومقابلة شخصية سياسية تركية كبرى، للحديث في الشأن السوري. بترحيب عالٍ في الشخصية وبأدب جمّ اعتذرت عن الزيارة وحمّلت الزائر المرموق الرسالة التالية: "من الواضح أن السياسة التركية تتبنى الإخوان المسلمين في سورية وتعلق عليهم آمالها السياسية، لذلك أجد أن الزيارة ستضعني في حرج كبير، إذ لا خطط لدي للانتساب إلى الإخوان المسلمين. وأتمنى أن لا يكونوا الجهة الوحيدة التي تمثل السوريين لديكم(!؟) ولا أريد لكلمة "لا" أثناء اللقاء أن تسبب لي حرجاً، لأنكم جيران بيتي"!

تركيا جارتنا والجغرافيا قدر، وبيننا تاريخ مشترك عظيم، إننا لن نقبل أن نكون جزءاً من أي مؤامرة على الشعب التركي، وسنبقى ممتنين للأتراك حمايتهم لنحو ٨ ملايين سوري داخل تركيا وعلى حدودها، لكننا نتطلع إلى سورية دولة مستقلة، تتعاون وترتبط مع تركيا بعلاقات ندية واحترام متبادل لما فيه خير الشعبين.

إن جلّ ما نطلبه من الحكومة التركية أن لا تفرض علينا شكل الحكم وأن تتوج مساعداتها لنا بتحقيق الاستقرار والمساعدة بإنشاء حكم ديمقراطي أو رشيد يساهم فيه جميع سكان المنطقة التي يبسطون حمايتهم عليها مؤقتاً، وأن تساعد السوريين في الخارج الراغبين في المساهمة في بناء ما دمّره الأسد في حربه الطائفية علينا!

إننا نعرف أنه بعد خرائط "سايكس بيكو" ليس هناك أي رغبة عالمية في تغيير تلك الخرائط، كما يحاول البعض أن يتوّهم أو يُوهِم، لذلك نحن نعرف أنه لا مطامع لكم في هذه المناطق، وأن الهاجس الأمني التركي هو الذي يؤرقكم، وهذا حقٌ لكم نُقر به، ولن نقبل أن تكون أراضينا ممراً لإرهابٍ يُسيء لأمن الشعب التركي.

إننا نعرف أن من يحقق الحلم السوري بالحرية هم السوريون أنفسهم ووحدهم، ولا نطلب من أحد أن يعمل لنا ما علينا عمله بأيدينا من تحقيق النصر وطرد عائلة أسد ولفيفهم من بلادنا وصنع الأمن والسلام والرخاء لعموم السوريين وجوارهم.

أورينت نت: ٢٠٢١/٣/٨

ماذا تستطيع السياسة
لدى الثورة السورية فعله مع إيران؟!

وقفتُ حائراً كيف أكتب عن إيران من وجهة نظر سوري منكوب بوطنه، ثائر على نظام مافيوي عميل، يبحث عن ورقة سياسية يتشارك بها مع غازٍ يَعتبرُ النار دينه وديدنه ودَّدانه؟! هل أكتب بلغة التاريخ، لغة عمر بن الخطاب "ليت بيني وبين فارس جبلاً من نار"؟! لكن جبل النار بقي حبيس الليت! أم أكتب بلغة السادات: "أنا أكثر من غضب ورفض الثورة الإيرانية لأنها ستشوه الإسلام وتُصدِّرُ الكراهية للجميع"!؟ لكن غضب القادة العرب على اعتداءات إيران بقي غضباً فردياً ضعيفاً ولم يســـتطع أن يتجمّع ويتحول إلى فعل!

هل أبدأ من الماضي البعيد أم من الواقع الحالي وكلاهما يُقطِّرُ عنفاً ودماً وآلاماً وكراهية؟!

تاريخ طويل بين العرب والفرس عنوانه: الدمار القادم إلينا من الشرق!

تشهد آثار بلادنا على أمم كثيرة عبرتها، الفرس ٤٤٩ ق.م عبروا إلى بلاد الإغريق، ثم الإغريق إلى بلاد الفرس مروراً بالروم وصولاً إلى الترك والإنكليز والفرنسيين وما بينهم من أُمَم، تركت آلاف الأوابد الأثرية التي تشهد على حضارتهم إلا الفرس! الذين عبروا غير مرة وامتدّ نفوذهم إلى جزيرة العرب فترات، لكن ليس لديهم موقع أثري واحد يشهد لهم حضارة في بلاد الآخرين كالجزيرة العربية وبلاد الرافدين والإغريق والترك؛ حتى عربستان التي احتلتها إيران عام ١٩٢٥، لا تزال المنطقة الأقل إعماراً في العالم الثالث! لكن كتابات التاريخ أكدت أن عبور الفرس رافقه دمار النار، حتى أطلقت عليهم أمم المنطقة: قوة من نار ودمار لا تعرف العمار!

سأسمح لنفسي ذكر رواية سمعتها من السياسي السوري عصام العطار، عافاه الله، أنّ آية الله الخميني زاره قبل أن ينتقل من فرنسا إلى إيران، فقال العطار للخميني (أن بمقدوره أن يكون زعيماً للأمة الإسلامية) لكن الخميني أجابه بأنه (زعيم للأمة الجعفرية "الشيعية" وسيبقى كذلك)!

هل كان هذا الجواب متضمناً رغبة الخميني الخفية بتحويل العالم الإسلامي إلى طريقته الدينية، كما سلك لاحقاً؟!

***

أيّد حافظ الأسد الخميني من اللحظة الأولى لوصوله إلى طهران! وتحالفا معاً في الحرب على العراق. لكن في لبنان أصرّ حافظ على أن يكون صاحب النفوذ الأوحد فيه، ورفض محاصصة نفوذه مع طهران، وحرّض حركة أمل الشيعية التابعة له على شنّ حرب ضروس على حزب الله التابع لطهران في عام ١٩٩١، حتى خضع الإيرانيون لنفوذه في لبنان خضوعاً مطلقاً، وشهدنا من فيديوهات مسربة كيف كان حسن نصر الله يجلس في حضرة الضابط السوري المكلف في لبنان (غازي كنعان) بذلّ وكنعان لا يُعيره نظره.

استغلت طهران رغبة بشار الأسد بالاستقواء بها على حرس والده القديم مع الشهور الأولى لتوريثه حكم دمشق، وحققت له طلبه، بالمقابل أصبح السفير الإيراني مندوباً سامياً في دمشق تأتمر الوزارات بأمره، يغادر سفارته إلى أي بقعة سورية، ويجتمع بالسوريين الشيعة متى يشاء وأنّى يشاء، ليتحول بشار إلى دمية استجلب عليه غضب الغرب والعرب، وخسر نفوذه في لبنان وأصبح حسن نصر الله ذليل حافظ الأسد بالأمس سيداً على ولده اليوم!

قلة من السوريين فهموا مصطلح (تصدير الثورة الإيرانية) أثناء الحرب الإيرانية العراقية، لكنهم وعوه عندما بدأت الميليشيات الشيعية المدعومة من إيران بتدمير المدن والقرى السورية الثائرة على

نظام بشار، مرددين شعارات حاقدة مستخلَصة من روايات مرسلة من عمق التاريخ! أما حين شاهدوا إخوانهم في المواطنة السورية من الشيعة وقد تحوّل أغلبهم مع اللحظة الأولى لانطلاق الثورة إلى أداة استخباراتية وأداة قتل بيد الإيراني وعميله بشار، أدركوا القوة الفتاكة لهذا الشعار وفكّوا لغز زيارات السفير الإيراني وصحبه من قيادات حزب الله اللبناني إلى البلدات والأحياء الشيعية والمتشيّعة حديثا، وأنها كانت عملية ممنهجة لتحويل الأهل والجيران طيلة أجيال وأجيال إلى أعداء!

يبقى اللّغز المحيّر، على الأقل بالنسبة لي، ما هي الفكرة الجاذبة في دعوة ملالي إيران التي حوّلت عدداً من أبناء الوطن إلى عملاء؟! البعض ادّعى على الفقر واعتبر أن الـ ١٠٠ دولار التي يدفعها الدعاة الإيرانيون للفقراء في الأمم الإسلامية مترافقة مع بناء بعض المرافق البسيطة، كحفر بئر أو بناء مدرسة حسينية، هي العصا السحرية، لكن ماذا عن عدد من الشيعة في الدول الإسلامية الغنية الذين اكتشفت سلطات بلادهم تبعيتهم الاستخباراتية لِقُم وقبولهم القيام بزعزعة استقرار بلدانهم؟!

***

تقوم طهران بحرب بالوكالة في البلاد العربية، عبر تحويل بعض المواطنين العرب من أتبعية المذهب الشيعي، أو المقرب منهم كالعلوي النصيري في سورية ولبنان وتركيا أو الزيدي في اليمن، إلى أعداء لوطنهم عبر بث الكراهية والتفرقة، أو خلق جماعات متحولة حديثاً إلى دين الملالي الجديد، كما حدث في السودان وإندونيسيا وماليزيا وغيرها، ثم السعي إلى خلق صِدام بين الكتلتين؛ قلة عددية مُزوّدة بأحدث الأسلحة والدعم السياسي الدولي الذي ساندها بأقليات أخرى ليتحول المشهد إلى حلف أقليات يقود معركة مدمرة ضد أكثرية عددية تملك قلة من سلاح، وترزح تحت وطأة مؤامرات دولية تكبح قدراتها السياسية والدفاعية (رواية داعش)، ليبدو المشهد العام وكأن البلاد في حرب أهلية وليست تحت اعتداء دولي! والنتيجه خراب ودمار وإفقار ومجاعات تؤدي إلى نهاية مأساوية للكتلتين وللوطن الذي احتضنهما! والأنكى أن الشعوب المتضررة لن تستطيع مطالبة إيران دولياً بتطبيق قوانين الاحتلال الدولية، كالحفاظ على وحدة البلاد وعدم ارتكاب مجازر وتنظيم شؤون الشعب المُحتلةِ بلاده...إلخ، أو بالتعويض عن أضرار احتلالها، لأن تدخلها متلطٍ خلف ميليشيات محلية ومستجلبة تحمل خِرَقا ملونة بشعارات الموت وليست جيوشا نظامية!

اختلفت الآراء على دور إيران أهو أصيل يبحث عن نفوذ يعزز قدرات الدولة الإيرانية اقتصادياً وصناعياً وعسكرياً كما أي دولة تحتل دولة أضعف منها، أم إنه وكيل لقوى أخرى؟!

لم تسعَ إيران للسيطرة على الثروات الطبيعية للبلدان المتورطة فيها، لكن قوى أخرى سيطرت عليها، ولا للسيطرة على مواقع جغرافية حساسة على المتوسط أو البحر الأحمر، لكن قوى أخرى فعلت! كما لم تُبقِ لشعوب تلك البلاد وسائل إنتاج بعدما دمرت ميليشياتها المدن والبنى التحتية وأفقرت وهجّرت الكثير منهم داخلياً وخارجياً، بالتالي، لم تعد أيضاً لدى تلك الشعوب قوة شرائية تستهلك منتجات إيرانية لنعتقد أنها تسعى لاستغلال إنتاج شعوب تلك الدول أو جعلها سوقاً لتصدير منتجاتها. والأغرب أن حكام إيران فعلوا كل هذا على حساب أموال نفط وخيرات وإنتاج المواطن الإيراني، الذي رغم غنى بلاده افتقر جراء تلك السياسة، فهرع يقف في طوابير أمام السفارات الأجنبية ساعياً للخلاص. هذا ما يدفعنا للترجيح بأن النظام الإيراني نظام وظيفي لقوى أخرى، وليس كما يُدّعى عليه بأنه نظام يهدف إلى إعادة إحياء الإمبراطورية الفارسية!؟ إن ما تقوم به حكومة طهران لا يعدو عملية تفجير انتحارية لشعبها ولشعوب المنطقة.

قد يكون مفهوماً حاجة إيران لإضعاف وتدمير العراق الذي طالما كان جبل النار والسد المنيع في وجه طموحات إيران غرباً وجنوباً، لكنه غير مفهوم بالنسبة للدول العربية الأخرى!؟

***

تقبّلت المنطقة عبر تاريخها تغيرات دينية كبرى من الوثنيات إلى اليهودية فالمسيحية فالإسلام، لأن تلك المعتقدات حملت معها مشاريع ذات جاذبية إنسانية حضارية سياسية اجتماعية اقتصادية. هل يمكن اعتبار شعارات "يا حسين" و"لن تسبى زينب مرتين" مشروعاً يجعل أُمّة ما مستعدة لتقبله والتضحية باستقرارها وبمعتقداتها السابقة حتى لو فُرض بالقوة؟! هل من أحد يستطيع أن يفسر كيف لمعتقد لا يحمل حاملوه أي مشروع، ويتضارب منتسبوه بالأحذية والقاذورات وغسيل الأرجل وتقبيلها والتمسح بها تبركاً، وخزعبلات أخرى تمتهن كرامة الإنسان ابتدعها وسكبها ملالي إيران في المذهب الشيعي لتحويله من مذهب إسلامي له قدسيته الدينية وإبهاره الفكري، إلى دين جديد لا يمتّ إلى الإسلام ولا إلى العقل الإنساني بصلة، أن تقبل الأمم اتباعه؟! تحتوي الأديان بعضاً من اللا معقول لكن دين ملالي إيران الجديد لا معقولياته لا يمكن لعقل بشري جمعي تقبلها!

على حكومة طهران أن تدرك أن القضايا التي نشأت في التاريخ لا تزول بقرار(؟!) إنّ إزالة السُنة من المنطقة، كما تحاول أن توهم مواطنيها والمواطنين العرب الشيعة، هو مشروع أقرب للهذيان ومحكوم بالفشل! إن حكومة إيران لم تستطع، تغيير دين سُنة بلادها، الذين يقاربون الـ ٢٠ مليون نسمة، والشعب الإيراني بكل طوائفه وإثنياته في ثورات لا تكاد تخمد إحداها حتى تندلع أخرى؛ فهل تظن حكومة إيران أنها قادرة على تغيير دين أكثر من مليار ومئتي مليون يشاهدون مشروع الذبح اليومي في كل بلد تدخلت فيه؟!

قد يكون العرب بفرقتهم وارتهان قرارهم لا يستطيعون كبح الدمار الذي تُلحقه إيران بالدول العربية، لكن الأيام دول ومن سرّه زمن ساءته أزمان، وعلى الشيعة العرب والأقليات الدينية والعرقية كافة أن تدرك أن الدخول في هذا المشروع سيجعلهم أول ضحاياه. وعلينا جميعاً أن نسعى بسرعة جاهدين لخلق برنامج سياسي يبني مواطنة عادلة للجميع أقلية وأكثرية.

كما إن على الحاكم الإيراني أن يفهم أن البحث عن المشتركات ورعاية المصالح بين الدول هي الطريقة المثلى للتنمية والتطوير وخلق النمو والرخاء للشعوب المتجاورة؟!

هامش:

** عندما انتهيت من كتابة المقال، أدركتُ، رغم محاولاتي، أني خسرت كتابة برنامج سياسي نتواصل الثورة به مع حكومة طهران! وهذا ما دعاني إلى التماس العذر لقادة الدول العربية لخسارتهم إمكانية إيجاد مساحة للسياسة مع حكام طهران طيلة ٤٢ عاما من حكم الملالي، رغم محاولات الأحياء منهم والأموات!؟ فأي سياسة مع القادم إليك بالموت والدمار؟! وحده الغرب من وجد المساحة السياسية الواسعة مع النظام الإيراني. ربما هي علاقة الأصيل بالوكيل وربما لتلاقي المصالح على دثر أُمّة!

أورينت نت: ٢٠٢١/٣/١٥

الطائر السوري الحرّ في المصيدة القطرية *

ازدادت حاجات قادة تنظيم وحماية المظاهرات الشعبية بعدما توسعت على امتداد الجغرافيا السورية بنهاية الأشهر الستة الأولى، وبدأت تتوارد إلى أسماعنا أنباء عن إعانات مالية مجهولة مصدرها قطر، مشروطة برفع المتظاهرين لشعارات إسلامية وأن يظهر الرجال منهم بمظاهر إسلامية، لأن النساء والشابات المشاركات في المظاهرات، على اختــلاف انتماءاتهن، معظمهن يلبسن حجاباً يخفين وجوههن عن المخبرين كي لا يُعرفن فيؤذين!

نبهنا بعض قيادات المظاهرات أن تلك المظاهر ستؤذي الثورة، لكن الشباب المتحمس سخر من الحالة، وأخذوها على سبيل الدعابة، معتقدين إنْ هي إلا بضعة أشهر وينتهي احتلال أسد

---

* يُعرَفُ الطير السوري الحرّ الذي يوجد على أطراف البادية السورية بأنه من أنبل وأندر الطيور الكاسرة وأغلاها ثمناً، ويُعرف القطريون بولعهم في صيد الصقور واقتنائها!

ويعودون إلى حياتهم الطبيعية، وما الطلبات القطرية إلا حالة مسرحية هزلية ستنتهي قريباً.

لكن ما لبث الهزل أن انقلب إلى جد بعدما بدأت إمدادات السلاح تصل للمتظاهرين لمواجهة الشبيحة وكتائب أسد! تحولت الثورة السورية من سلمية دامت نحو ستة أشهر باعتراف بشار أسد نفسه، إلى حرب خسر أسد نحو ٨٣٪ من سلطته على الأراضي السورية مع بداية عام ٢٠١٦.

قطر وحدها اقتصرت إمداداتها من المال والسلاح على الفصائل الإسلاموية.

قطر تبحث عن نفوذ!

توضحت معالم السياسة القطرية الجديدة بعد شهور من انقلاب الشيخ حمد آل ثاني ١٩٩٥، التي يمكن تلخيصها بالبحث عن دور سياسي يجعل نفوذ قطر أكبر من مقاسها الجغرافي والديموغرافي، ويكون قادراً على منافسة السعودية في الشرق الأوسط الذي تمزقه وتستضعفه الصراعات والحروب.

حمد بن جاسم وزير الخارجية آنذاك، المشاكس المسلح بقناة **الجزيرة** التي أسستها قطر كسلاح ناعم فتاك بالدكتاتوريات، لتقود أول انفتاح إعلامي على حرية الرأي في فضاء الوطن العربي، عدا قطر ذاتها المحذوفة من خارطة التغطية الإعلامية للجزيرة.

وجدت قطر غايتها في استغلال حالة الإسلام السياسي الذي يعاني مشاكل نتجت عن آثار التعذيب الوحشي في السجون العربية، طيلة نحو ٦٥ عاماً، كفلت تخريج جيل متطور متشدد جداً عن فكر الإخوان المسلمين، كجماعة التكفير والهجرة والقاعدة وغيرها من السلفية الجهادية، فاحتضنتهم الدوحة سرّاً، لكنها، علناً ودون مواربة، تبنت الإخوان المسلمين، أيتام ومشردي الأنظمة العسكرية العربية، لتصبح الدوحة عاصمتهم السياسية والإعلامية؛ لكن تبني الدوحة للإخوان المسلمين في الدول العربية لم يمنعها من احتواء أي تهديد قد تشكله حركة الإخوان المسلمين المحلية في الداخل القطري!

أما في الشق الدبلوماسي، فأصبح مألوفاً ظهور حمد بن جاسم في الإعلام العربي بعدما تحولت الدوحة إلى وسيط "سلام" دولي تؤمّها وفود أفغانية وإثيوبية ولبنانية وعراقية وفلسطينية وليبية ومصرية ويمنية وسورية؛ لكن، ويا للمصادفة، لم تنجح في أي وساطة منها ولم تجلب للإسلاميين إلا الضعف والموت!

فإن استطاعت قطر تحقيق نفوذ ضخم أكبر من حجمها بكثير خلال بضع سنين، لكنه أشبه بالفرانكشتانية، استمتعت به بعض الوقت دون قدرة على السيطرة على مخرجاته وبالتالي تحمل مسؤوليته، وتحّول الدور القطري إلى كارثة على شعوب كل دولة تدخلت فيها، وضاعت استثماراتها هباء الريح، إلا إذا كانت استثماراتها أساساً مقررة ضمن عملية الفوضى الخلّاقة!

قطر والربيع العربي في سورية

عفوياً ١٠٠٪، انفجر الربيع العربي في مجتمعات خالية من الحياة السياسية. لكن قيادات المظاهرات فشلت في البحث عن حامل سياسي، أحزاباً ونقابات وتجمعات سياسية، يحمل مخرجات الغضب والأمل الشعبي. أما قطر التي شجعت مظاهرات الربيع العربي، أصبح شغلها الشاغل جرّ المظاهرات لتتكئ على الإسلام السياسي في محاولة لصبغها به وجعلها من مخرجاته، مع أن الإسلام السياسي كان ميتاً في دول الربيع الخمس، وأعضاؤه مغيبون في السجون أو مبعثرون في الغرب!

رغم محاولاتنا، تأخرت قناة **الجزيرة** بعض الوقت في تغطية المظاهرات في سورية، كنا نرسل أفضل اللقطات الحصرية من

المظاهرات، دون أن يعرفوا أن مصدرها قناة **أورينت**، علّها تجذب للتغطية الإعلامية لنحظى بتأييد عربي، فتلفزيون **الجزيرة** أقوى عربياً من تلفزيون **أورينت** المحصور بالجغرافيا السورية. وحده الإعلامي السوري فيصل القاسم كان شديد المتابعة لنا، مع أن برنامجه الشهير الاتجاه المعاكس هو الآخر تأخر في تغطية الثورة السورية!

بعد عام على انطلاق الثورة السورية بدأت الدبلوماسية القطرية تبحث عن طريقة تتدخل فيها في الملف السوري؛ المثير للسخرية أنها استخدمت طريقة العطاء والمزايدة(!) فبحثت عن مقاول سوري مقيم في قطر يكون واسطتها في التواصل مع الداخل السوري لتوصيل المال والسلاح وتأليف ميليشيات ذات صبغة إسلاموية. رست المزايدة على شخصيتين سوريتين أحدهما يملك مطعماً والآخر محلاً لبيع السيراميك وأدوات الحمامات(!) هذا يؤكد أن قلة من منظمي المظاهرات استجابوا لطلبات قطر بأسلمة مظاهراتهم في السنوات الأولى للثورة.

التدخل القطري في دعم الفصائل الإسلاموية، قضى على أي فصيل آخر مختلف، والتدخل نفسه أغرق، لا أريد أن أقول أغرى! تلك الفصائل في الاقتتال الداخلي، وليس أسوأ من صراع المتشابهات! فحطّم آمال الثورة عند كثير من السوريين الذين آمنوا

بها، خصوصاً بعدما انسحبت الفصائل الإسلاموية استجابة لطلب الممول من معظم المناطق التي استولت عليها أصلاً من الفصائل الأولى للجيش الحرّ السامي آنذاك!

قطر تدخلت في سورية عبر الفصائل الإسلاموية، فيما تدخلت إيران عبر الميليشيات الشيعية، واندلع القتال بين الطرفين في أزقة المدن السورية أدى إلى خراب نحو ٧٠٪ من الحواضر السورية، الغريب أن الدولتين يضمهما حلف مشترك منذ نحو ١٥ عاماً وبرزت قوته أثناء الأزمة الخليجية الأخيرة، لكن الأغرب أن الدوحة نفسها موّلت حزب الله المدعوم من إيران والذي يعتبر مسؤولاً عن دمار كثير من المدن السورية وقتل مئات آلاف السوريين وتهجير ملايين منهم؟! ناهيك عن صفقات أخرى.

النخب السورية في خدمة المشروع القطري

بالتوازي مع التسليح القطري للمعارضة الإسلاموية المقاتلة، دعمت الدوحة استفراد الإخوان المسلمين بالساحة السياسية وتحولت الدوحة لمقرّ لاجتماعات المعارضة السورية وممول أساسي لتنظيماتها السياسية، الائتلاف وسواه. وأرسلت الدبلوماسية القطرية دعواتها إلى معظم النخب السياسية والثقافية والإعلامية ليجتمعوا في الدوحة

ودعمتهم مالياً لتأسيس منظمات أو تجمعات بيافطات مختلفة ما لبثت أن تكاثرت كالأرانب، أو زجت بعضهم داخل الائتلاف ليبعدوا عنه شبهة سيطرة الإخوان المسلمين! وحيث ينثر المال بلا وعي ينتشر الفساد بلا ضوابط.

وأصبح مألوفاً أن نسمع عن منظمات متنوعة تحت يافطات حقوق الإنسان ومراكز أبحاث بأسماء متعددة ومنصات إعلام بشقوقه: مواقع إلكترونية وإذاعات ومؤخراً تلفزيون، وجميع تلك المؤسسات تشترك بصفتين:

- **الأولى:** أن منتسبيها ليسوا من خلفيات إسلامية بل من اتجاهات مختلفة، ليبراليين، اشتراكيين، علمانيين، ملحدين، أقليات، غوغائيين من نشطاء وسائل التواصل الاجتماعي.

- **والثانية:** أن مخرجاتها متضاربة ولا تحمل أي صبغة ذات دلالة، ولا يمكن اعتبارها مؤسسات سورية يمكن تجييرها لصالح الثورة اليوم أو لصالح سورية الغد، تجمعات لا لون لها ولا طعم ولا رائحة، وإنما مجرد مستوعبات هدفها القبض على النخبة السورية، أهم أهدافها شلّ فعاليتها في إنتاج مؤسسات وتجمعات تنشئ حياة ثقافية فكرية اجتماعية سياسية سورية، ضمن عملية إعاقة احتمال ظهور معارضة سورية مستقلة وفاعلة وموحدة!

ولا يختلف عاقل على أن مشروع النفوذ القطري قائم على دعم الإسلاموية وواجهته الإخوان المسلمين، لذلك سواء أدركت تلك النخب أم لم تدرك هي تعمل في خدمة هذا المشروع!

***

ساندتُ وشاشة **أورينت** كل الاتجاهات السياسية في سورية الثورة، لكننا وقفنا ضد من يحاول أن ينفرد بالساحة السياسية بالإلغاء والاحتيال والعمالة. وطالما آمنّا أن صندوق الاقتراع، يوماً ما، الفيصل بين جميع التوجهات، ومن حق الشعب السوري أن يقرر مصيره. وعندما يفعل على الجميع أن يحترم خياره. لكننا بنفس الوقت نؤكد أن الإسلاموية بشكلها الراهن مشروع محكوم بالفشل ولا مستقبل له، وعلى الإسلامويين أن يستفيقوا من الأحلام التي حُقِنوا بها، فالواقع أقوى من الأحلام، وأن يدركوا أنه لا يوجد حسن نوايا في السياسة الدولية، وأننا جميعاً سوريون وأن عليهم أن يعودوا سوريين، لأن الحياة في وطن يحقق متطلبات سكانه بتنوعاتهم ويحقق الحرية والعدالة والمواطنة للجميع سيجعل الدين أكثر تسامحا والإنسان أكثر اتصالا بالقيم!

إن انقسام السوريين على ما لهم فيه وما ليس لهم فيه، جعلهم نهشاً للقوى التي تلعب على تراب وطنهم، صغيرها وكبيرها، وجعل الكتّابة

في كل موضوع أمراً شائكاً، فمثلا: كنت قد طلبت من الإعلامي أحمد كامل حينما كان رئيس تحرير مجموعة **أورينت** الإعلامية عام ٢٠١٧، تغطية خاصة لسلوكيات الدوحة في التدخل في الثورة السورية لكنه تباطأ لأسابيع، لأسبابه!

وحدثت الأزمة الخليجية حينها، فطلبتُ منه التوقف والتغاضي عن الموضوع وذلك لانقسام الشعب السوري، وكي لا يظن أحد أننا طرف، فنؤثّر بذلك على قضيتنا عموماً!

لسنا ضد دور إيجابي قطري يدعم ويخلّص السوريين من مأساتهم، ونتمنى من دولة قطر أن تساهم في استغلال الفائض من النفط والغاز في خلق نفوذ لها عبر البناء بدلاً من التخريب، عبر التنمية سواء لشعبها أو للشعوب التي تريد أن تترك لنفوذها أثراً طيباً فيها، كما فعلت أمريكا بعد الحرب العالمية بتبنيها مشروع مارشال لإعادة بناء أوروبا، إن الغاز سينتهي يوماً لكن مرارات الشعوب تبقى عالقة على لسان من تجرعها!

أورينت نت: ٢٠٢١/٣/٢١

السعودية بين الهمّ السوري والتحدّي الإيراني

تعتبر المملكة العربية السعودية المركز العربي الأكثر فاعلية اليوم في تحديد وضع المنطقة العربية من جهة، ولملمة الدول الإسلامية في مواجهة السياسة الإيرانية التي تتلاعب بطبقات الزلازل في الدول الإسلامية، لأنها تحتوي على أربعة عناصر تمنحها هذه الفاعلية: الاستقرار السياسي والاستقرار الاقتصادي والمنعة العسكرية ومكانتها الأساسية عند المسلمين حيث الكعبة المشرفة .

لعل التغطية التلفزيونية العالمية الضخمة التي رافقت ظهور الملك السعودي عبد الله يوم ٢٠١١/٨/٨ مع انطلاق دبابات ميليشيا أسد إلى حماة ودير الزور بعد ارتكابها مجازر طائفية في بانياس وحمص، أكدت أن السوريين ليسوا وحدهم متلهفين لمعرفة موقف السعودية من إجرام "نظام" أسد، قال الملك كلمته: "**إن إراقة دماء الأبرياء ضد القيم والأخلاق الإنسانية**".

وأتبعها باستدعاء سفير المملكة في دمشق إلى الرياض. وهذا أعطى المتظاهرين أملاً أنهم لن يُتركوا وحيدين في مواجهة إجرام أسد!

ستة شهور مرت كانت كافية لتدرك السعودية أن أسد يكذب بوعوده لهم بالإصلاح والتوقف عن استخدام القوة ضد المتظاهرين، فخلال تلك الشهور قَتَلَ أربعة آلاف متظاهر، وسَجَنَ نحو خمسين ألفاً تواردت الأنباء عن تعذيبهم حتى الموت وإخفاء جثثهم. ولأن أسد لم يثق بالمدن الثائرة آمن أن الإصلاحات لن تُؤمّنَ له استمرارية الحكم، فوضع نفسه أمام خيارين: إما الهروب أو مواجهة السوريين الثائرين ولو كانوا عشرات الملايين بالقوة المميتة والمدمرة. وخصوصاً أنه تلقى تأكيدات دولية بدعمه، حينما حصل على ٢ "فيتو" لصالحه في تصويت مجلس الأمن خلال أسابيع، كما تلقى تأكيداً من الضباط العسكريين العلويين المهيمنين بأنهم يعتبرون قضية وجوده قضيتهم، وأن الأقلية ملتزمة بمنع الأكثرية من الوصول إلى الحكم حتى لو استخدمت العنف المفرط!

إيران في زوايا مشاكل السعودية كافة!

وجدتُ أن أفضل طريقة لفهم السياسة السعودية تجاه سورية خصوصاً والمنطقة عموماً استعراض المخاوف الاستراتيجية التي تحاصرها. فليس من السهل الكتابة عن مشاكل الشرق الأوسط السياسية، وحتى المرورية يا سادة، في ظل تضارب المعلومات واصطفافها وغياب أكثرها.

مع وصول ملالي إيران للحكم، ١٩٧٩، حقنوا الدّين في سياساتهم واستخدموه أداة صراع في علاقاتهم السياسية بالعالم العربي والإسلامي؛ ومن بوابة إيقاظ الخصومات الخاملة بين السُنة والشيعة استبدل الإيرانيون المعادلات السياسية في الشرق الأوسط بمعادلات مختلفة كلياً، حينما أطلقوا العنان للتوترات الطائفية التي أشعلت حروباً أهلية، وذلك عبر تجييش وتسليح الشيعة من أفغانستان إلى باكستان والعراق والبحرين والكويت واليمن وسورية إلى لبنان والحبل على الجرار؛ وطالما صرّحت شخصيات ذات نفوذ في النظام الإيراني أنّ السعودية هدفهم القادم، وتم الكشف عن محاولات زعزعة استقرار دول الخليج واستخدام عناصر تخريبية في البحرين والكويت والسعودية!

الإيرانيون أيضاً يهددون طريق إمداد النفط السعودي، كما يتلاعبون بالتزامات دول أوبك ويضخون نفطاً أكثر للحصول على حصة أكبر، وهذا سيؤدي إلى خفض الإيرادات النفطية، إضافة إلى سعي الإيرانيين لتوريط المملكة بزيادة الإنفاق لخلق مشاكل مالية إضافية لها.

الراديكاليون والجماعات الجهادية العالمية من القاعدة ومشتقاتها يتهمون السعودية بالردة، وتهديدهم لها لم يتوقف وغير مرة حاولوا

زعزعة استقرارها. تقارير عدة تحدثت عن ارتباطات بين هذه الجماعات والنظام الإيراني وعن مساعدات لوجستية يقدمها للقاعدة تحديداً، ولم تمس القاعدة وأخواتها مرة المصالح الإيرانية بسوء. ومع أن السعودية ملتزمة بمكافحة الإرهاب لكنها لا تزال أهم دريئة للإعلام الغربي!

هذه السياسة العدوانية الإيرانية هددت استقرار السعودية الأمني والاقتصادي، ورغم الالتزام الأمريكي القوي بحمايتها مقابل إمدادات النفط، إلا أن دعمها تراخى في هذه القضية الحيوية. فإذا كان صحيحاً أن جميع الدول السُنية لديها علاقات قوية مع الولايات المتحدة الأمريكية، غير أن العلاقة الأمريكية-السعودية ذات خصوصية لما تتمتع به السعودية من ثروة نفطية هائلة، وعلاقات تاريخية قديمة مستمرة، فضلاً عن عدد السكان الكبير، وموقف أمريكا المتراخي من أفعال إيران تجاه المملكة يؤكد أن السياسة والمصالح الأمريكية لا تحددها هذه الدولة أو تلك مع اختلاف المكانة، لكن السعودية تعتبر أن مسألة أمنها ومسألة دينها قضيتان لا يمكن التنازل عنهما، وهذا رأيناه في تأكيد محمد بن سلمان أن السعودية "ستقاوم العدوان الإيراني وآثاره وستواجهه في لبنان والعراق واليمن وحتى على الأراضي الإيرانية ذاتها"، رغم أنها بفقد

مصر مبارك افتقدت حليفاً قويا اعتمدت عليه في دعم سياساتها مقابل أصدقائها قبل أعدائها!

***

لم يُهندس أحدٌ الربيع العربي. لكن هناك من دعمه في مكان ودعم ضده في مكان آخر. مع أن إيران دعمت التظاهرات المصرية، لكنها وقفت ضدها في سورية، أما في البحرين فاعتبرتها فرصة لتعبر وترسو على رمال ضفة الخليج المقابلة لها. هنا تصاعد الصراع السعودي الإيراني مدفوعاً بمخاوف وطموحات الطرفين، وسمح انفتاح الفراغات الأمنية والسياسية الناتجة عن حركة الربيع العربي لكل منهما برمي ثقله، فبدت المعركة وكأنها معركة حياة أو موت.

الانتصار الحاسم للإمارات والسعودية في البحرين واستعادة الأمن بها سريعاً، ربما أغرى الملك عبد الله بالتدخل في سورية، والسعوديون يدركون أن المعركة فيها لن تكون سهلة، وهم يعلمون أنه بخلاف انهيار الجمهورية الإسلامية نفسها، لا شيء يضعف إيران أكثر من خسارتها سورية؛ أما إيران تعرف أن بفقدانها الولد الدمية بشار الأسد، آنذاك، ستفقد سورية الحليف العربي القوي الذي ساندها منذ حَكَمَ الخميني طهران، بدأ بحربهما على عراق صدام إلى

حربهما على شعبي العراق وسورية بعد الغزو الأمريكي للعراق، حينما ساهما ولا يزالان بخلق تغيير ديموغرافي في البلدين! فإن فقدت إيران أسد فقدت جهود ٤٠ عاماً، وفقدت معه حليفها حزب الله. وبذلك سيتضاءل المشروع الإيراني ليغدو كذبابة على قفا حصان!

اشتد وطيس المعركة عندما استجمعت إيران قوى معسكرها الشيعي من أفغانستان وباكستان ولبنان والزيدي في اليمن والعلوي/ النصيري في سورية وجنوب تركيا، وهددت البحرين ودعمت الحوثيين في اليمن، وأنشأت شبكة عملاء في شرق السعودية حيث النفط وتجمع للشيعة، وأرسلت كتائبها إلى سورية وقام الحشد الشعبي بمناورات على حدود الكويت. أما المعسكر السُني فانقسم؛ قطر تنافس السعودية في سورية وتنسق مع تركيا وتدعم فصائل لا ترتاح السعودية لها، في حين اصطفت بوضوح مع إيران في لبنان واليمن والبحرين، وبرز الخلاف التركي/ السعودي حول الإخوان المسلمين وانقلاب السيسي في مصر، ومثله في ليبيا، واصطبغت المنطقة بفوضى السلاح وفوضى السياسة وفوضى التراشق الإعلامي، فأصبحت أكثر مهنتين دخلاً في المنطقة مهنة الإعلامي ومهنة حفار القبور!

يُعتقد أنه بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية دعمت السعودية الجماعات المعتدلة كالجبهة الإسلامية، والجيش السوري الحرّ المحايد

أيديولوجياً، في مواجهة الفصائل التابعة للإخوان المسلمين، والجماعات الجهادية كجبهة النصرة التي كانت تابعة للقاعدة، أعلنت فيما بعد فكّ ارتباطها عنها .

قادت السعودية سياسة غاضبة على أسد، عبر وزير خارجيتها سعود الفيصل الذي طالب مراراً بتسليح الشعب السوري أو إيقاف أسد عن إجرامه، وفي تصريح ناري في مؤتمر أصدقاء الشعب السوري في تونس قال: **"على الأسد أن يرحل طوعاً أو كرهاً".**

وأذكر أن كلمته وانسحابه من المؤتمر أحدثا اضطراباً، فطلب السفير الأمريكي فيلتمان التحدث إلى السوريين عبر شاشة الأورينت وقال لي: "لن أترك السوريين يظنون أن السعوديين وحدهم يطالبون بالديمقراطية في سورية"! كما رفض الفيصل ممارسة وزير الخارجية الأمريكي الأسبق جون كيري الضغوط على المعارضين لقبولهم بحل سياسي سيبقي الأسد في السلطة بعد مجازره، وفي اجتماع القمة العربية في القاهرة ٢٠١٥ غضب الفيصل لطلب بوتين في رسالته إلى المؤتمر تبني الحل السلمي وبعدما أكثر أسد من القتل والدمار، كما نجحت السعودية قبلاً بعقد مؤتمر جنيف الذي خرج بنتائج طيبة للشعب السوري، لكن مع طول سنوات الحرب والتدخل الروسي المباشر في سورية وهَنَ الموقف السعودي وتميّعت مخرجات جنيف

الذي أصبح مسلسلاً في حلقات، وصلت لثمان! وتوقفت غرفة الموك العسكرية في الجنوب، التي كانت السعودية أحد أطرافها، وتوقفت كذلك غرفة الشمال العسكرية التي كانت تنسقها قطر وتركيا عن تقديم مساعداتهم للفصائل المقاتلة لأسد، فسقطت المنطقة الجنوبية سريعاً من دمشق إلى حوران بيد الميليشيات الإيرانية حالياً، واستمر التقدم السهل لميليشيات أسد وإيران شمالاً حتى وصلت إلى ٢٠ ميلاً قبل الحدود التركية.

انتهى الفصل الأخير من التدخل السعودي في سورية بالطلاق مع المعارضة، عبر رسالة حادة وجهها وزير الخارجية السعودي عادل الجبير لها مع وفد من هيئة المفاوضات العليا، (التي تشكلت على أنقاض الائتلاف الذي كان قد تشكل على أنقاض المجلس الوطني)، الذي التقاه بتاريخ ٢٠١٨/١٢/٢٤ مفادها أن السعودية ستقلص دعمها العسكري لجهود الإطاحة ببشار الأسد، وأن الوقت حان لتُكرّسَ المعارضة طاقتها لتأمين صفقة سياسية مع أسد برعاية روسيا في مؤتمر سوتشي للسلام للحصول على صفقة مناسبة لهم في عملية الانتقال السياسي، وفقاً لما نقلت مجلة "فورين بولسي" عن مصدرين من المعارضة ومسؤولين دبلوماسيين. وذهب مؤتمر "سوتشي" حيث ذهبت المؤتمرات الأخرى إلى مجرد ذرّ رمادٍ سياسي في عيون

المنكوبين! ونحن الآن في مرحلة إطفاء النار تحت المرجل السعودي الإيراني الذي أنتج حروب الوكالة التي لا نظن أنها ستتوقف طويلاً، فالإيراني لا يزال يسعى لتطوير برنامجه النووي ولا يزال يضع إيراداته النفطية في خدمة مشروعه بنفَسٍ طويل على نار هادئة تحرق الشرق كله بمن فيه!

***

المشكلة أن السوريين وقعوا فريسة ظنهم أن القضايا العادلة تنتصر من تلقاء نفسها! كما وقعوا فريسة عالم لا يكترث للضعفاء ولا لقيمهم! صحيح لا يمكن الاستغناء عن اللاعبين الدوليين لتحقيق السلام لأي شعب والشعب السوري أحدهم، لكن هذا لا يعني الارتهان للاعبين الدوليين، وإنما ضرورة السعي لخلق معارضة مدعومة من السوريين أنفسهم أولاً وآخراً وعودة السوريين إلى زخم يوم الثورة الأول عبر تنظيم أنفسهم في الخارج والداخل، وخلق معارضة ليس فيها أي من الأشباه السذج الفاسدين الذين انتقاهم المجتمع الدولي لنا وانتهت المعارضة إليهم حالياً، فالعبيد لا يقدمون حرية للأحرار!

إذا كان صحيحاً أن السعودية قد غابت عن المشهد السوري، لكن الحركة السياسية السورية إذا اكتملت عناصر قوتها، الآنفة الذكر،

فإنها لا تستطيع إلا أن تقيم علاقات خاصة مع المملكة. وإني لأعتقد بأن قادة السعودية والإمارات يدركون أكثر من أي وقت مضى خطر التمدد الإيراني في أي منطقة عربية عليهما، وهذا ما دعاهم لمواجهة إيران والحوثيين في اليمن. كما إن بلاد الشام هي الحدود الشمالية للسعودية وسورية أهم منطقة في بلاد الشام، وبالتالي، فإن الخطر الإيراني في سوريا ولبنان هو خطر استراتيجي على السعودية.

أورينت نت: ٢٠٢١/٣/٢٩

روسيا وسياسة الاحتمال الواحد!

إيماناً بالحرية والعدالة التي نعرف أنها مفتقدة في سورية بسبب وحشية ودكتاتورية أسد الأب والولد، وإيماناً بحق السوريين بسلطة شرعية بديلة، ساهمتُ عبر مجموعة **أورينت** الإعلامية في انفجار الربيع العربي في سورية. وأعلنّا الثورة على نظام أسد في ٢ شباط/ فبراير ٢٠١١، بعدما كنّا تمردنا على سلطته قبل أربعة شهور في ١٠تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠، عندما بدأت أورينت تبث برنامجها الشهير آنذاك (البلد بارك)، وتبّنتْ قضية إطلاق سراح الطفلة المدّونة طل الملوحي.

***

مع تنظيمنا لمؤتمر المعارضة السورية الأول في أنطاليا ٣١/أيار/٢٠١١، أصبح دوري كسياسي أكبر جهداً من دوري كرجل أعمال. وقابلتُ شخصيات عالمية في مجالات حقوق الإنسان والإعلام والبحوث الاستراتيجية والسياسة والأمن؛ وقابلت أيضاً شخصيات برلمانية أوروبية وأسترالية في مقرات برلماناتها وزرت مقرّي

الكونغرس الأمريكي وقابلت سيناتورات وشيوخاً، وفي البيت الأبيض قابلت مستشارين ومساعدين، ودخلت مباني وزارات وقصوراً رئاسية وقابلت وزراء وحكام ولايات ورؤساء وزارات ورؤساء دول، في سبيل تخفيف مؤامرات الموت على السوريين وطرح بدائل عن بشار أسد.

في ذلك المساء من عام ٢٠١٧ على العشاء طرح وزير الدفاع الإسرائيلي، آنذاك، أفيغدور ليبرمان عليّ السفر معاً إلى موسكو للقاء وزير الخارجية الروسي لافروف. أظهرتُ انشغالاً بالطعام وقلت: "أخشى أن يغتالوني"! وكانت أخبار اغتيالات المعارضين الروس تتردد في الإعلام العالمي، فردّ باستنكار ودهشة: "يغتالونك وأنت معي"؟! لم أعلق، وانتقلنا إلى مواضيع أخرى. في مساء اليوم التالي زارني في الفندق وعلى العشاء أيضاً، أعاد ليبرمان طرح موضوع لقاء لافروف بقوله: "يمكننا ترتيب لقائكما في دولة أخرى". بجدية هذه المرة قلت: "صرح لافروف في عام ٢٠١٢، أنه لا يريد للأكثرية السُّنية أن تصل للحكم في سورية، وأنا سُنّي، وليس لدي رغبة بالمطلق أن أعمل لدى نظام بشار الأسد. ولو أردت لكان لي ذلك قبل الثورة، فمنصب رئيس حكومة أسد قيمته أرخص عليّ من فاعليته"! فأجابني: "لم تُبقِ لي قولاً". كما رفضت قبل عام مشورة شخصية خليجية بلقاء الروس للسبب ذاته!

ليس أسد الأب ولا الولد من أنشأ علاقة سورية بروسيا، إنما أنشأها الرئيس المنتخب شكري القوتلي مع السوفييت ١٩٥٧ رداً على محاولة الانقلاب التي صرّح خالد العظم أن السفارة الأمريكية في دمشق دبّرتها لربط سورية بحلف بغداد، وإن كنت أعتقد أن أمريكا دفعت سورية دفعاً لتكون في "محور الشرّ" الذي لا مصلحة للسوريين مطلقا أن يحشروا وتكون نهايتهم فيه.

يورد المحللون السياسيون أسباباً عدة للتدخل الروسي الأخير في سورية، أهمها: رغبة بوتين بإعادة تأسيس روسيا على المسرح العالمي كلاعب دولي ينافس أمريكا، ويردع الغرب عن تغيير نظام شرق أوسطي آخر بنظام مماهٍ له، كما حدث في ليبيا؛ ورغبته بحماية الإرث السوفييتي القديم، موطئ القدم على المتوسط، لذلك تريد روسيا أن تكون حاضرة لتأمين مصالحها عندما يتقرر مصير سورية النهائي؛ والبعض اعتبرها تقود حرباً مقدسة لحماية أتباع المسيحية العرب من مواطنيهم المسلمين!

وقفت روسيا ضد الثورة السورية واستخدمت الفيتو في مجلس الأمن؛ مع أن المحور الغربي لجأ أكثر من مرة إلى التدخل في الصراعات دون التفات إلى الفيتو، لكنّ أمريكا قررت الأخذ بقرارات مجلس الأمن بشأن سورية، وهذا ما أعطى بشار أسد ضمانات بالبقاء ورخصة دولية في القتل والتدمير فارتفع عدّاد القتل

من عشرات يومياً نتيجة استخدام البنادق إلى مئات بعدما بدأ يستخدم القصف بأنواع الأسلحة المتوفرة لديه إلى أن وصل إلى القصف الكيماوي في آب ٢٠١٣.

شنت روسيا أولى غاراتها الجوية في سوريا في ٣٠ سبتمبر ٢٠١٥، بعد ٣٦ ساعة من اجتماع نادر بين الرئيسين باراك أوباما وفلاديمير بوتين.

نعتقد أن سبب ذلك شعور الولايات المتحدة بأن مصالحها بدأت تتخلخل باستفرادها بالعمل على الساحة السورية لنحو أربع سنوات، لذلك تركت مساحة كافية ليدخل الروس منها عسكرياً إلى الأراضي السورية، وعدم تركهم مكتفين بالدور السياسي وليتكامل دور الدولتين معاً في سورية للآن. انصاعت روسيا. وبوتين في لقاء متلفز قال متفاخراً: "أطلقنا أسلحة دقيقة التوجيه من بحر قزوين بمدى ١٥٠٠ كم وضربنا جميع الأهداف، الوضع جيد لصناعاتنا العسكرية ومهارات أفراد جيشنا قوية"!

***

منذ بداية القرن الماضي كان ولا يزال الشاغل الأساسي للروس أن يكون لديهم جيش قوي يشبه الجيش الأمريكي ويضاهيه إدارة وتقنيات حديثة، لذلك وفّرت أوكرانيا وسوريا لبوتين فرصة عظيمة

لعرض بعض أحدث معداته وأكثرها تقدّماً. ففي أوكرانيا، أغلقت طائرات التجسس المتطورة ومعدات الحرب الإلكترونية الاتصالات تماماً على القوات الأوكرانية، بينما تم إرسال مركبات استخباراتية روسية متطورة إلى سوريا للاستفادة من اتصالات الفصائل في تعزيز هجوم ميليشيا أسد عليها، وكانت سوريا أيضاً فرصة لتدريب الجيش الروسي على استخدام الطائرات الحديثة (إس يو ٣٤) في بيئات مختلفة! وبذلك استعاد بوتين ثقة الشعب الروسي بجيشه، نحو ٧٠٪ من الروس أيّدوا حربه في سورية! بعد مظاهرات سابقة هددت حكمه بسبب انتكاسات كان الجيش الروسي قد تكبدها إثر حوادث عسكرية كثيرة طالت طائرات وغواصات، وسوء أداء مُنيَ به في جورجيا الدولة الصغيرة ٢٠٠٨. كما إن نجاح تجارب أسلحتها على الشعب السوري أعاد روسيا إلى سوق السلاح!

مع أن روسيا خصصت ٨١ مليار دولار للدفاع عام ٢٠١٥، وهي أكبر ميزانية للجيش منذ نهاية الحرب الباردة، معتبرة أن تدخلها في سوريا سبب للإبقاء على زيادة الإنفاق. إلا أن الالتزامات الخارجية هذه والتضخم المرتفع وانخفاض عائدات النفط بسبب انخفاض سعره لسبع سنين متتالية أدت لزيادة الضغط على نظام مرهق بالفعل؛ وروسيا وإن كانت تلعب دور إمبراطورية لكنها ليست كذلك؛ ولندع الأرقام تحدثنا: الناتج المحلي الإجمالي لروسيا أكبر

بقليل من الناتج المحلي الإجمالي لإسبانيا التي لا تمتلك موارد باطنية كما روسيا، وعدد سكانها ثلث سكان روسيا. أيضاً الميزانية العسكرية لروسيا أقل من عُشر الميزانية الأمريكية، وهي خُمس ميزانية الصين، وأقل من ميزانية اليابان!

روسيا وإيران

دفعت الأزمة السورية التعاون الروسي الإيراني إلى تطورات جديدة. ولديهما نقاط كثيرة تجمعهما، فكلاهما يسعى لتوسيع قوّته على حساب المنطقة؛ فبوتين يروّج نفسه قائداً عالمياً ومحارباً مقدّساً يحارب الإرهاب في سوريا، ومثله يفعل خامنئي وإن كان لسبب آخر، نبي الشيعة وقائد حروب الثأر! وكلا البلدين يدّعيان أنهما قوى "علمانية" في مواجهة محتملة مع الإسلاميين السُّنة: فالاثنان يخشيان عودة طالبان إلى أفغانستان، ويخشيان ثورات سُنية في أطراف بلادهما، شرق القوقاز بالنسبة لروسيا، وإيران مهددة بثورات في مناطق حدودية عدة؛ والاثنان يعتبران بقاء الأسد بقاءً لسلطتهما: فإيران تعتبر خسارة سورية ستصيب حلفها بالانهيار، فيما يعتبر بوتين أن دعم أسد هو دعم لقبضته ذاتها على السلطة في روسيا، وكلا البلدين يعتبران نفسيهما قوى عظمى!؟ بوتين وإن تميزت سياسته في الشرق الأوسط بالبراغماتية الساخرة، التقارب مع الخليج وتركيا،

لكن واضح أنه يفضل المحور الشيعي لأنه يرى في إيران "قوة معادية للغرب" لذلك لم يعتبر حزب الله الشيعي إرهابياً، فيما صنف الإخوان المسلمين منظمة إرهابية! أما اقتصادياً، فترى مؤسسات الصناعات العسكرية الروسية أن إيران سوق رابحة. وأيضاً كان الطرفان ناقشا، قبل بضع سنوات، فكرة انضمام طهران إلى الاتحاد الجمركي الذي تقوده موسكو، لهدف موازنة الاتحاد الأوروبي.

روسيا لا تحلّ المشكلات السياسية لكنها تخدّرها مؤقتاً

تدخلت روسيا عسكرياً في سورية على طريقتها في الشيشان، متبعة سياسة الأرض المحروقة، مترافقة مع نشاط دبلوماسي روسي مكثف قابله انكماش فجائي في الدور الأمريكي! يبدو أن لعبة أوباما مع أسد انتهت وحصل على ما أراد منه، بقيت عمليات تنظيف فوضى المعارضة العسكرية والسياسية، ومن أجدر من روسيا الحكم الدكتاتوري الذي لا يحاسبه أحد من أن يقوم بذلك!؟ تدخلت روسيا مع حزمة تعهدات اتضح أنها لذرّ الرماد في عيون الملايين ممّن ستتدمر مدنهم ويفقدون أحباءهم! أولها إيصال المساعدات الإغاثية العاجلة للمناطق المنكوبة، وتاليها كتابة دستور جديد لسورية وقيادة عملية انتقال سياسية تؤدي إلى إيقاف الحرب وإحلال الاستقرار. لكنها تنصلت من مسؤولياتها ودمرت حلب أهم مدن الشرق، وفي ليلة

هجومها على معرة النعمان قصفت المدينة بأربعمئة صاروخ خلال تسع ساعات لم يتوقع أهلها أنهم سيخرجون منها أحياء! وفرّغت المنطقة من سكانها على وقع تصريحات سياسييهم وإعلامهم بأنهم "يطاردون مقاتلين راديكاليين وقطاع طرق مجرمين"! كلام خارج السياسة، فهل يعقل أن تضم دولة صغيرة أم كبيرة اثني عشر مليون مجرم وإرهابي؟!

إن سياسة الاحتمال الواحد التي تنتهجها روسيا في سورية: "**لن نسمح للأكثرية السُنية بحكم سورية**" لن تستطيع تحمّل نتائجها، فواضح أنها لم تسمح لا للسُنة ولا لأقلية أخرى، بمن فيهم العلويون، بتقديم بديل عن عائلة أسد التي تحكم سورية برعاية من الأجانب! وأبقت بشار أسد رغم أنهم يعاملونه بخزي وإهانة له ولمنصبه! أما أسد فإن نجا مؤقتاً على حساب دماء ملايين السوريين وخراب دولتهم لكنه لم يفز، وإن ساعدته روسيا في القضاء على المعارضة العسكرية والسياسية، وتصرفت عكس تعهداته ولم تسمح بأي فرصة لتحقيق العدالة الانتقالية التي هي العامل الرئيسي لحل دائم في أي صراع، وأظهرته منتصراً وغير مقيد بأي التزامات، محلية أو دولية، لكنه نصر مؤقت لمبدأ الغلبة، حتى لو رافقه اعتراف من السوريين بالأمر الواقع، فالاعتراف بالأمر الواقع لا يعني القبول به. بل الاعتراف بالأمر الواقع مقدمة لتغييره.

كما إنه من الوهم أن تعتقد روسيا أنها قادرة على تقرير الوضع النهائي لسوريا، فالأميركي بما ينطوي عليه من وحدة القوتين العسكرية والاقتصادية لن يسمح بذلك، ودوره لا بد آت.

وأخيراً ودائماً، الحلّ باعتماد السوريين على أنفسهم، وهم رغم ما تعرضوا له قادرون على صنع جبهتهم المعارضة التي تمثلهم حقاً، والتي ستفرض نفسها على اللاعبين الدوليين عاجلاً أم آجلاً، إن حجم التضحيات التي قدموها، نحو مليوني شهيد وسبعة عشر مليون لاجئ، لا يسمح لأية قوة أن تفرض عليهم منطق الغلبة طويلاً. صحيح أنه لا شيء لدى السوريين يُغري أو يخيف القوى العظمى لتحسن حالنا، وصحيح أن أي قوة عسكرية كبرى تستطيع أن تحتل سورية بسهولة، لكن المؤكد أنها لن تستطيع تحمل كلفة الإقامة فيها. فسورية دولة فقيرة الموارد الطبيعية، واعتمادها الحقيقي على مهارات سكانها، والروس وإن هم قوة عسكرية تدميرية، لكنهم قوة اقتصادية ضعيفة لا تتحمل كلفة إعادة بناء سورية ولا تحسين الوضع البائس فيها، فلا وقود ولا كهرباء مع أن الروس قدرة نفطية كبيرة وقوة صناعية مهمة!

يبدو أن الروس بدؤوا يتساءلون عن كيفية الحفاظ على مكتسبات تدخلهم، بعدما تبين أن غرقهم في المستنقع السوري بات

وشيكاً مع حتمية انهيار بقايا سلطة بشار أسد، ما سيضطرهم أن يصبحوا سلطة انتداب على بلاد لن تسدد ولو جزءاً من فاتورته.

إنهم حقيقة في سباق مع الزمن. ويدعم رأينا هذا خروج لافروف الأسبوع الماضي يهدد "بانهيار ما أسماه الدولة السورية"! فهل فهم الروس أن لا أمل لهم بعيداً عن السياسة وأن عليهم البحث عن سلطة بديلة تتمكن بمساعدتهم من خلق عملية انتقال سياسي تحقق نوعاً من الشرعية والعدالة بدون عائلة أسد؟ سلطة يَأمن لها رجال الأعمال والنخب السورية ويستطيعون المشاركة بها، وتمكنهم من جذب السوريين للعمل معا في الحكم والإدارة والبناء، فهذه وحدها القادرة على إعطاء ضمانة بالإعمار والاستقرار. أم إنها مجرد رسالة يرسلونها لرعاة عائلة أسد من الأجانب يستعجلونهم الإنقاذ؟!

هامش:

* حدثني أحد الجنرالات العسكريين الإسرائيليين ساخراً: "الروس يبيعون السلاح للأسد والأسد يقدمه لحزب الله اللبناني ونحن نقوم بقصفه وتدميره. هل لديك تفسير لهذه المسخرة"! إنها الفوضى الخلاقة أيها السادة!

أورينت نت: ٢٠٢١/٤/٥

الإعلام والجمهور السوري: السلاح القاتل!

(صَوّرْ، صَوِّرْ، خلي الدنيا تشوف الإجرام) جملة آمرة مستجدية طالما سمعها العالم من أفواه كثير من السوريين المنكوبين من القصف والمجازر تخاطب مراسلي أورينت والوسائل الإعلامية الأخرى الذين تواجدوا مع الحدث. واضح أن هذه الكلمات كانت تعبر عن إصرار السوريين أن لا تمر جرائم "نظام" بشار أسد والميليشيات التابعة له دون أن يعرف العالم بها، ذلك وبفضل امتيازات الهاتف النقال أصبح آلاف من الشباب والفتيات ناشطين ومراسلين، مئات قتلتهم ميليشيات أسد لأجل صورة! ليقال عن الحرب السورية: **"إنها الحرب الأكثر توثيقاً في التاريخ"** (١)

واضح أن السوريين خافوا أن يُقتلوا وتدمر حواضرهم بصمت كما حدث مع أهالي حماة في مذبحة فبراير ١٩٨٢؛ مساكين السوريون، ظنوا الظنون الطيبة في المجتمع الدولي! فقد ظنوا أنه لن يرضى عن انتهاك حقوق إنسانيتهم بهذه الوحشية وأنه سيوقف أسد عن قتلهم وتدمير مدنهم وقراهم!

قضيتُ بضع ساعات أتصفح ما وقع بين يدي من دراسات ومقالات غربية وعربية عن الإعلام والثورة السورية، مُخزٍ وطفولي وكيدي المكتوب باللغة العربية، بالمطلق ليس هدف الكتابات المعرفة، ففيها كثير من المعلومات المغلوطة والتعاميم المجحفة. هدفها يمكن حصره بالانتقام من هذه الوسيلة الإعلامية أو تلك لأن "الكاتب/ المحلل" لم يجد له فيها عملاً وظيفياً، أو كان مستجدياً لعمل وظيفي، أو مسترضياً لهذا النظام السياسي أو ذاك، أو لتناقضها عن وجهة نظره السياسية وانتماءاته!

***

أعطى الإعلام التلفزيوني الغربي الناطق بالعربية أملاً كبيراً للمتظاهرين السوريين بأنه معهم ولن يتركهم وحيدين، حينما غطى المظاهرات ومن وجهة نظر المتظاهرين من اللحظة الأولى لانطلاقها، كـ (فرانس ٢٤) والـ (بي بي سي) وقناة (الحرة)، لكن هذه التغطية بعد حوالي أربعة أشهر من انطلاق المظاهرات أصبحت حذرة وقدمت روايات نظام أسد على روايات المتظاهرين بميل بدأ يتوضح شيئاً فشيئاً تجاه روايات نظام أسد. البعض ادعى أن المسيحيين العرب المسيطرين على مراكز التحرير الإعلامي في هذه الوسائل وفي عدد من كبريات التلفزيونات العربية هم وراء هذا

الانقلاب، لكني أظن أن خلف هذه الحكاية آمر عمليات أعطى أمره لهدف أظن أن القارئ عرفه بعدما انجلت الوقائع عن الكارثة!

الإعلام الغربي عموماً أبدى اهتمامه بالثورة في بداياتها، لكن بمرور الوقت تبنى خطاب الحرب الأهلية، وأن المعادين لنظام أسد إسلاميون متطرفون كارهون للقيم الغربية والإنسانية، عموماً، وقد اتحدوا مع مقاتلين متطرفين أتوا من دول عدة، بما فيها الدول الغربية، ضد نظام يقرون بإجرامه لكنهم يجدونه أفضل مما ينقله إعلامهم عن تصرفات متوحشة لتشكيلة من المتطرفين تسيطر على شوارع المدن السورية وتهدد بنقل نشاطهم إلى أوروبا.

ولسنوات لم تخرج التغطية الإعلامية الغربية خارج هذين الإطارين، ولم يعنِ الإعلام الغربي مطلقاً أن يسأل: كيف وصل هؤلاء المقاتلون إلى سورية ومن ساعدهم ومن قدم لهم السلاح والمال ليتمددوا فيها؟! وهذا ما أربك الجمهور الغربي من القضية السورية فأخرجها من دائرة اهتمامه، بعدما عاداها وعادى كل ما يخرج منها وعنها لسنوات.

ويمكننا أيضاً أن نعتبر أن عدم إنصاف تغطية الإعلام الغربي ربما يعود لمنع نظام أسد دخول وسائل إعلام غربية أو صحفيين غربيين، إلا انتقاءً حسب من تتطابق وجهة نظرهم مع روايته للأحداث،

وكان قد اغتال فعلاً عدداً من الصحفيين الغربيين الذين تسللوا إلى سورية لتغطية الحدث على حقيقته.

القنوات العربية الرئيسية، وأخص **الجزيرة والعربية**، تحفظت على نقل المظاهرات لأسابيع، لكنها بعد ذلك تبنت روايات الثورة بالكامل، ثم تحولت إلى سلاح ضد نظام أسد، لكنها دخلت في استقطابات وتقاطعات حادة وتبنت جهات سياسية مختلفة عن الأخرى، وهذا ما عزز انقسام آراء المشاهد العربي عموماً والسوري خصوصاً، وأربك إمكانية خلق رأي عام موحد تجاه المجزرة السورية الكبرى التي اتضحت نتائجها بنهايتها، حينما خسر السوريون والعرب والعالم كله بلداً كان اسمه سورية وشعباً سورياً ابتلع الشتات نصفه والنصف الآخر يبتلعه الفقر وويلاته ككوارث الأمراض الجسدية والأمراض الاجتماعية المدمرة!

***

في سورية انتشرت وسائل إعلام الاسترزاق (صحف، مواقع، إذاعات، وأفلام وثائقية ومراكز أبحاث..)، تمولها جهات ومنظمات غربية وعربية تحمل شبهات فساد وأجندات خاصة يمكن تلخيص أهدافها بالتالي:

إظهار السوريين وكأنهم قادمون من مجاهل التاريخ سماتهم الجهل والتطرف الديني والعنف الوحشي، حيث ركزت على القصص الشاذة في المعركة عن واقع المرأة خصوصاً والمجتمع عموماً، وهذه تخصص بها الإعلام والأعمال الوثائقية الممولة من منظمات غربية؛ أما الممولة من حكومات عربية فكانت ولا تزال تحاول أن تأخذ السوريين رهائن ومرتزقة مؤيدين لصراعاتها مع هذه الدولة أو تلك، لكن جميعها اتفقت على مبدأ معارضة نظام أسد، الذي كان إعلامه يصوره بطلاً وبأن جيشه مقدس يقاتل بشراسة ملايين المقاتلين من القاعدة ومن إرهابيين ومرتزقة، يقتل كل يوم منهم ألوفاً على شريط أخبار تلفزيوناته ومانشيت الصحف التابعة له، وأنه يتصدى لمؤامرة عالمية ضده وضد سورية تقودها عشرات الدول العظمى والصغرى، هدفهم تدمير الدولة العصرية الديمقراطية واحة التسامح الديني والحوار سورية التي يحكمها، وأنه بعدما يقضي على الإرهابيين الذين يستهدفون وجود الأقليات في المنطقة التي هو حاميهم ستعود الدولة مزدهرة غنية! رواية لا يصدقها عقل لكنّ كثيراً من وسائل الإعلام الناطقة بالعربية في مصر وتونس وغيرها تبنتها و حشت بها عقول جمهورها، كما وجدت الرواية لها طريقاً في عدد من وسائل الإعلام الغربية اليمينية أيضاً!

***

لم يكن هدف إعلام نظام أسد الأب ولا الولد الحقيقة أبداً ولا تعنيهم، لكن هدفهم كان إرباك الجمهور لجعل عملية فهم ما هو صحيح وما هو خطأ قضية صعبة، كما إن هذه العملية ستخلق رواية يستعين الخائفون الرماديون بها من بطش أجهزة أمن أسد بهم، إنْ هم فهموا واقع الحال وقرروا تغييره والوقوف مع الثورة ضد نظامه!

فالفهم سيؤدي بهم إلى اتخاذ موقف وهم في أعماقهم الخائفة لا يريدون أن يتخذوا موقفاً ربما يدفعون ثمنه! وللأسف وسائل إعلام الارتزاق المعارض مارست نفس سياسة إعلام أسد لكن من وجهة نظر معارضة، ربما لأن معظم كوادرها ناشطون وغير مؤهلين إعلامياً، وهمهم الرواتب والامتيازات وإرضاء المموّل ما أوقعها في أفخاخ إعلامية عدة أكثرها خطورة الفخ الطائفي، {سيكون لنا وقفة قادمة مع هذا الموضوع} فحوّلت قضية إنسانية ومذبحة مرعبة بحجم المذبحة السورية إلى حالة سخرية ونكايات ومكايدات قادها ثلة تسيطر عليهم حدّ الهوس شهوة الحضور!

مثلما غذّت وسائل التواصل الاجتماعي وسائل الإعلام العربية والسورية بالمادة الإعلامية، كذلك استمدت منها التحليلات والمواقف والآراء، هذه الحالة الإعلامية جعلت للحدث روايات مختلفة، وبالتالي، مواقف متناقضة منه، وهذا بدوره ساهم في تقسيم

الجمهور السوري في بداية الثورة إلى ثلاثة أقسام: مؤيّد للحراك الثوري وآخر معارض له والثالث رمادي لا يعنيه الطرفان كأنه في غيبوبة خارج الحدث مطلقاً لا بل وخارج جغرافيته! للأسف موقفه هذا جعله الفريق الذي دفع أبهظ الأثمان.

فيما بعد تشظّى الجمهور السوري بتعدد وتشظي الكّل السياسية التي في معظمها الأعم تكّلات ساذجة ليس لها برنامج، لكن هدفها السعي لأن تكون على قائمة المعارضات التي انشغل بترتيبها ديمستورا لسنوات، وشغل بها الدول الغربية والعربية وشغل السوريين بكل فئاتهم عن القضية الكبرى للسوريين: الحرية، وعن المذبحة التي يتعرضون لها لأجل ذلك. {وسيكون لنا وقفة تالية مع هذه الطامّـة}!؟

طبعاً هذا المشهد ولّد مشاحنات شهدتها صفحات السوشيال ميديا، وخلق استقطابات معزولة كل فئة تبحث عن رفقاء متقاربين في التفكير والانتماء، ووصل السوريون إلى حالة انغلاق تام، كل مجموعة شكلت جزيرة عزلت نفسها داخلها عن الآخر المختلف، لا بل أصبح أي نقاش مختلف لأي مقتحم للجزيرة مصادفة أو عنوة ينتهي بالتشاتم الحاد، هذا إذا لم يبدأ به أصلاً!

وتحولت الكلمات إلى رصاص يقتل ويمزّق ويدمر المجتمع، حتى بات شرح مفهوم شعب سوري حالياً قضية معقدة! وبالنتيجة أصبح الخطاب الإعلامي بمرور الوقت توجهه وجهات نظر تلك الجزر المنعزلة تماماً، وبالتالي أصبح هو الآخر أكثر استقطاباً وانعزالاً، وخصوصاً المجتمع السُّني الذي نشأت داخله ألف جزيرة وجزيرة ليس بينها جسور! وهذا الواقع الإعلامي انعكس على الوعي العربي الجمعي تجاه القضية السورية فهو الآخر تشظى وتناقض حسب انتماء فئاته، واستسلم بعد ذلك إلى اللامبالاة!

تشخيص الداء يُسهّلُ وصف الدواء

يبقى أن إعلام ميليشيا بشار أسد أقل خطورة لأن تاريخه تاريخ من التزييف والكذب، وهو ليس فاعلاً حتى في وعي الموالين لأسد أنفسهم. لكن الخطورة الكبرى في عملية تزييف الوعي تكمن في الإعلام العالمي والعربي، وكذلك في الإعلام الذي يُظن أنه محسوب على الثورة.

دائماً وأبداً الحل سوري ويكذبكم من يوكلكم إلى الدول الكبرى. فلو رجعنا إلى التقرير الأمريكي الاستخباراتي الأخير الصادر ٩/أبريل/٢٠٢١ لعرفنا أن لا شيء يحمينا جميعاً من النهاية المأساوية، فالتقرير يؤكد أن التراجع الاقتصادي والأزمات الإنسانية ستزداد

شراسة لسنوات قادمة في سورية، وسيزداد معها الصراع وتتشكل ميليشيات جديدة تتقاتل وبدماء السوريين. إذاً اللامبالاة والاستقطابات والجزر المعزولة لن تحمي أحداً، وأبناؤكم اليوم كما في الغد القريب، ربما لعشرات السنوات، ستكون دماؤهم راوية للمذبحة دون أي قيمة وهدف، وسيزداد الخراب والجوع والمرض وهدر الكرامات وسفح الأعراض.

لذلك على النخب السورية، رجال الفكر والسياسة والمال، أن يبدؤوا بالبحث عن بعضهم ويبدؤوا معركة الحوار العقلاني ونبذ الخلاف، وأن يشكلوا تجمّعاً وطنياً، سيكون من السهل عليه أن يجد حاملاً دولياً يحمله، الكل مقتول إن بقينا على عدائنا لبعضنا ولا حوار يجمعنا، وأعتقد أن الواقع الذي نحن فيه أفضل دليل على أننا نسير نحو الهلاك. وحدتنا قوتنا وكل ما عدا ذلك آمال ورغبات.
الغريب أنه حتى النخب تصرفت كما العامة، وتفرقت وتشرذمت فتقزمت، وعزلت نفسها داخل فقاعات لا تتصل ببعضها، فكثير من رجال المال والمعارضين والكتّاب والمحللين تعادوا فيما بينهم وعادوا من خالفهم الرأي والموقف(!؟)

هامش:

(١) مع بداية الثورة توفر لتلفزيون أورينت نحو ٣ آلاف ناشط راسلوه بصور وفيديوهات وأخبار تقريباً من كل شارع في سورية، قتل نظام أسد المئات منهم!

أورينت نت ٢٠١٢١/٤/١٩

المعارضة السورية في دهاليز مكر دول القرار

ليس جديداً على بلادنا أن تكون جزءاً من سياسية دول القرار العالمي، وذلك منذ نشوء المسألة الشرقية في القرن التاسع عشر وحتى الآن، ولقد تجلى مكر السياسية الغربية منذ ذاك الحين في الوعود المعسولة التي تغطي الممارسات المدمرة، وما زال المكر الدولي يتبع السياسة نفسها أمام أهم ثورة في تاريخ المشرق العربي الثورة السورية!

لقد ظهر المكر الدولي بالثورة السورية أكثر ما ظهر في تعامله مع قوى المعارضة السورية المدنية والمسلحة وقد تجلى هذا المكر في أمرين:

الأول: التعامل مع المعارضة كأدوات في سياسة دول القرار العالمي، وليس بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب السوري تتطلب دعماً دولياً لتحقيق أهداف الشعب السوري بالتحرر.

الثاني: عدم القطيعة مع "نظام" أسد والتعامل معه على أنه طرف في أي حل، مع يقينهم الكامل أن هذا "النظام" لا يمكنه أن يفكر إلا في الحل العسكري الذي دعاه لاستدعاء الجيش الروسي والإيراني والميليشيات الطائفية الشيعية من لبنان وأفغانستان وإيران الخ.

فكيف لنظام عالمي وشرعية دولية وقانون دولي أن ينظر إلى "نظام" استخدم الأسلحة الكيميائية ضد الشعب على أنه طرف في الحل، ومع معرفة باستحالة الحلّ مع حكم يمارس سياسة الميليشيا الطائفية؟! هذا بحدّ ذاته دلالة على عدم جدّيتهم في البحث عن حلٍّ يحقق مطالب الشعب السوري وحقوقه المشروعة.

ولكي لا نغرق في التفاصيل الكثيرة، أتوقف عند أسوأ حالة من حالات مكر الموقف الدولي من المعارضة السورية، ألا وهو ستيفان ديمستورا مبعوث الأمم المتحدة الخاص لسورية الذي يمكن القول إنه التجلي الأمكر والأخبث لسياسة دول القرار.

وجّه ديمستورا عشرات الدعوات إلى كل تجمعات وأحزاب وتيارات وفصائل ومنظمات، بعضها معارض وكثير منها مزيف المعارضة، وبعضها تشكل أثناء دعواته ليستفيد بدعوة للحضور! ساعياً لتشكيل وفد مفاوض "لنظام" أسد، من خلال عملية سياسية تدعى "الخيمة الكبيرة"، وطيلة مدة ولايته لأربع سنوات، جلس يعجن حبات الرمال، وبما أن تركيزه انصبّ على عجينة وفد متجانس من عشرات المعارضات المختلفة، تراجعت القضايا الأخرى إلى الحضيض، كإيقاف القصف والدمار والقتل وفك الحصار وإطلاق

سراح المعتقلين وإيصال المساعدات وحماية المشافي والوصول لحل سياسي حسب مقررات مؤتمر جنيف.

الدبلوماسي المخضرم أصرَّ أن يُشكّل وفداً متجانساً من جميع فئات المعارضة السورية، من كل الإثنيات والطوائف والمناطق، من كل المعتقدات السياسية والمشارب الاجتماعية، من الأجناس الثلاثة، من المتحزبين والمستقلين، من العسكريين والمدنيين، من المقاتلين والناشطين، من الإسلاميين والملحدين، يريد أن تكون لديهم إرادة واحدة ورؤية واحدة، وإلا لن تكون هناك مفاوضات وفعلاً بسياسته تلك لم تبدأ مطلقاً!؟ قال رياض حجاب رئيس لجنة المفاوضات "فريقنا يمثل جميع فئات المجتمع السوري المعارض"، لكن ديمستورا اعترض لأن تيارات أخرى لا توافقهم الرأي، كتيار منى غانم ولؤي حسين والبي ي دي ووو.

ديمستورا أول دبلوماسي دولي يصرح أن "الأسد جزء من الحل السياسي"، وإن عاد وسحب تصريحه معتبراً أنها زلة لسان (!؟) إلا أنه قدم ذريعة لألسن دولية متعددة تلقفت تصريحه وطالبت بعدم القطيعة مع "نظام" أسد! وأطنبت وسائل الإعلام الأسدية في التمسك "بزلته" تلك واستخدمتها في سياسة كسر إرادة الشعب السوري. وهو

نفسه زلت قدمه وزار السفارة الإيرانية بدمشق مهنئاً باليوم "الوطني" لوصول رجال الدين إلى حكم إيران، وعاد اعتذر عنها وبررها أيضاً!

دي ميستورا: الذي كرّس ولايته، أربع سنوات لتأسيس وفد المعارضة المتجانس قال: "إنه يدرك أن العديد من الأطراف الرئيسية المشاركة في المحادثات السياسية من غير المرجح أن تقبل شرعية بعضها البعض وأن تجلس معاً في محادثات سلام وجهاً لوجه"! معقول احتاج أربع سنوات ليفهم أنها عجنة رمل، وأن المستحيل هو جمع معارضات حقيقية ومزيفة مختلفة المشارب والانتماءات؟! كلا إنه يعرف ما يفعل فهو ببساطة يمنح اللاعبين الدوليين ومعهم بشار أسد وزمرته الاستفادة من استمرارية الغطاء السياسي الذي توفره مبادراته، وذلك لتعزيز طموحاتهم على الأرض السورية، وكذلك لتزهق آمال الشعب السوري بحصد نتائج ثورته.

فديمستورا ومن وظّف ديمستورا يعرف أن الحل السياسي الحقيقي كان سيُجنب سورية الانزلاق إلى حروب الوكالة، التي استفاد منها أعداء الشعب السوري، ووحده الشعب السوري دفع ثمناً باهظاً. كما إن معظم الفئات التي استدعاها ديمستورا لها ضامن دولي، أي عميلة لجهة دولية، لذلك استطاعت أن تقبل أو ترفض، أو تضع شروطاً وتعرقل هنا وهناك، وتثير فوضى إعلامية تزرع اليأس في نفوس

الثائرين وتخلق انطباعاً بأنهم وحيدون في الخنادق! كما استنزف اللاعبون الدوليون الوقت والجهد بملكيتهم لحق النقض الافتراضي في دعم ممثليهم ورفض آخرين: فروسيا، مثلا، ضغطت لاستبعاد الجماعات الإسلامية من المحادثات السياسية، وتركيا رفضت وحدات حماية الشعب وحزب الاتحاد الديمقراطي الكرديين، والسعودية اعتبرت أن هيئة المفاوضات الممثل الشرعي والوحيد، و"نظام" أسد رفض الجميع لكنه استحب لؤي حسين وقدري جميل وأمثاله من "معارضةٍ" تكره الثورة وتطالب ببقائه وإصلاح نظامه فقط! أما الدبلوماسي المخضرم فقد نجح في هدفه الحقيقي وهو: إبقاء الإحساس أن عملية سياسية تجري على قيد الحياة حتى عندما لم يك هناك عامل على قيد الحياة في العملية برمتها.

لم يكُ لقائي بدميستورا منتصف شهر أيار ٢٠١٥ ودّياً، ما قلته نشره الإعلام وهو موثّق لدى الأمم المتحدة بناء على طلبي، لكني أود أن أورد نقطة لها علاقة بلبّ موضوع اليوم وهي أني اتهمته بخلق إحساس دولي وسوري أن الثورة طائشة ليس لديها من يمثلها، عبر السعي لتشتيت المعارضة وخلق وتبني عـشرات المعارضات المزيفة. وطالبته حينما رفض اتهامي، أن يطبق إذاً قانون الشفافية ويُطلع السوريين على محادثاته مع المجموعات المعارضة، فمن حق السوريين

أن يعرفوا ما يقوله الذين يدّعون تمثيلهم في ردهات المجتمع الدولي. لكنه راوغ، لأنه يعي أن مهمته الحقيقية ليس خلق عملية سياسية، وإنما تمييع مخرجات جنيف ربما إلى الأبد!

لا أؤمن بحسن النوايا في السياسة، وهي ليست موجودة أصلاً حتى أؤمن بها وأبرر لأيّ سياسي تصرفاً أو تصريح سياسي ما! أذكر أني حين حضرت مؤتمر أصدقاء الشعب السوري الأول في تونس وصلت قبل افتتاح الجلسة الرئيسية بنحو ساعة، مفوّتاً بعض اجتماعاته الجانبية، لعدم قدرتي على الحضور قبل يوم من انعقاد المؤتمر. بالطريق إلى القاعة قدّم لي مراسل أورينت اختصاراً عن الاجتماعات التي عُقدت قبل وصولي، ومنها أن أحمد داوود أوغلو وزير الخارجية التركي آنذاك، قابل المعارض هيثم المالح منفرداً قبل اجتماعه مع رئيس المجلس الوطني الدكتور برهان غليون وممثلين عن المجلس، وحين دخلت قاعة الاجتماع تحيّنت فرصة وسألت أوغلو: كيف يقابل المالح منفرداً قبل مقابلته لرئيس وأعضاء المجلس الوطني أو مع أعضاء المجلس بما أنه كان عضواً فيه؟! وأكدت أن هذه رسالة خاطئة ربما ستساهم بكسر إجماع السوريين حول أحقية غليون برئاسة المجلس. لكن أوغلو بدماثته ابتسم ولم يرد.

وحين انعقدت جلسة المجلس الوطني بعد انتهاء أعمال المؤتمر، دعيتُ بصفة فخرية لإدارة الجلسة، لأني لست عضواً فيه، فأنا لم أنضوِ مع أي جهة معارضة حتى اليوم.

عندها هاجم هيثم المالح غليون بقسوة وبشوارعية غير مقبولة، كما إن بعض الأعضاء ذوي اللسان السليط، (أحدهم لا يزال يستخدمه بالكذب وخداع السوريين عبر بث الـ"ون مان شو" على السوشيال ميديا بعدما انتهى صخبه في قاعات المعارضة)، قاموا باستصغار دور غليون بصفاقة لا تمت إلى النخبة بصلة، فرفضت إكمال إدارة الجلسة وغادرت، ليلحقني هو ورفيقه، ليعرضا عليّ مساعدتهما في الإطاحة بغليون من رئاسة المجلس، وعندما سألتهما عن البديل؟ قال المخادع: "أنا"، فسألته عن مميزاته عن الدكتور غليون، فأكد أن ميزته أنه خريج سجن أسد السياسي!؟

دون تعليق، انسحبت عنهما، متجهاً إلى غرفتي للراحة، فقابلت غليون الذي انسحب أيضاً من الجلسة، وعلق بألم وحسرة وربما بانكسار: **"أظنك شهدت ما أعاني معهم"؟!** قلت:

"نعم ولم أتوقع! لكني أعتقد أن قنبلة أوغلو كانت المتفجرة الأقوى في الجلسة. أستغرب كيف قبلت الاجتماع به بعدما قابل معارضاً

بصفته الشخصية قبلك وأنت ممثل لمجلس اجتمع السوريون على تمثيله وهو عضو فيه"؟!

***

إن الثورة السورية هي ثورة تحرر حقيقية، ولأنها ثورة تحرر فهي لا تحتاج إلى النظر إليها من زاوية التقسيم الدّيني والطائفي والعرقي والمناطقي والجنسي ، ولا تحتاج جميع المعارضين أن يكون لهم حق التمثيل، كما أراد ديمستورا وغيره. إنها ثورة شعب من أجل تحقيق الدولة الوطنية، دولة العقد الوطني، دولة العقد الاجتماعي. دولة المواطنة والمساواة في الحقوق والواجبات، وحرية المجتمع السياسية والمدنية.

كما إن تاريخ الكفاح السوري لا يعرف تقسيماً كهذا التقسيم الذي يريدونه لنا! وإن الثورة يقوم بها جمهور من الشعب وليس مطلوباً كل الشعب، تمثله ثلة من الشرفاء الوطنيين يثق الشعب بشرفهم ونظافة كفهم ووطنيتهم، وليس مطلوباً ثقة الشعب كلّه، هذه المجموعة يجب أن تتكون من نخب مال وأعمال وفكر وسياسة ومجتمع وعسكر، كل حسب دوره، تؤسس صندوقاً وطنياً مالياً يراعي الشفافية ليحافظ على ثقة السوريين كي يساهموا فيه كل حسب استطاعته، كما إنها لا

تدير دولة لتحتاج إلى انتخابات لا يمكن تحقيقها في ظل طغمة حاكمة إرهابية طائفية، وغير مطلوب أيضاً أن يكون هناك انتخابات بينية دورية كما فعلت المعارضة السورية، كل ثلاثة أشهر رئيس جديد، كارثة وأي كارثة؟!

***

إن أسد الأب والولد لم يفاوضا الشعب السوري يوماً ولم يُعيرا انتباههما لمطالبه، بالمطلق، منذ تسلطهم على السوريين؛ فثورة قدمت نحو مليوني شهيد ومفقود، وستة عشر مليون مهجر لم يكلف بشار أسد نفسه تغيير مختار لحيّ تحسّساً لإرضاء شعب يعتبره أصلاً غير موجود! لكن إرادتيهما بقيت ذليلة تجاه الدول المؤثرة، تساوم هذه وتقدم رشاً لتلك على حساب أرض سورية ومستقبل السوريين.

لن ينسى السوريون تصريح وزير الخارجية السابق لميليشيا أسد وليد المعلم:

"من يريد الهجوم على سـورية لا مبرر له إلا بالتنســيق معنا"!

لذلك على أي فريق يقدم نفسه ممثلاً عن ثورة السوريين أن تكون استراتيجيته وتكتيكاته تنطلق من مبدأ وحيد: القرار السوري المستقل

والمعارضة بوصفها الممثل الشرعي الوحيد، وأن يستفيد من تجربة المعارضــة لعشر سنــوات وخبرتها بمكر الــدول، هذا الوعــي من شــأنه أن يسرّع الخلاص من كل أشــكال الاحتلالات لســورية.

أورينت نت: ٢٦/٤/٢٠٢١

الأكراد بين سندان خرائط القوى العالمية ومطرقة PKK

(١) السّردية التاريخية والجغرافيا السياسيّة

بدأ الصراع في سورية، بغض النظر عن الحالة الآن، ثورة كبرى ضمّت السوريين عموماً كباراً وشباباً وأطفالاً، رجالاً ونساء، من كل الطوائف، بما فيها الطائفتان المسيحيّة والعلوية، بغض النظر عن موقفهما فيما بعد، ومن جميع القوميات، عرب وكرد وتركمان وداغستان وشيشان وشركس. مثلهم مثل باقي شعوب الربيع العربي وأسوة بثوراتهم وبمطالبهم السياسية، بالحرية والعيش الكريم وإسقاط نظم سياسية مستبدة فاسدة كان لديها من السفالة والإجرام أنْ تتآمرَ مع قوى خارجية وداخلية ظلامية أو انفصالية لتقلب محن شعوب المنطقة التي هي نتيجة حتمية للاستبدادِ إلى حروب طائفيةٍ دينية وعرقية، كي تحوّل الانتفاضات إلى حرب أهلية تشتري بها وقتاً إضافياً في الحكم. وإحدى تلك التحولاتِ كانت مسألة الأقلية الكرديةِ في شمال شرق سورية.

من الصعب فهم المشكلة الكردية والمطالبِ التي رفعها فرع حزب العمالِ الكردستاني مدعيا النيابة عن أكراد سورية، ويستخدم الرصاص سعيا لتحقيقها منفصلة عن المسألة الكردية الكبرى، بتاريخها وجغرافيتها الطبيعية والسياسية وطموحات الكرد واختلافاتهم وتشابهاتهم بين بعضِهم، وكذلك مسألة النهوض القومي عند الكرد في بداية العصرِ الحديث، وأيضاً فهم طبيعة حزب العمالِ الكردستاني (بي كي كي) الحزب الأكثر فعالية في العملِ السياسي والعسكري الكردي.

***

أول من استخدم مصطلحَ كردستان في القرن التاسع عشر هم العثمانيون للدلالة الإداريةِ على منطقة يسكنها الكرد تقع حالياً في إيران وتركيا والعراق ولها امتدادات صغيرة داخل سورية وأرمينيا وأذربيجان. للأمانة كان صعباً عليّ أنْ أجد خريطة متفقاً عليها لكردستان، حتى بين الكرد أنفسِهم؛ وجدت خرائط عديدة تتفق على امتدادها على الدول أعلاه، لكنْ هناك خرائط تصلها بالخليج العربي عبر عربستان المحتلة من إيران، وبعضها يجد لها منفذاً إلى المتوسط في منطقة جنوب وسط تركيا التي تتصل مع شمال غرب سورية، وهذه منطقة لا يسكنها الكرد وإنما منطقة سكانها عرب، وبعضها

يعطيها منفذين على كلا البحرين. على أن المراجع الجغرافية الثقة تؤكد أن كردستان ليس لها منافذ بحرية، وهذا سيظل سيفاً جغرافياً اقتصادياً مسلطاً عليها إنْ وصلت إلى مرحلة نشوء دولة كردية معادية للأمم حولها.

تقاسم الأوربيون، وخصوصاً البريطانيين والفرنسيين الشرق الأوسط بعد وفاة الدولة العثمانية؛ أولى معاهدات التقسيم كانت سايكس بيكو، ثم تلتْها معاهدة سيفر، وأخيراً معاهدة لوزان والتي كانت نتيجة لنضال الحركة الوطنية التركية بقيادة أتاتورك استطاعت أنْ تعدّل الاتفاقيتين السابقتين وتضم قسماً كبيراً من شمال سورية الطبيعية ومساحة مهمة من المنطقة التي يسكنها الكرد إلى المساحة التي كانت قد قررتْها المعاهدتان السابقتان لتركيا لتتشكل تركيا الحالية، وقضت على الحلم القومي الكردي بدولة قومية كانت سيفر قد أقرته؛ ولو كان السوريون آنذاك يملكون نفس روح وعزيمة الأتراك ووقفوا إلى جانب الضابط يوسف العظمة في ميسلون ضد الفرنسيين كما فعل الترك مع أتاتورك لتغيرت الجغرافية السورية الحالية بالكامل من جبال طوروس إلى سيناء، لكنهم انشغلوا بمخاوفهم الداخلية!

للعلم غالبية أكراد تركيا قاتلوا مع الحركة الوطنية التركية ليبقوا داخل الدولة التركية المسلمة خوفاً من الاستعمار المسيحي، فالكرد معظمهم

مسلمون سُنة، وهذا دليل أن الولاءات السياسية بمقدورها تجاوز الهويات الوطنية والقومية!

بالنهاية شاءت الجغرافيا السياسية لضفة المتوسط الشرقية وبلاد الرافدين أنْ تكون الدول التي تكوّنت فيها بعد الحرب العالمية الأولى وبفعل استعماري دولاً ذات أكثرية قومية عربية وأقليات متعددة قومياً وأكثرية سُنية وأقليات طائفية. وكل سردية تاريخية من أي قوميةٍ جاءت لا تأخذ هذه الواقعة الموضوعية بعين الاعتبار ستكون سردية تسعى لخلق تناقض قومي وطائفي زائف. كما إنه لا يمكن تأسيس السياسية المعاصرة والحقوق على السردية التاريخية لهذه الجماعة أو تلك في وقت لعبت فيه الجغرافيا السياسية للمنطقة العربية بعامة دورها في التشكيل الراهن وبإرادة قوى عالمية خارجية؟

الوعي القومي الكردي بدأ من العراق

مع قيام ثورة عام ١٩٥٨ في العراق التي أطاحت بالحكم الملكي؛ أعادت قيادة الثورة مصطفى البرزاني من منفاه في الاتحاد السوفييتي، لكنه لم يستطع الاتفاق مع قادة الثورة في بغداد، فأعلن الثورة على الثورة سعياً لتحقيق الحكم الذاتي. وعندما وصل حزب البعث العراقي للحكم عام ١٩٦٣ أعلن الوحدة العسكرية مع انقلابيي بعث سورية الذين سارعوا لتقديم مساعدات عسكرية لبعث العراق

لقمع ثورة البرزاني، كما ذكرت صحيفة (الرأي العام) الكويتية في عددها الصادر في الثاني من تموز يوليو عام ١٩٦٣ نقلاً عن نيويورك تايمز: "ذكرت نيوريوك تايمز في نبأ لها من بيروت أن فوجاً من الجيش السوري يشترك في القتال مع القوات العراقية في حربها ضد الأكراد، وأن طائرات الميغ السورية وضعت تحت تصرف سلاح الجو العراقي". أما أولى مهام الوحدة العسكرية التي أعلنت بين الانقلابيْن البعثيين في البلدين كان الإعلان رسمياً عن إرسال (لواء اليرموك) بقيادة العقيد فهد الشاعر، الذي سيطر على قرى دهوك. في حين أن الحكم الوطني في سورية قبل انقلاب البعث كان من أعمدة الحكم فيه شخصيات كردية في مناصب رفيعة!

***

يُعتقد أنّ المرة الأولى التي تدخلت فيها الولايات المتحدة الأمريكية في المسألة الكردية كانت عقب اندلاع حرب ١٩٦١ في "كردستان" العراق، مع حلفائها في المنطقة إسرائيل وإيران زمن حكم الشاه، حيث ساهم الثلاثة بتمويل التمردِ الكردي، الهدف الإيراني كان لأجل إبقاء النظام العراقي أسيراً لمشكلته الداخلية مع الأكراد وإبعاد طموحاته عن عربستان، أما بالنسبة لإسرائيل فكانت تسعى لضمان عدم نشر قوات عراقية فيما لو اندلعت حرب مع جيرانها العرب،

وفعلا حصدت نتيجة دعمها للكرد فلم يستطع العراقيون في حربَي ١٩٦٧ و ١٩٧٣ نشر قوات كبيرة على الجبهة العربية التي خسرت في الحربين خسارة مخزية.

صدام حسين الشاب الطموح آنذاك التقى برزاني ووافق على مطالب الحكم الذاتي الكردي عام ١٩٧٠ على أنْ ينفّذ الاتفاق عام ١٩٧٤. لكنْ قبل موعد التنفيذ اندلعت حرب تبادل الطرفان الاتهامات فيها، ومرة أخرى بدعم من الولايات المتحدة، وكان الهدف الأمريكي زعزعة النفوذ السوفييتي في العراق كورقة في الحرب الباردة بينهما، وإبقاء الحكومة العراقية مقيدة بالمشكلة الكردية الداخلية، لكنْ مع عدم السماح بتقسيم العراق لأن الإقليم لن يكون ذا جدوى اقتصادياً لعدم وجود نافذة بحرية تحرر اقتصاده من سيطرة الدول المحيطة المعادية. مع أنّ البرزاني زار شاه إيران طلباً للمدد ضد قوات بغداد لكن الشاه وخشية من الطموحات الكردية لأكراد إيران أوقف دعمه، فتوغل صدام حسين في الجبال الكردية بعدما فقد الكرد شجاعتهم، وألقاهم حلفاؤهم تحت عجلات القطار.

مع اندلاع الحرب الإيرانية وجد الأكراد مرة أخرى فرصة لهم فأعلنوا التمرد على بغداد، يبدو أن للسياسيين الكرد ميلاً لاستثمار الفوضى في تحقيق طموحاتهم، مثل ذلك حدث بعد ثورة السوريين عام ألفين وأحد عشر!! عندها قاد الجيش العراقي حملة تأديبية مروعة

استخدم فيها الكيماوي، ولم يتدخلْ حلفاء الكرد، بما فيهم أمريكا، للدرء عنهم، لأنهم أملوا بحرب متوازنة بين العراق وإيران تطول ما أمكن من الوقت.

حثت الولايات المتحدة الأمريكية الكرد على التمرد على حكم صدام بعد غزو الكويت، ومرة أخرى بعد نهاية الحرب ألقاهم بوش الأب للإهمال، لكنه عاد بعد عام ومنحهم إقامة هادئة في ظل منطقة حظر طيران، وفي عام ١٩٩٢ أنشأ أكراد العراق أول حكومة متمتعة بالحكم الذاتي بتحالف وحماية أمريكية.

حزب العمال الكردستاني

أسس مجموعة من الطلاب الأكراد الترك الماركسيين المهمشين تنظيماً سرياً دعوه "حزب العمال الكردستاني"، واختاروا عبد الله أوجلان رئيساً له عام ١٩٧٨، مركزه جبال قنديل، هدفه: فصل كردستان عن الدول الواقعة فيها والسعي لإقامة دولة ماركسية لينينية بمطرقة القوة. ودخل الحزب بدعم سوفييتي في إطار الحرب الباردة ضد تركيا الحليف الأمريكي المجاور لأراضيه، وبدعم مباشر من حافظ أسد، الذي تخلى عنه عام ١٩٩٨ بعد تهديد تركي مباشر ما أسفر عن اعتقال أوجلان، واعتبرتْ ضربة قاصمة للحزب بعدما ازادت قوته ووصل أعضاؤه إلى عشرة آلاف عضو.

قاد الحزب عمليات إرهابية في الأراضي التركية وعلى المصالح التركية، تسببت بمقتل نحو أربعين ألف تركي، لذلك تم تصنيفه كمنظمة إرهابية على لوائح أمريكا وبريطانيا والاتحاد الأوروبي وتركيا وإيران وسورية، ويتبع لحزب العمال الكردستاني: حزب الحياة الحرة الكردستاني العامل في إيران، والذي بدأ مطلع هذا القرن عملياته ضد طهران، علما أن أكراد إيران يرفضون الانفصال، كما يتبع له حزب الحل الديمقراطي لكردستان العراق وكذلك يتبع له في سورية حزب الاتحاد الديمقراطي وقوات سورية الديمقراطية ووحدات حماية الشعب، وجميعهم جماعات مسلحة؛ أما الروابط الحقيقية بين هذه الأحزاب الكردية نتبيّنها من مقابلة أجرتها صحيفة وول ستريت جورنال، مع مقاتل كردي قال:

"أحياناً أنا من حزب العمال الكردستاني التركي، وأحياناً أنا من حزب الحياة الحرة الكردستاني في إيران، وأحياناً أنا من وحدات حماية الشعب في سورية، لا يهم حقاً، كلنا أعضاء في حزب العمال الكردستاني".

لهذا السبب اعتبرت الحكومات المستهدفة في المنطقة أن ما يحدث هجمات مرتزقة وليس انتفاضات كردية!

نحن إذاً أمام نموذجين كرديين يسعيان للثورة، البرزاني والأوجلاني، مختلفيْن متصارعيْن ومتفقيْن أحياناً.

أترك لألدار خليل مؤسس وعضو هيئة الرئاسة المشتركة لحزب الاتحاد الديمقراطي في سورية شرح الفروقات بينهما:

"الجماعات الكردية الحديثة تتبع فلسفاتها السياسية لواحد من شخصيتين مؤسستين: مصطفى بارزاني أو عبد الله أوجلان. الفرق الأساسي بين الاثنين هو أن البرزاني، والد الرئيس <السابق> لحكومة إقليم كردستان العراق مسعود بارزاني، دعا إلى بناء دولة كردية قومية قائمة على الأرستقراطية وحكم القلة، فيما دعا أوجلان إلى دولة اشتراكية... إذ ينبع الحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق من مدرسة بارزاني الفكرية، ونتيجة لذلك فإن حكومة إقليم كردستان تحكمها قلة، وتتركز السلطة والثروة في أيدي عائلة بارزاني وأصدقائها. من الناحية الأخرى، تمتد مدرسة أوجلان الفكرية إلى حزب الاتحاد الديمقراطي، وحزب الشعب الديمقراطي المؤيد للأكراد في تركيا، وحزب العمال الكردستاني، فضلاً عن مجموعات أخرى في العراق وإيران. كل هذه المجموعات طبقت أفكار أوجلان بشكل مختلف وسعتْ إلى أهداف مختلفة، وتفاعلت (تعاملت) مع لاعبين جيوسياسيين مختلفين".

مصطفى البارزاني لم يكن أرستقراطياً فاسداً كما يصوّره ألدار خليل، فالتاريخ قدّمهُ زعيماً شعبياً عشائرياً قاد ثورة، لكنْ فشل مشروعه في إقامة الدولة الكردية، بسبب عوامل إقليمية/دولية معقدة، دفع إلى الاعتقاد بأن أوجلان التقدمي الاشتراكي سيتفوق على البارزاني التقليدي الرجعي في تحقيق حلم الدولة. ولعل هذه المفارقة شبيهة بقول البعثيين بأن حكم شكري القوتلي رجعي متخلف وحكم البعث تقدمي اشتراكي! ولعله من نافل القول أن نرى ما حققه البعث من كوارث لسورية، ونقارنه بما جرّه أسلوب أوجلان من كوارث على القضية الكردية حين جرّها إلى بازارات الصراع الدولي وحولّها أداة للغرب القوي ضد شعوب الشرق المستباحة!

سيلاحظ القارئ معي أن العامل الأقوى في هذه المشكلة هي الخرائط التي رسَمَها الإمبرياليون الأوروبيون حسب مصالحهم القريبة والبعيدة: الاحتلال والنفوذ والتدخل الدائم عبر خلق صراعات دائمة لن تحقق الاستقرار والتنمية لشعوب المنطقة! هذه الخرائط جعلت الشعوب المحرومة تقاتل بعضها بدل أنْ تسعى لفك الدّوامة التي زجّهم المستعمر فيها. هل كانت الحدود لو رُسمتْ بطريقة أفضل كان الشرق سيكون أكثر استقراراً؟ لا أملك الجواب ولا أحد يستطيع، لكن الواقع رديء.

دعمتْ عوامل عدة تشكيل الوعي القومي الكردي أهمها:
أولا: المظلَمَة التي تشكلت بغياب عقد اجتماعي وعقد سياسي يضمن المواطنة لجميع سكان المنطقة، والتي استثمرها حزب العمال وجيّرها وكأنه مظلَمَة كردية بحتة وليس جميع سكان المنطقة يعيشون بجحيمها.

ثانياً: الصراع والفوضى، كما في العراق وسورية، عزّز المطالب الكردية الانفصالية في حين أن هذه المطالب تضعف في المناطق الأكثر استقراراً كتركيا، التي أعطى الأكراد أصواتهم الانتخابية لحزب العدالة والتنمية ولديهم ممثلون في البرلمان التركي، وكذلك في إيران وأرمينيا وأذربيجان.

ثالثاً: كما إن عاملاً آخرَ مهما وهو التنظيم والنشاط الدؤوب لأعضاء حزب العمال جعلهم سفراء أقوياء لقضيتهم. وكنت لاحظت انتشارهم في كثير من الساحات العامة في أوروبا، يستثيرون المارة بصور المجازر ويشرحون لهم قضيتَهم كما يرغبون أنْ تكون!

رابعاً: الدعم الدولي لاستمرار الصراع المميت على مبدأ اللاغالب ولا مغلوب.

أما عن الصراع الكردي العربي على الأراضي السورية في السنوات العشر الأخيرة، وأسبابه وتعقيداته والموقف منه، وإمكانية تخفيف حدتِه وتفاعلاته، أظن أنه أوسع وأغنى من أنْ تتسع له مساحة مقالة اليوم؛ لذلك فضلّت أنْ تكون له مقالة أخرى، تُمكّن القارئَ من المعرفة وتمنحه القدرة على تشكيل رأيه وصنع موقفه من الصراع.

أورينت نت: ٢٠٢٢/٥/٣

٢- الحقوق التاريخية للكرد في سورية بين الحقيقي والوهمي

بيّنتُ في المقالة السابقة تاريخ المسألة الكردية، التي نشأت بين الحربين العالميتين، نتيجة لصعود موجة القوميات التي اجتاحت أوروبا نهاية القرن التاسع عشر وتسبب صعودها بكوارث الحربين العالميتين.

"كان معظم الأكراد الحضريين يتحدثون العربية وكانوا منفصلين اجتماعياً عن الجماعات الصحراوية والريفية في شمال شرق سورية. آنذاك لم تك هناك أية حركة كردية قومية منظمة، وليس لدينا أية سجلات تشير إلى التماسات مقدمة من الأكراد الذين ربما اعترضوا على تسمية سوريا باسم مملكة عربية، كما لا يوجد أي دليل على مناقشة حقوقهم في المؤتمر".

أفتتح بهذه الفقرة الموثقة في عدد من المصادر التاريخية الغربية والعربية، عن المؤتمر العربي السوري ١٩٢٠ (١) ، والتي تؤكد أنه لم يك للكرد أي مطالب قومية أو سياسية خارج المطالب السياسية للشعب السوري عامة.

بعدما تخلى الفرنسيون عن سورية الشمالية شنّ أتاتورك، بمساعدة عشائر كردية جنوب شرق تركيا، حرب تهجير على السريان والأرمن،

وقد وثقت العديد من المصادر التاريخية هجرتهم إلى مناطق الحسكة التي تحت الاحتلال الفرنسي المباشر. أقتطف من كتاب (السريان في القامشلي/ لمؤلفه أوكين بولس منوفر برصوم) هذا المقطع:

"في سورية الحبيبة ذات الأمجاد الخالدة تجمع السّريان بعد الحرب الكونية الأولى إثر المذابح الجماعية المروعة التي ارتكبها بحقهم الأتراك والأكراد بوحشية لا مثيل لها، فتح لهم إخوانهم العرب باب الهجرة على مصراعيه، ومسحوا آثار الدموع عن مآقيهم بحُنوٍ ونبُل، والتاريخ سيخلّد لهم هذه المآثرة مدى الزمن" (ص٩ و١٠)، (٢) وفي (ص٢٢) يؤكد:

"إثر المذابح المروعة التي ارتكبها الأتراك الطغاة والأكراد بحق شعبنا السّرياني النبيل وشعوب أخرى محسوبة على الأقليات في تركيا، (١٩٢٥) وبدأت الهجرة الجماعية إلى سورية الحبيبة حيث استوطن معظم السريان في الجزيرة السورية المتاخمة للحدود التركية، وهناك أنشؤوا المدن ومنها القامشلي.." (٣)

ويُقصد بالأقليات الأخرى الأرمن الذي لاحقهم الأتراك والأكراد حتى حدود سورية. فساعدهم السُّنة العرب السوريون، آووهم ومنعوا عنهم، واقتطع لهم محافظ حلب محمد نبيه بيك مارتيني (تعود أصوله لآل مارتيني في مدينة إدلب)، منطقة نقض كمال

أتاتورك عهوده للأكراد، فثاروا عليه بقيادة سعيد بيران ١٩٢٥، قمعهم أتاتورك بقوة، وهجّر أكثر من ٣٠ ألفاً منهم إلى سورية.

حينما زار المنطقة، ١٩٣١، وزير المعارف السورية في حكومة تاج الدين الحسيني، ومؤسس مجمّع اللغة العربية محمد كرد علي، كردي الأصل، كتب إلى رئيس الوزراء رسالة مطولة، تنبأ بمطالب اللاجئين الكرد إلى سورية اليوم:

"... تعلمون أيدّكُمْ الله، أن معظم من هاجروا إلى تلك الأرجاء هم من العناصر الكردية والسريانية والأرمنية والعربية واليهودية، وجمهرة المهاجرين في الحقيقة هم من الأكراد نزلوا في الحدود، وإني أرى أن يسكنوا بعد الآن في أماكن بعيدة عن حدود كردستان لئلا تحدث من وجودهم في المستقبل القريب أو البعيد مشاكل سياسية تؤدي إلى اقتطاع الجزيرة أو معظمها من جسم الدولة السورية، لأن الأكراد إذا عجزوا اليوم عن تأليف دولتهم فالأيام كفيلة بأن تُنيلهم مطالبهم إذا ظلوا على التناغي بحقهم والإشادة بقوميتهم، ومثل هذا يقال في أتراك لواء الاسكندرونة فإن حشدَ جمهرتهم فيها قد يؤدي إلى مشاكل في الآجل لا يرتاح إليها السوريون، فالأَولى إعطاء من يريد من الترك والأكراد أرضاً من أملاك الدولة في أرجاء حمص وحلب... ومهاجرة الكرد والأرمن يجب في كل حال أن يُمزجوا

بالعرب في القرى الواقعة في أواسط البلاد لا على حدودها، اتقاء لكل عادية نظراً ونحن الآن في أول السلم نستطيع التفكير والتقدير"!عريضة إلى الحاكم الفرنسي "٠ (٤)

بدأت أولى المطالب الانفصالية لبعض الكرد في سورية في ثلاثينيات القرن الماضي، حين قدم بعض المهجرين الكرد والسريان إلى مناطق شرق سورية عريضة إلى الحاكم الفرنسي يطالبون فيها بدولة سابعة أو حكم ذاتي تأسياً بالتقسيم الفرنسي لسورية!؟ رفض الفرنسيون وحذروهم من العصيان.

لم تعِش سورية حالة ديمقراطية تنشئ عقداً اجتماعياً يمنح مواطنة وحقوقاً متساوية لعموم السوريين. صحيح أن حكومات ما بعد الاستقلال قدمت بعض الممارسات الديمقراطية وحاولت إنتاج عقلانية حوكمية لكن بدء العمل بالعقلانية، كلف سورية حرمانها من الأنظمة المدنية ومن فرصة تأسيس شرعيتها، حينما تدخل "الجيش السوري" الذي تأسس على أنقاض جيش الشرق الفرنسي الأقلوي الطائفي الأيديولوجي المتحزب وغير الوطني، بانقلابات متكررة انتهت بانقلاب ١٩٦٣، الذي أسس لانقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦ فتعززت السيطرة الطائفية العسكرية والأمنية تحت ستار الحزب الواحد، والتي أسست للسيطرة الطائفية الكاملة على المجتمع

والدولة السورية بانقلاب حافظ الأسد ١٩٧٠، الذي عطّل حركة المجتمع وقسّمه إلى طبقات وفئات متعادية تجترع أحقادها قديمها وحديثها، الحقيقي منها والمزيف.

هذا الدور المتصاعد للجيش الطائفي أدى الى استفحال الانقسام الطائفي والعرقي والاجتماعي والمعيشي وشجع التعبئة بين الفئات المستبعدة من الشعب السوري، والأكراد إحدى تلك الفئات، وجعل حكم أسد الأب والولد من هذه السياسة ورقة لتقسيم المجتمع السوري وإرهاب بعضه بعضاً، فاستفحلت المظلومية الكردية وانفجرت عام ٢٠٠٤ لكن جيش أسد قمعها بشدة!

الثورة السورية وتشكيل قوات سوريا الديمقراطية

بعد اندلاع الثورة عمت التظاهرات المناطق الكردية أيضاً. ارتفع صوت قيادات الأحزاب الكردية التي وجدت في الثورة متنفساً لها وحصاناً تركبه، بعضها للخلاص من ظلم البعث والنظام الأسدي، وهذه ضعفت وتلاشت باغتيال قادتها وأهمّهم مشعل تمو، وبعضها كحزب العمال استغلت الثورة لتحقيق الانفصال أو الحكم الذاتي. نال مظاهرات الكرد قليل مما نالته مظاهرات السُنة العرب من عسف مليشيا أسد، إذ كان أسد يخطط لاستخدام المسألة الكردية في الضغط على السُنة العرب وتخويفهم من تمزيق وحدة سورية بانفصال

الكرد إن استمرت الثورة. كما بدأ الإعلام يتحدث عن عمليات عسكرية يقوم بها حزب العمال بدعم من ميليشيا أسد في الأراضي التركي.

الولايات المتحدة ساهمت بتجميع الكرد وتأسيس قسد رسمياً، ٢٠١٥، بحجة الدفاع عن المنطقة ضد تنظيم داعش. كان لا يمكن للأمريكان دعم وحدات حماية الشعب الكردية، والتي هي أساس قسد لأنها جزء من حزب العمال المصنف أمريكياً كمنظمة إرهابية، لذلك لجأت إلى خلط وحدات حماية الشعب بميليشيا عربية صغيرة وأخرى آشورية لا قيمة ولا رأي ولا قوة لها للتمويه على المساعدات الكاملة التي تقدمها لوحدات حماية الشعب، وذلك لتقوم بحماية آبار النفط السورية التي استولى الأمريكي عليها وجعل من قسد حراساً عليها. استغلت قوات قسد المساعدات الأمريكية، حيث وردت تقارير إعلامية وعن منظمات حقوق الإنسان أنها هدمت مئات القرى العربية وجعلت أهلها بين قتلى ومهجرين وأسرى في معسكرات ذات ظروف مميتة، مدعية أنهم دواعش! كتب مظلوم عبدي ٢٠١٩ "نحرس أكثر من ١٢٠٠٠ سجين إرهابي تابع لتنظيم الدولة الإسلامية ونتحمل عبء زوجاتهم وأطفالهم المتطرفين، كما نحمي هذا

الجزء من سوريا من الميليشيات الإيرانية"، تخيلوا يتهم حتى أطفالهم بأنهم متطرفون!

في دراسة كان قد أعدّها مركز أورينت فيجن للدراسات بعنوان (خيارات أكراد سوريا وسط العاصفة الإقليمية) أشارت إلى أن الأحزاب الكردية، وليس فقط حزب العمال الكردستاني باتت تنافس في مطامعها على الأراضي العربية، فتمدد خرائطها وتغيّرها حسب المزاج والحالة:

"تروّج بعض الأحزاب الكردية الواقعة في فلك تأثير مسعود برزاني، خريطة كردية سورية مزعومة، تشير إلى كردستان سورية وكأنها منطقة مترابطة، تلتهم مناطق عربية صرفة تاريخياً، مثل اعزاز ومنبج ومارع ومناطق في ريف تل أبيض حتى جنوب الحسكة. الواقع أن هذه الخارطة تداولتها وسائل إعلام كردية وعربية وأجنبية، حيث يضم اللون المتمايز لـ"كردستان سوريا" عن لون الخارطة السورية مناطق واسعة هي في الحقيقة ضعف المناطق الكردية إن لم يكن أكثر، وهذا حوّل المتخيل القومي الكردي إلى فانتازيا لها سدنتها ومريدوها، وخصوصاً عند ذلك الجيل الذي لم يزر بعد أي منطقة كردية خارج بلدته أو مدينته ليرى واقعه الجغرافي الحقيقي". (٥)

ومثل التلاعب بالخرائط، التلاعب بنسبة وجود الأكراد في سورية. يورد الكاتب مهند الكاطع:

"الأحزاب والشخصيات القومية الكردية قد بالغت بأعداد الأكراد في سوريا، وذلك خلافاً لجميع التقديرات السابقة، فمثلاً الدكتور عبد الباسط سيدا الذي ترأس المجلس الوطني السوري سابقاً، كان قد اعترض خلال لقاء متلفز على نسبة تمثيل الأكراد في المجلس الوطني السوري، حيث ذكر بأن الأكراد يشكلون ١٥٪ من سكان سوريا وأن عددهم فيها يصل إلى ٤ مليون نسمة. وهذا العدد يزيد بمليون نسمة عن العدد الذي ذكره سيدا، نفسه، في كتابه المسألة الكردية في سوريا، حيث أكد فيه أن عدد الأكراد في سوريا وفقاً لمصادر الحركة الكردية يصل إلى ثلاثة ملايين. كما أشار صالح مسلم مسؤول قوات الحماية الكردية -حزب العمال الكردستاني السوري- في أكثر من تصريح إلى أن الأكراد يشكلون ١٥٪ من سكان سوريا، وأيضاً يذكر السياسي الكردي السوري صلاح بدر الدين في كتابه "غرب كردستان...الربيع الدامي" أن نسبة الأكراد ١٥٪ من سكان سوريا. أما عبد الحميد درويش أعرق سياسي كردي سوري ورئيس أقدم حزب كردي (الحزب الديمقراطي التقدمي في سوريا) فقد ألقى في تشرين الأول سنة ٢٠٠٠م محاضرة بعنوان "القضية الكردية

في سوريا" أكد فيها بأن نسبة الأكراد في سوريا ١١٪. لكنه عاد في آب ٢٠١٥ م ونشر معلومات مناقضة في مقال له قال فيه: "إن الأكراد يشكلون نسبة ١٨٪ من سكان سوريا!". (٦)

***

في ظل غياب إحصاء حقيقي للسوريين عموماً، والفوضى الأمريكية الخلاقة، تتعامل الأقليات مع الأرقام حسب أغراضها السياسية وليس حسب حقائقها. يعتبر العلويون نسبتهم في سورية ١٥٪ والأكراد ١٨٪ والمسيحيون ١٢٪، والهدف جعل العرب السنة أقلية كباقي الأقليات!؟ المشكلة أن البعض لا يقارن الأرقام، والقيادات الكردية تستخدم الأرقام بعشوائية غبية، فمثلاً القائد العسكري لميليشيا قسد مظلوم عبدي، صرح في مقالة له ٢٠١٩، محاولاً استجداء الغرب وخصوصاً الأمريكي أنه في معاركه مع داعش: "فقدنا ١١ ألف جندي، من أفضل مقاتلينا وقادتنا، لإنقاذ شعبنا من هذا الخطر الجسيم. لطالما أوعزت لقواتنا بأن الأمريكيين والقوات المتحالفة الأخرى هم شركاؤنا، ولذا يجب أن نتأكد دائماً من عدم تعرضهم للأذى"! (لاحظوا الطرح الخبيث)! فإذا كان العالم قد أكد أن قوات داعش تتراوح بين ٣٥-٣٧ ألف مقاتل، وعبدي نفسه ادعى أن لديه ١٢ ألف أسير منهم يحتجزهم في مخيم الهول،

ويطلب معونة الغرب لإيوائهم وإطعامهم، ولنفترض أن عبدي قتل وأسر كل الدواعش، يكون ٣٧-١٢=٢٥ ألفاً، يعني أن كل اثنين من الدواعش قتلوا كردياً واحداً من قوات قسد! أين قوات التحالف ومئات طلعات الطيران هل كانت للفرجة على عبدي؟! أترك الحكم للقارئ!

ربط حزب العمال الكردستاني وبُناته - وكذلك مسعود برزاني الذي دعم مشروع فصل الأكراد عن سورية - بالمشروع الأمريكي في المنطقة، ومنذ ذلك الوقت لم يعد لديهم خيار آخر سوى الثقة بالولايات المتحدة الأمريكية. مع أن عبدي المتهم بمجازر عرقية يُستقبل في الخارجية الأمريكية، إلا أنه حينما أعلن ترامب الانسحاب من سورية، اجتاحت ميليشيا "الجيش الوطني" المدعومة من تركية، مناطق عفرين بسرعة مدهشة. اضطرت عبدي وغيره من الميليشيات الكردية للهرب إلى عمق الصحراء، وهذا يؤكد على هشاشة الدعم الأمريكي لهذه الميليشيات وأن الغرض من تشكيلها زرع الفرقة والفوضى وحراسة آبار النفط.

عبدي فتح قنوات تعامل مع روسيا وميليشيات أسد الطائفية. لاحظ المراقبون حركة تثير السخرية فقد كانت مركباته العسكرية في دوريتها اليومية ترفع ٤ أعلام، أمريكية، روسية، أسدية، قسدية،

حسب المنطقة التي تمشي فيها، وفي محاولة لابتزاز الأمريكان (!؟) كتب عبدي:

"قد نضطر إلى إعادة النظر في تحالفاتنا إذا قدم الروس والنظام السوري مقترحات من شأنها إنقاذ حياة ملايين الأشخاص الذين يعيشون تحت حمايتنا... نحن نعلم أنه سيتعين علينا تقديم تنازلات مؤلمة مع موسكو وبشار الأسد إذا ذهبنا إلى طريق العمل معهم".

صحيح أن القيادات الكردية تحاول التلاعب على الروس والأمريكان والنظام السوري الذي يعرفهم جيداً فهو من ربّاهم ودرّبهم في معسكرات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالبقاع اللبناني، لكن لا خيار أمام الأكراد سوى أن يثقوا دائماً بالولايات المتحدة وأن يتحملوا العواقب الحتمية!

***

لا أكتب في المسألة الكردية السورية من أجل إعادة صياغة الماضي. إنما أكتب سعياً نحو فهم الأزمة لنساهم في حلها بعدالة وحسب شرعة حقوق الإنسان. فالعرب والكرد والسريان وغيرهم من السوريين، قوميات وطوائف، شاؤوا أم أبوا سجناء قدر الجغرافية. مهما تصارعوا وسفكوا دماء بعضهم بعضاً بسبب مطامع شخصية لقيادات مجرمة ستبقى الجغرافية تحكم عليهم بأن يجلسوا إلى طاولة

الحوار طاولة تكون فيها المواطنة الكاملة حقاً لكل سوري، وستكون تلك الدماء بلا طائل محض إجرام.

كما لا يمكن نكران المظلومة الكردية في الشرق الأوسط، وحقوق الكرد التاريخية والقومية وحق تقرير المصير في الدول التي تتوزعهم: العراق وتركيا وايران ونقاط صغيرة في جورجيا وأرمينيا (قبل الحرب الأخيرة) وأذربيجان. لكن ليس للأكراد حقوق تاريخية في سورية بالمطلق، وإنما لديهم حقوق مواطنة كاملة كما السوريين في حال قيام حكومة ديمقراطية أو رشيدة.

لا يعني هجرتهم إلى سورية على مدى قرن، تحت أي سبب، أن يعيشوا لاجئين أو محرومين من الجنسية أو مجردين من حقوقهم الإنسانية. وهذه النقطة سنتعمق فيها أكثر في المقالة الأخيرة في هذا الموضوع.

هوامش:

(١) ورد في فصل عن تأسيس حقوق الأقليات في سورية، ضمن كتاب (كيف سرق الغرب الديمقراطية من العرب)، عن قصة المؤتمر العربي السوري ١٩٢٠.

(٢) بولس منوفر برصوم، أوكين: السريان في القامشلي بين الماضي المجيد والحاضر التليد، ص(٩-١٠) دون دار نشر: ١٩٨٢

(٣) المرجع السابق: ص (٢٢).

(٤) كرد علي، محمد: (مذكرات محمد كرد علي)، الجزء الثاني من (المذكرات) ص٤٤٠-٤٤٢، ط٣، مكتبة النوري، دمشق: ١٩٨٣

(٥) راجع: (خيارت أكراد سوريا وسط العاصفة الإقليمية)، أورينت نت: ٢٠١٥/١٠/٣١

(٦) الكاطع، مهند: (أكراد سورية.. التاريخ، الديموغرافيا، السياسة) ص (٢٣٩)، ط١، دار القناديل: بغداد ٢٠٢٠

(٧) تيجيل، جوردي: (أكراد سوريا: التاريخ والسياسة والمجتمع)، ترجمة: محمد شمدين ص (٩ -١١)؛ (النهضة الأخرى: البدرخانيون، والمِلّيون، والجذور القَبليّة للقومية الكردية في سوريا) ستيفان وينتر ٢٥ :٢٠٠٦،٣ ،ص ٤٦١-٠٤.

أورينت نت: ٢٠٢١/٥/١٠

٣- ما الذي سيقدمه الحلّ الكردي الخاص خارج الحل الوطني السوري؟

بيّنا في المقالين السابقين بالوثائق تاريخ الأكراد والمسألة الكردية الحديثة الطرح. وكيف تنظر الأحزاب الكردية إلى مستقبل الأوطان تأسيساً على سرديات قومية وهمية أو واقعية غارقة في القدم لتأسيس نمط من الوعي الخيالي بدواعي أيديولوجية راهنة، والذي من شأنه أن يخلق الصراعات الزائفة المدمرة للأوطان.

حاول المتعصبون الكرد الدخول في مجاهل التاريخ لاستجدائه أصولاً خاصة لهم، كادّعاء الأصول الميدية، وهي جماعة أمية وُجدت في مناطق إيران لم تؤسس حضارة تُذكر، في تخلٍ غبي عن حضارات ما بين النهرين، التي زهت على الأمم ولديها شواهد حضارتها وثائق وكتابات وأوابد! والتي ساهم أجداد الكرد أنفسهم كسكان منخرطين في المنطقة في بنائها من الآشورية إلى الإسلامية (١).

ونعتقد "أن تمسك التيارات القومية الكردية المعاصرة بهذه الأسطورة هي حالة تلازم الأقوام الصغيرة في صعودها القومي المتأخر. لأنها

بحاجة إلى عروة (تاريخية حضارية)"! كما كتب ميثم الجنابي في تعليقه على مقال سليم مطر! بكل الأحوال إن مصائر الشعوب والأمم والأقوام الراهنة لا تتأسس على رُقم مكتوبة في الألف الثاني قبل الميلاد.

سعى الغرب الإمبريالي إلى تقسيم المنطقة إلى أقليات، طوائف وقوميات وقبائل ترفع أعلاماً ملونة، متخاصمة متناحرة حتى الفناء في سبيل بقاء سيطرتها على مصادر الطاقة والمواقع الاستراتيجية والممرات المائية والبرية. الحقيقة أن هذا الغرب نفسه السبب في مظلومية الكرد، فهو الذي استبدل معاهدة سيفر بمعاهدة لوزان الثانية التي قضت على حقوق الكرد في إقامة دولة قومية ضمن حدود تواجدهم في العراق وإيران وتركيا، والعرب آنذاك وحتى اليوم لا حول لهم ولا وقوة، ولم يملكوا مصيرهم لليوم، وخسروا أثناء خسارة الأكراد أراضي سورية منحها الغرب لتركيا والعراق وأعطت السوريين أراضي عراقية بموجب اتفاقية سايكس بيكو، وما كان بإمكانهم ردع ذلك! لكن الأحزاب الكردية بدل أن توجه غضب شعوبها تجاه الغرب الذي ظلمهم، وجدوا في محنة العرب وضعفهم هدفا لهم ووجهوا حقدهم نحو العرب، وإمعانا بالإساءة للعرب سعوا إلى تقزيم قومية

وتاريخ وحضارة العرب وتعزيز القومية الكردية على حساب القومية العربية، كما سنبين لاحقاً.

من قواعد القومية أن تتمتع المجموعة بمقومات مشتركة، أهمها اللغة والتاريخ ووحدة المصير.. قد يشترك الأكراد بعدد من المقومات القومية، لكنْ المتطرفون الأكراد خلال المئة سنة الأخيرة خلقوا روايات عن ماضيهم مليئة بأساطير وسرديات خالية من الوثيقة التاريخية، ممزوجة بمرارة مظلومية قائمة على فكرة أن الجماعات العرقية أو القومية التي تفتقر إلى دولتها الخاصة تكون عرضة للغزو والاستيعاب والزوال، وأن الشعوب المحيطة بالكرد تسعى لتذويبهم، لذلك سعى هؤلاء لتعزيز قومية كردية جامعة وخلق سكان موالين للفكرة ومستعدين للتضحية لأجلها، ضدّ عدو وهمي استعدوه وحملوا السلاح ضده بدل أن يحملوه معه ويوجهوه ضد القوى الأجنبية التي تدمر المنطقة وتجعل من التنمية فيها حلما بعيدا.

من هذا المنطق الأعوج سعت الأحزاب الكردية للدخول في عالم السياسات الدولية والتنافس على الجغرافية والمكانة والتنافس على التعامل مع القوى الدولية اللاعبة في المنطقة وممالأتها، ساعين لخلق كيانات يظنون أنها ستتجمع في كيان واحد، خلال زمن يطول أو يقصر، محشوة بآمال لن يسمح بها الغرب طالما يملك أسباب القوة.

ألهمَ الوعي الكردي القومي الناشئ القوى الكردية اللاعبة في المنطقة بخلق سلسلة من خرائط متناقضة تخيل كيف ستكون حدود الدولة المزعومة، بعض تلك الخرائط شريرة للغاية تتلاعب على خطوط الصدع العرقية، وتعتمد في تشكيلها على قوة الأمر الواقع وليس على الأساس العرقي حتى! فحين احتلت قوات البشمركة المناطق العراقية العربية كالموصل وما حولها، بالتعاون مع التحالف الغربي، مؤخراً، هجّروا أهلها، واعتبروا امتلاكها حقاً مكتسباً بموجب تحريرها من داعش (كذبتهم وكذبة الغرب الكبرى)، ومثل ذلك حدث في سورية حين احتلت قسد الرقة ودير الزور والحسكة ومنبج والباب وغيرها وجميعها مناطق عربية، وادّعت ملكيتها بقوة الأمر الواقع!

تمتلك حكومة برزاني في إقليم كردستان العراق نفوذاً كبيراً على الأحزاب الكردية السورية التي لمعظمها مكاتب في أربيل، ويتدخل برزاني في شؤونها الداخلية ويوجهها أنّا يريد، وله اليد الطولى في تعيين قياداتها فهو من عيّن عبد الحكيم بشار رئيساً للمجلس الوطني الكردي والذي ردّ له جميله بالتبعية المطلقة، وقال فيه: "غالبية الشعب الكردي في سوريا يرون بارزاني رمزاً وطنيّاً"، كما سعى برزاني إلى توحيد أكراد العراق وتركيا وإيران لدعم معركة الأكراد في سوريا، وقلص الخلاف بين أربيل وقنديل وخلق تقارباً بين حزبه الديمقراطي

الكردستاني والاتحاد الديمقراطي بي ي دي، ثم قدّم لهم خدمات تدريب المقاتلين الأكراد في إقليم كردستان العراق على يد "الزِرِفاني" القوة الخاصة بحكومة الإقليم، وشحنهم لقتال السوريين من النظام والمعارضة.

أما تركيا التي تغضّ الطرف عن أفعال البرزاني لكن لا تعترف بأن الأكراد السوريين الذين يستلهمون حزب العمال الكردستاني، جزء من المعارضة السورية الشرعية فالعديد من قادتهم - مثل آزاد سيمي (سيا كوباني)، وأحمد صقر (فاضل بوتان)، وحسين كهرمان (سليم ديريك) وفرهاد عبدي شاهين (شاهين سيلو)، جميعهم من قدامى المحاربين في حزب العمال الكردستاني، على قائمة المطلوبين في تركيا بجرائم إرهاب؛ (سيلو) ترصد تركيا مكافأة على رأسه ١,١ مليون دولار، وأثارت صورة التقطت له مع المبعوث الأمريكي بريت ماكغورك في سورية، أزمة دبلوماسية بين البلدين.
كما إن أوغلو، وزير الخارجية التركي السابق، أصدر بياناً أكد فيه أن: "أنقرة تعارض قيام حكم ذاتي كردي في شمال شرق سورية، وستقبله فقط إن جاء ضمن دستور سوري جديد يوافق عليه السوريون".
لذلك دعمت تركيا قوة سورية، "ميليشيا الجيش الوطني"، طردت المقاتلين الأكراد من منطقة عفرين في ساعات إلى مجاهل الصحراء

حين حاولت الميليشيات الكردية ربطه بالجزيرة السورية، مع أن مظلوم عبدي أكد أن لديه ٧٠ ألف مقاتل: "أعمل كقائد عام لقوات سوريا الديمقراطية التي تضم ٧٠ ألف (جندي) أصبحوا قوة قتالية محترفة ومنضبطة للغاية، ويعرفنا الجنود والضباط الأمريكيون جيداً ويمدحون فعاليتنا ومهاراتنا"(!؟) كما إن مراد قريلان، زعيم حزب العمال الكردستاني قال محذراً: "ستتحول كردستان بأكملها إلى منطقة حرب إن تدخلت تركيا بنا" ولم يحدث شيء من هذا، بل استجدى مظلوم عبدي وآلدار خليل الأمريكان لحمايتهم كما وعدوهم، لكن ترامب صرح: "لم نعط أي ضمانات للأكراد بقيام حكم ذاتي في سورية "ووصفهم: "بالمرتزقة وأسوأ من داعش"، كما صرح مسؤول أمريكي آخر في مجلس الشيوخ: "لم نعط ضمانات عسكرية للأكراد ضد تركيا لكننا أعطيناهم ضمانات عسكرية ضد قوات النظام السوري والمرتزقة الروس".

وهذا ما دعا القوات الكردية للسعي للتشبث ببقاء القوات الأمريكية في شرق سورية، فيقول عبدي مستجدياً: "لن تهاجمنا تركيا أبداً ما دامت حكومة الولايات المتحدة وفيّة لكلمتها معنا"، وحاولت إلهام أحمد، المسؤولة فيما يسمى الإدارة الذاتية لشرق سورية، استخدام

القضايا التي تهمّ الكرد وتهم أيضاً الجمهور الغربي لمحاولة إقناع الأمريكيين بالبقاء.

خاتمة:

الموقف المرتبط بفكرة الحق من المسألة الكردية يقوم على حق الكرد بدولة كردية مستقلة في كردستان التاريخية في العراق وإيران وتركيا، (مع أن بعض الباحثين يؤكدون أن جبال طوروس وزاغروس تفصل أكراد العراق عن أكراد تركيا وأكراد إيران، ولم تقم بينهم علاقات عبر التاريخ وإن اشتركوا في الأصول)، مع ذلك إن هذا الحق رهن بتغيّر شروط الواقع الموضوعي لعناصر سلبه، فوجود الكرد موزعين على ثلاث دول أمر لن يسمح لهم بتحقيق هذا الحق حالياً. وحتى يأتي هذا اليوم يجب أن يتمتع الكرد بجميع حقوقهم الوطنية والثقافية وحقوق المواطنة في أماكن وجودهم. كما إن فكرة حق تقرير المصير، التي ينادي بها بعض الكرد في سورية بخبث، لا تتوافق مع المبدأ الأممي لحق الشعوب في تقرير مصيرها، حسب وصف الفيلسوفة روزا لكسمبورغ بأن وجود مجموعة مهاجرة أو (أقلية مندمجة مع أطياف المجتمع أو موزعة بين أطياف المجتمع جغرافياً، لا يمكن لها أن تطرح فكرة حق تقرير المصير).

كما إن فكرة الحق التاريخي للأقوام التي عاشت في منطقة ما، كالمنطقة العربية، تتناسى التمازج العرقي الذي شهدته المنطقة، حتى أخذ شكله الراهن بأكثرية عربية عمرها أكثر من ألف وخمسمئة سنة، وفي بعض المناطق يتجاوز بنحو ألف سنة أخرى.

القضية السورية خلال العقد الأخير ليست المسألة الكردية. هي ثورة السوريين بكل أطيافهم ضد كل أشكال الاضطهاد. وكنت قد ساندت مطالب المشاركين الأكراد في مؤتمر أنطاليا الذي عقدته في ٢٠١١/٥/٣٠ وأكدت أن من حقهم أن تكون لهم حقوق ثقافية ولغوية وأن لا تفرض عليهم اللغة العربية وأن تكون لهم إدارة ذاتية في المناطق ذات الأغلبية الكردية، تديرها شخصيات كردية وعربية ضمن الدولة السورية وعاصمتها دمشق. على أن يكون ذلك جزءاً من الحل الوطني السوري الذي سيفضي إلى عقد وطني في دولة سورية قائمة على العقد الاجتماعي، دولة ديمقراطية برلمانية. وتأكيدا لهذا الحق قررت مجموعة أورينت الإعلامية التي أمتلكها أن يكون جزء من بثها باللغة الكردية، رغم إشارة المختصين إلى التخوف من فقد الجمهور العربي عند تنقل البث بين لغتين! لكن للأسف المتعصبون الكرد تنكروا لهذا التوافق وذهبوا ليكونوا مرتزقة للغرب على رقاب

سكان المنطقة كرداً وعرباً، واحتلوا مناطق عربية وقاموا بمجازر جماعية وتهجيراً جماعياً.

تميّز المتعصبون الكرد بوقاحة في النقاش تترافق مع قلة الأدب وباستخدام الإرهاب اللفظي بالشتائم البذيئة لمن يختلف معهم بالرأي ولو بنسبة ١٪! الشتيمة هي إلغاء للآخر ناتجة عن التعصب الذي هو عجز في التفكير العقلي، بالتالي الشتيمة دلالة على خواء المحاور ورعاعيته ولا تجدي نفعاً. مثلما استبدل هؤلاء المتعصبون الحوار مع محاوريهم بالفكرة والوثيقة والمعرفة إلى الشتائم البذيئة، كذلك استخدموا سوق الاتهامات بالدعشنة لإرهاب محاوريهم، ووصل بهم التعصب لاستخدام العنف الجسدي، فقد حدثت عدة اعتداءات غامضة على بعض المختلفين معهم في الرأي ممن يعيشون في أوروبا!

لا تنشأ الأمم بالإرهاب والظلم والغدر والخديعة والإساءة والسباب واحتلال أراضي الغير بقوة السلاح والاستهانة بدماء الآخرين والعمالة للأجنبي في تطور ظاهر من حالة الآغا الفردية مستعبِد الفلاحين ومحصل ضرائب الباب العالي، إلى الجماعات السياسية المطية للقوى الكبرى على الشعوب المقهورة! إنما تنشأ الأمم بالعدل

والعلم والتنمية واستقطاب الأمم المجاورة، ربما تتوحش الإمبراطوريات في مراحلها المتأخرة لكنها لا تبدأ متوحشة!؟ والكرد إن كانوا يفكرون فعلاً بأن يُنشئوا أمّة فإن سلوك أحزابهم الشائن وتغاضيهم عن هذا السلوك سيقضي على مشروعهم قبل أن يبدأ حتى!؟ يجب أن يفهم الكرد أن الجغرافية هي الحكم الأزلي بينهم وبين جوارهم وما أُخذ اليوم احتلالاً بالقوة سيأتي غداً بالقوة الأشد، ولا يولّد الحقد إلا حقداً أشدّ منه.

ينادي المتعصبون العلويون والأكراد في سوريا بحل خارج الحل الوطني السوري الكلي، ساعين لخلق حلول خاصة بكل منهم! إن ذلك مجرد وَهم يُبقي شلال الدماء والفساد قائمين. الواقع الموضوعي السوري بالنسبة للعلويين هم عرب سوريون وجزء من الأمّة العربية، وبالنسبة للكرد هم أقلية عرقية لكنهم ضمن الأكثرية السُّنية، موزعة على بعض مناطق شمال الوطن السوري، واجهت سلباً لحقوقها الثقافية والسياسية من قبل سلطات غاشمة، اضطهدتها كما اضطهدت الأكثرية السُنية العربية، كما اضطهدت عموم السوريين، وكفاحها يجب أن يكون ضمن الكفاح الوطني السوري الذي دشنته الثورة عام ٢٠١١، ولأنها كذلك فإنه من الغدر أن تتصور فئة بأنها قادرة على إنجاز حل جزئي لها بفعل دعم خارجي مؤسس على أوهام قومية وعماء أيديولوجي. كما إن فكرة الأقلية والأكثرية خارج إطار السياسة

فكرة حمقاء مدمرة ستكون مدخلاً للقوى الخارجية التي تخفي أطماعها وراء الدفاع عن الأقليات الطائفية والقومية.

يقول الفيلسوف أحمد برقاوي: " **في الوطن العربي مفهوما الأكثرية والأقلية أشد تعقيداً. فهناك أكثرية سنية وأقليات دينية وطائفية. لكن الأقليات الدينية أو الطائفية تنتمي في أغلبها إلى الأكثرية العربية إذاً هي أقليات من جهة وأكثرية من جهة أخرى. فالمسيحي ينتمي إلى الأكثرية العربية مثلاً وإلى أقلية دينية. وهناك أقليات قومية لكنها تنتمي إلى الأكثرية الدينية. فالأكراد والأمازيغ مثلاً أقليات قومية لكنها منتمية إلى الأكثرية الإسلامية". (٢)**

إن خطاب العنصريين الأكراد ضد العرب يُلغي العيش المشترك قديمه وحديثه وسينجب صراعات زائفة.

إن هذه الأفعال تأتي ضمن سياسة حلف الأقليات المدعوم دولياً لاستهداف السُّنة العرب وتحويل الأقليات إلى قنبلة انتحارية تنفجر بنفسها وبمن حولها وتدمر الوطن على رؤوس الجميع. وللأسف لا تزال مؤسسات حلف الأقليات تدعي أن السُّنة العرب هم المعتدون، لا بل يقتلون السُّنة العرب ويهجرونهم من مدنهم ويخربوها ويطالبون العالم بحمايتهم من الأكثرية ووضعهم ضمن برنامج حماية الأقليات (!؟)

لو كان العرب أمّة إلغاء للأمم الأخرى المختفلة لما بقيت الأقليات العرقية والدينية تسكن المنطقة إلى اليوم! انظروا ماذا فعل الأوربيون باليهود وقبلهم بالعرب/ المورو في إسبانيا والأوروبي الأبيض بالهنود الحمر في أمريكا والبيض بسكان أستراليا الأصليين! يقول الدكتور برقاوي:

"إن ظاهرة ذم العرب، سواء جاءت من أقليات قومية، أو من أحزاب طائفية، أو من جماعات حاكمة ليس سوى تعصب مرذول، وغباء عقلي وعاطفي". (٣)

على العرب السُّنة أن يدركوا أنهم المستهدَفون من هذه الصراعات الزائفة التي يقودها مجرمون غشي عليهم العمى الأيديولوجي الديني والقومي.

هذا الضغط، كما أكد توينبي: "يجب أن يخلق التحدي والاستجابة ويؤدي إلى استعادة روح القتال"، واستعادة وحدة توازن القوة سيمنع المجرمين من تدمير أوطاننا. كما على عقلاء الكرد فهم حقيقة الحالة بأن الأحزاب الكردية والقيادات الكردية تسوقهم نحو المجهول وتحولهم إلى مطية لأهدافهم، فكلما اجتمعنا بهم وفاتحناهم بجرائم البي كي كي ومشتقاته وطموحات برزاني غير المشروعة في تدمير مناطق العرب المتاخمة لمناطق سكن كرد العراق، أجابونا بعين عوراء: **"لهم أخطاؤهم"!**

إن المجازر الجماعية والتهجير ليست خطأ وإنما هي استراتيجية ستكون عواقبها وخيمة.

الهوامش:

(١) مطر، سليم: (الميديون.. وإكذوبة الحضارة الايرانية الكردية؟!) صحيفة (المثقف) الإلكترونية: ٢٠١٩/٣/٣

(٢) برقاوي، أحمد: (حول مصطلحي الأقلية والأكثرية) - موقع (سورية الأمل) ٢٠٢١/٢/٢١

(٣) برقاوي، أحمد: (دفاعاً عن العرب) - صحيفة (جسر) الإلكترونية: ٢٠٢٠/٦/٢٨

أورينت نت: ٢٠٢١/٥/١٧

إنه ليس حكماً عسكرياً فقط..

ولا حكماً طائفياً فقط.. إنه اللعنتان معاً!

اجتاحت كثيراً من دول العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية في أعقاب حركات الاستقلال عن الاستعمار التقليدي الانقلابات العسكرية، وقبلتها المجتمعات آنذاك لأنها اعتبرت أن العسكر يمثلون الطبقة الوسطى والطبقات المهمشة الصاعدة، مقابل العائلات السياسية التقليدية.

تتشابه بنية الحكم العسكري في سلوك هياكلها المؤسساتية وتصرفات الشخصيات العسكرية تجاه الحياة العامة لمجتمعاتهم. تبدأ من لحظة تشكيل تنظيم عسكري سرّي إلى إعلان انقلاب عسكري صريح أو حكومة ظلّ عسكرية تشرف على الحكومة المدنية، وبالتالي التدخل العسكري في الميدان المدني السياسي وتعطيل قوى المجتمع، الإعلام والحياة الحزبية والديمقراطية، بحجة المحافظة على القانون والنظام ومكتسبات الشعب؛ ثم ما يلبث أن يُعلّق القانون والنظام والحياة

الدستورية ويتجه نحو القمع والاستحواذ على مقدرات الدولة وخلق ماكينة لإنتاج الشعارات البراقة ترافقها مكنات لإنتاج القمع. ومع أن الانقلابات العسكرية تدّعي أن هدفها إصلاح الجيش وإصلاح السياسة وإخضاع المجتمع للتنظيم والإدارة التي عُرف الجيش بها، لكنها لم تنجح، بل بالعكس دمرت الجيش والمجتمع.

ومن السمات المشتركة للحكم العسكري أيضاً المسارعة إلى خلق أو إعادة إنتاج مفاهيم شمولية تربط المجتمع بها وتجعل هدفه الدؤوب الدفاع عنها وترتيلها وترويج الأساطير عنها وإنتاج الخرافات حول شخصياتها التاريخية إلى حد عبادة الفكرة ومتعلقاتها. فمثلاً: أعادت الحكومات العسكرية العربية إنتاج العروبة، وكذلك فعل الحكم العسكري التركي حين تبنى التتريك، وبعض الحكومات العسكرية تبنت الشمولية الإسلامية. يُحمّل الحكم العسكري الفرد في صحوه ومنامه، في وعيه ولا وعيه، مسؤولية أمته ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فبدل أن يكون المجتمع بمؤسساته في خدمة الفرد ورفاهيته يُلقي الحكم العسكري على كاهل الفرد منذ طفولته، التي يعسكرها، هموم أمته فيغدو حمله أكبر من إمكانية عقله، ويصبح أسير شعارات تعذبه تتحكم به وتقذفه وحيداً في قتال أوهام أكبر من قدراته كالغرب والرأسمالية والشيوعية والإمبريالية..إلخ، فيصبح معزولاً ومعادياً للعالم

حوله، بدل جعل مؤسسات المجتمع في خدمة تعزيز رفاهية الفرد وقيادة المجتمع نحو مستقبل آمن.

مثلما ينبذ الحكم العسكري خصوصية الفرد والمبادرات الفردية كذلك ينبذ خصوصيات التنوعات العرقية والطائفية والإقليمية، ويطلب الولاء الكامل للمجتمع الجديد الذي خلقه. فمثلاً: حين التقيت هيثم سطايحي عضو القيادة القطرية لحزب البعث في سورية (٢٠٠٩): سألني عن غاية برنامج ينتجه تلفزيون أورينت (حكاية سورية)، وعندما بيّنت أن غايته فتح البيوت على بعضها وتعريف السوريين أقليات وأكثرية ببعضهم بطريقة إيجابية، لأن من جهل شيئاً عاداه كما قال المفكر لطفي السيد، علق سطايحي مستنكراً: "ليس في سورية طوائف. كلنا طائفة واحدة طائفة حزب البعث"! ابتسمت وقلت: "لا يمكن منع الناس من حق الاختلاف والتمايز. ويمكن تحويل ذلك الاختلاف والتمايز إلى حالة إيجابية"!

سورية تحت الاحتلال العسكري الطائفي!

تعتبر العصبية أحد محركات الانقلابات العسكرية، فغالباً ما تفسح الانقلابات العسكرية المجال للأقليات الدينية والعرقية والقبلية

بالوصول إلى السلطة واحتكارها، واعتبارها سُلّماً للترقي الاجتماعي والاقتصادي، لذلك استغلت بعض الجماعات الطائفية والعرقية طريق الانقلابات العسكرية للوصول إلى السلطة والاستحواذ على التمثيل الأكبر في القوات المسلحة لجماعة بعينها، كما حدث مع العلويين في سوريا والبنجاب في باكستان، وكما كان سيحدث مع العلويين في تركيا لو نجحت محاولة الانقلاب الأخيرة على أردوغان.

هذا الاستحواذ سينتج خللاً في الجيش، إذ تتم الترقية بناء على الولاء بدلاً من المهارة، وبالتالي ستؤدي إلى عمليات تطهير في الجيش تستهدف جماعات بعينها وتحرم الجيش من الخبرات التي أنتجها. كما ستسعى للسيطرة على السلطة المدنية وعلى مفاصل المجتمع عبر شبكة من المحسوبين ميزتها الولاء لا الكفاءة. ويتم اتخاذ القرارات الحساسة للأمن القومي بناء على مصلحة تلك الأقلية حتى ولو كانت على حساب الأمن القومي. فتتعطل التنمية ويصبح الفساد وظيفة وتدخل الدولة في نفق الجهل والقهر. وهذا النوع من الانقلاب العسكري يعتبر أخطرها، صحيح أنه يتقاطع مع الانقلابات العسكرية الأخرى في السمات العامة لكنه يتميز عنها بأنه حكم عسكري طائفي، وسورية مثلنا.

بدأت سيطرة الأقلية العلوية في سورية جلية خلال الوحدة مع مصر. يقول حنا بطاطو (مسيحي): "لقد اندهش العقيد عبد الحميد السراج، رئيس مكتب المخابرات لدى اكتشافه (١٩٥٨) أن ما لا يقل عن ٦٥٪ من ضباط الصف كانوا من تابعية الطائفة العلوية". (١)

أما الانقلاب العسكري في الثامن من آذار ١٩٦٣ أدى إلى سيطرة الأقليات الدينية، العلوية والدرزية والإسماعيلية (عدس)، على مفاصل الجيش والدولة وحزب البعث، ولأن معظم أعضاء اللجنة العسكرية المشرفة على نشاطات التنظيم العسكري من الأقليات، استدعوا الضباط وضباط الصف الذين تربطهم أواصر قربى بهم ومعظمهم كانوا من العلويين وقلة من الدروز والإسماعيلية لتعضيد مراكزهم التي حصلوا عليها.

خرج الدروز من الشراكة **في الحكم العسكري** حين أذل العلويون أمراء عسكرهم وقضوا عليهم ١٩٦٧؛ وفي ١٩٦٩ قضى العلويون على أمراء عسكر الإسماعيلية، وأصبحت قيادة سورية المدنية والعسكرية بيد العلويين حصراً، وبعملية تصفية داخلية بينهم وصل حافظ أسد لحكم سورية ١٩٧٠ مدشّناً حكماً عسكرياً طائفياً خالصاً، وعلوَن الدولة بشقيها العسكري الأمني بنسبة ١٠٠٪. يقول مطاع صفدي: "أُغلِق باب الكليات والمدارس العسكرية في وجه الشباب

السُّنيين، حتى إن دورات كاملة من هذه الكليات سُرحت جميعها من الخدمة قبل أن تتخرج.

التسريحات بالمئات استهدفت جميع الضباط من أبناء المدن الكبرى من السنيين خاصة، حتى فرغت أسلحة كاملة من ضباطها الرئيسيين، كسلاح الطيران والبحرية والآليات. وكذلك اتبعت نفس الخطة حيال صف الضباط والجنود، ولم تقتصر العملية الطائفية على تسريح الضباط السُنة وتعيين ضباط نصيريين مكانهم، بل تعدى الأمر فيما بعد لتشكيل وحدات عسكرية من أعضاء الطائفة النصيرية أو تحويل بعضها لصالحهم فقط، كجهاز المخابرات الجوية والمخابرات العسكرية وسرايا الدفاع والحرس الجمهوري وسرايا الصراع". (٢)

أما **في الشق المدني** فبلغت علونة الدولة ٩٠٪، وفي هذا يقول سامي الجندي (إسماعيلي): "بدأت قوافل القرويين تترك القرى من السهول والجبال إلى دمشق؛ وطغت القاف المُقَلقَلَة على شوارعها ومقاهيها وغرف الانتظار في الوزارات، فكان التسريح لزاماً من أجل التعيين"؛ (٣) ويؤكد نيقولاس فان دام (دبلوماسي هولندي) أن التسريح كان على حساب السُنة: "في ٨ آذار ١٩٦٣ ما لبث أن ازداد عدد أعضاء الأقليات في سلك الضباط السوريين مرة أخرى على حساب السنيين"(٤). أما شبلي العيسمي (درزي) فيقول: "الأمور الطائفية

لم تظهر إلا بعد تسلم السلطة بعد 1963، لقد اختلفنا مع اللجنة العسكرية التي كانت مؤلفة من 16-15 عسكرياً، نسبة النصيريين فيها كانت أكثر من ٦٠٪ الذين لم نكن نعرف من هم بالضبط، ولكننا كنا نتعاون مع صلاح جديد وحافظ أسد ومحمد عمران فقط، ولم يكن باستطاعتنا أن نقول لماذا تنتخبون علويين، لقد استغل جديد وأسد الطائفة العلوية في الحزب والجيش والسلطة".

***

كان لا بد من هذا الاستهلال للتأكيد أن الحكم في سورية لا يمكن دراسته من خلال شروط طبيعة الحكم العسكري فقط، كما في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ولا من خلال طبيعة الحكم الطائفي فقط، كما فعلت كثير من الدراسات. فطبيعته الخاصة حكم عسكري طائفي جعلته متفرداً بالتوحش، واستخدام العنف بشكل غير مسبوق في مقاومة التغيير، حيث حطم الجيش البلاد بأكملها وقتل نحو ٢ مليون شخص وهجّر نحو ١٥ مليون نصفهم تهجيراً داخلياً والنصف الآخر خارجياً، للإبقاء على نظام الحكم! في حين لم تقم جيوش الحكم العسكري في مصر وليبيا وأماكن أخرى بـ ١٪ من هذا العنف، حين هبّت عليها موجة التغيير.

حتى سورية قبل الانقلاب العسكري الطائفي حدثت فيها انقلابات عدة بيضاء رفض فيها الانقلابيون الدماء عدا واحداً فقط، فمثلا: حين أصدر "مجلس قيادة ثورة آذار١٩٦٣" قراراً بإعدام جاسم علوان وأركان محاولته الانقلابية، رفض رئيس المجلس الفريق لؤي الأتاسي (حمصي سُنّي)، توقيع قرارات الإعدام بحق الناصريين، وقدم استقالته من رئاسة الجمهورية؛ كما تنازل الشيشكلي (حموي سُنّي)عن الحكم، رافضاً عملية سهلة للقضاء على تمرد النقيب مصطفى حمدون (حموي سُنّي) في حلب، مردداً مقولته الشهيرة: "لن أسمح لجندي سوري بأن يوجه بندقيته لجندي سوري آخر بسببي"، وسلم استقالته لرئيس الأركان شوكت شقير (درزي) وغادر سورية. لكن الانقلابيين الطائفيين حين انقلبوا على أمين الحافظ جرحوه هو وابنه وابنته في إطلاق النار عليهم، وأعدموا حرس القصر بعد استسلامهم، ومنذ ذلك والبلاد تسبح في برك من دماء شعبها!

إن العسكر الطائفيين في الحالة السورية يعتبرون وجودهم في السلطة قوة احتلال يحركها الحقد. فقد روت مذكرات شخصيات سورية أن الضباط العلويين الأمراء كانوا يُسوّقون زكي الأرسوزي (علوي) لإلقاء محاضرات طائفية على المنتسبين العسكريين الجدد من الطائفة العلوية لتعزيز حقدهم على المجتمع السوري.

الدور الجديد للجيوش العسكرية في المنطقة

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، قامت منظومة الأمن الدولي بإعادة صياغة الخوف العالمي من الشيوعية ومقاومة انتشارها وصَنّعَتْ الجماعات الإسلامية المتطرفة بديلاً عنها. وهذا حتّم أن يُصاب العالم برهاب الخوف من المسلمين والعرب، وما أثر سلباً على صورتهم لدى شعوب العالم. ولتحقيق ذلك فرضت مصالح القوى العظمى على الأنظمة الإقليمية الخضوع لهذا التوجه الجديد مستخدمين تسميات عدة مثل: الالتزام بالقانون الدولي والشرعية الأممية... إلخ، فصاغت الحكومات العسكرية سياساتها الوطنية وفقاً لذلك، بل وتنافست فيما بينها على خدمة قوى النفوذ العالمي على حساب شعوبها ولحساب بقائها. ولتحقيق ذلك طلبت منظومة القوى الدولية الفاعلة ١٩٩٠ من الرؤساء العسكريين مثل أسد الابن والولد ومبارك ونظم عسكرية كتونس.. إعادة أسلمة مجتمعاتها، فمثلاً: في سورية أنشأ حافظ أسد ١٩٩١ عشرات معاهد (الأسد لتحفيظ القرآن)، وعشرات المدارس الثانوية الدينية، كما شجع الخطب الدينية الجهادية، كخطب أبي القعقاع محمود قول آغاسي في حلب، وفتح الساحة لبعض اللاعبين في مجال الدين مثل المفتي أحمد كفتارو الذي فعّل مجمع أبي النور لتخريج دعاة إسلاميين يستقون مواضيع دعوتهم من ضباط

الإدارات الأمنية، كما شجع البرامج الدينية في الإعلام، وحضّ مجلس الشعب على إصدار تشريعات إسلامية محافظة!

يستطيع المراجع للأحداث في المنطقة العربية والإسلامية خلال الثلاثين سنة الماضية أن يتبين أن دور الجيوش قد تحوّل من مهمته الوطنية في الدفاع عن الحدود ضد الاعتداءات الخارجية إلى:

١- شاهد زور مشرعن للتدخلات الغربية فيها، إذ أصبحت ترافق جيوش الغزو الغربي لدول المنطقة العربية والإسلامية منذ حرب تحرير الكويت انتهاء بالتدخل في سورية لإنهاء الثورة.

٢- قوة بوليسية تشنّ الهجمات المتفرقة داخل حدود الدولة لحمايتها من الإرهاب العابر للحدود وفي مكافحة تهريب المخدرات وتهريب السلاح.

٣- قمع العصيان المدني وحماية الحكم العسكري من خصومه الداخليين، بتدريب وقيادة وتوجيه من القوى العظمى؛ وهذا الدور الأخير والمتصاعد أدى إلى استفحال الانقسام العرقي والطائفي والاجتماعي في دول المنطقة وشجع الفرقة والعزلة والأفكار الانفصالية، وبالتالي، ضَربَ الاستقرار الإقليمي.

إن دور الجيش السوري خير مثال على انتهاء المهام الوطنية للجيش والتحول للقتال في سبيل استمرار سلطة أسد الأب والولد. كما خلقت تلك القوى حروباً في المنطقة وأدارتها على طريقة المباريات الرياضية، وذلك لبقاء عمليات شراء السلاح وبقاء قنوات تصريفه!

ادعى نظام أسد الأب والولد أن أكثر من ٦٠٪ من ميزانية الدولة تذهب إلى بناء القدرات العسكرية "لتحقيق التوازن الاستراتيجي مع العدو الإسرائيلي"، التي لم يكسب معها مناورة واحدة وليس حرباً! وحين انطلقت الثورة رأينا معدات عسكرية مهترئة، وأسلحة إجرامية رخيصة خلقها العقل الطائفي، البراميل والخراطيم المتفجرة التي هي حشوات متفجرة مجبولة بشظايا حديدية ترميها طائرات قديمة أسقطت فصائل المعارضة عدداً منها بالرشاشات (؟!) كما لم تظهر أية أسلحة حديثة مع القوات السورية خلال وجودها في لبنان، وأيضا لم نرَ فائدة تذكر من دفاعاتها الجوية ضد الطيران الإسرائيلي طيلة ٦٠ عاماً! فأين ذهبت ميزانية الجيش طيلة ٦٠ عاماً، مليارات سنوياً، هل ذهبت إتاوات ورِشاً ثمناً لبقاء الحكم الطائفي؟!

دلّت التجربة السورية بعد قيام الثورة بأن الجيش الطائفي مثلما عجز عن حماية البلاد من العدوان الخارجي، كذلك وقف عاجزاً أمام الحركة الشعبية حتى قدمت له منظومة الأمن الدولي الدعم الخفي

والعلني لإبقاء سلطة الأقلية الوظيفية في الحكم. لذلك على القوى السياسية الشعبية السورية القادمة أن تطرح مسألة وجود الجيش الكلاسيكي الذي سيكون عبئاً على الاقتصاد السوري وعلى التنمية. فالديمقراطية وحسن الجوار هي سور حماية سورية الجديدة. والتي ستحتاج في المرحلة القادمة إلى قوى أمنية تساهم في حماية أمن البلاد الداخلي من العابثين. فكثير من الدول ليس لديها جيوش، كما إن وجود جيوش تقليدية أصبح عبئاً لا يمنع عدواناً، في ظل التباين الرهيب في القوة بين الأقوياء والضعفاء!

هوامش:

(١) بطاطو، حنا: (فلاحو سوريا: أبناءُ وجهائهم الريفيين الأقل شأناً وسياساتهم) المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات - ٢٠١٤

(٢) صفدي، مطاع: (حزب البعث: مأساة المولد، مأساة النهاية) - دار الآداب - بيروت: ١٩٦٤

(٣) الجندي، د. سامي: (البعث)، دار النهار - بيروت ١٩٦٩

(٤) فان دام، نيكولاس: (الصراع على السلطة في سوريا)، مكتبة مدبولي - القاهرة: ١٩٩٥

أورينت نت: ٢٠٢٢/٥/٢٤

الطائفية في سورية:
الخوف من الأكثرية أدى إلى ذبحهم!

حين وصلنا إلى قمة جبل قاسيون، (٢٠٠٩)، مغادرين منطقة دُمّرْ إلى مدينة دمشق، طلب مرافقي أن أقف على جانب الطريق ليركب معنا عسكري يبحث عمّن يُقله. صعد العسكري وكان برتبة صف ضابط في الحرس الجمهوري، عرفناه من قافه المُقَلْقَلَة ولازمة النون الساكنة مع أفعال الأمر أنه من إحدى القرى العلوية في جبال اللاذقية.

بعد التعارف بدأ مرافقي يسأله عن حاله، فعرّفنا أنه متطوع/عسكري عامل في الكتائب الأمنية في الحرس الجمهوري ويعيش مع زوجته وولده في منطقة قرى الأسد، وهي قرية سكن عسكري بيوتها مسبقة الصنع متقاربة مساحة الواحد منها نحو الـ٣٠ متراً مربعاً، تُعطى للعسكر المتطوعين، وهناك العديد منها بأسماء مختلفة تحاصر غرب دمشق.. أما الكتائب الأمنية في الحرس الجمهوري فهي كتائب علوية خالصة تحمي القصور والمرافق الرئاسية وترافق تحركات العائلة الأسدية.

خلال النقاش شكا العسكري من ضيق الحال وقلة الراتب ولوعته لقريته، وتساءل متى سيتسنّى له العودة للعيش فيها، ولماذا لا توجد خدمات في قريته تؤمن له عملاً ودخلاً، وذكر أن هدفه من الانتساب للجيش تأمين دخل كافٍ من راتبه يمكنه من بناء منزل صغير في قريته بعد التقاعد؟ هنا أجابه مرافقي بخبث: "لو توفر لكم عمل في قراكم وعشتم مطمئنين في رغد إذاً من سيحرس هؤلاء الذين تحرسونهم؟! ضحكتُ وقلت لمرافقي:

"**رَوَّحْتنا يازلمي ناقصين استدعاءات للأمن**"! حلف العسكري أنه ليس مُخبراً، وأطرق ساكتاً إلى أن غادرَنا في منطقة البرامكة.

في ظل الانقسامات وتبني المواقف الحادة يلزم أن نؤكد بأننا إن كنا نتحدث ونُشَرِّحُ الطائفية إنما نسعى لخلق وعي بالواقع الطائفي الملموس الذي تعيشه سورية منذ منتصف القرن الماضي، ساعين نحو العيش المشترك والعدالة والمواطنة الحقة لجميع مواطني سورية، وإن حديثنا في الطائفية محاولة لكشف آثارها في تخريب المجتمع والدولة السورية.

إذاً يجب أن نفرق بين من يُشخّص الطائفية وبين الطائفي: الذي هو كل سلوك أو قول ينفي الآخر ولا يقبل بوجوده في المجتمع وأنشطته لاختلافه معه مذهبياً.

***

بتاريخ الرابع عشر من تموز/ يوليو عام ١٩٦٣ تصدّر خبر التطوع في الحرس القومي صحيفة (الثورة) بدمشق، معلناً تلقيها ٣٠ ألف طلب للانتساب لها في إشارة لتشكيل أول ميليشيا بعثية طائفية روّعت السوريين قبل أن ترث المهمة الوحدات الخاصة، ثم سرايا الدفاع التي أسسها رفعت الأسد (علوي) ثم سرايا الصراع التي أسسها عدنان الأسد (علوي) على أنقاض سابقتها، ثم تشكيل ميليشيا الشبيحة على يد المقربين من العائلة الأسدية بعد هروب الرئيس التونسي بن علي، كرامي مخلوف (علوي) الذي أسس كتائب البستان المقاتلة في دمشق وسلّحها تحذيراً للسوريين إن فكروا بالثورة، طبعاً وعلى رأسها جميعاً كتائب الحرس الجمهوري وجميعها ميليشيات طائفية منتسبوها من الطائفة العلوية، وهي فوق الجيش، وساهمت في قمع الثورات السورية ضد الطائفية منذ ثورة حماه ١٩٦٤ إلى اليوم.

وقف عموم السوريين ضد نقل الصراع الطائفي في لبنان إلى سورية، فتدخل مرة الأمير عبد القادر الجزائري وحلّ طوشة مع المسيحيين في دمشق تأثراً بالصراع الطائفي الدائر آنذاك في لبنان، لكن الهمسات الطائفية، بدأت تعلو وتشتد إلى أن كشفت عن نفسها بقوة بعد انقلاب آذار ١٩٦٣ إذ يذكر أكرم الحوراني في مذكراته أن جماعة من الحرس القومي التي حاصرت بيته في دمشق كان على رأسها

"الكاتب الأديب" حيدر حيدر يطلق الرصاص والشتائم الطائفية بحق سُنة سورية وسُنة دمشق تحديداً.

تطييف الجيش السوري بقوة منذ بداية ستينيات القرن الماضي، كما كنّا قد أشرنا في مقالة سابقة، جلب الانقسام المجتمعي إلى قلب الدولة. وبدلاً من أن يكون الجيش أداة محايدة لقيادة مدنية، وحامياً حمى الوطن في وجه التهديد الخارجي، شجع ودعم الفرقة والعزلة والأفكار الانفصالية، وقام بتطويع القواعد والممارسات المدنية وفقاً لأولويات الأمن إلى درجة التفريغ السياسي للمجتمع ومنع المعارضين من كافة أشكال التعبير، الأمر الذي أدى إلى هروب النخب السورية بتنوعاتها خوفاً من البطش والتهميش والتفقير والإذلال. والجيش السوري الطائفي كما كان السيف الذي أشهره حافظ أسد بوجه السوريين في الداخل لاستمرار حكمه وحكم عائلته، كذلك كان السيف الذي ضرب به الاستقرار الإقليمي، والشواهد كثيرة على تخريب لبنان وضرب الفصائل الفلسطينية والتآمر ضد العراق ومصر. مع أنه قدّم نفسه بقوتي الإعلام والأمن ضامناً وحيداً في المنطقة للوحدة الوطنية والوحدة القومية.

***

دفع حافظ الأسد الحلقة الطائفية لتحاصر كل جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، واستثمر في إيقاظ الهوية الطائفية لديمومة حكمه، طبعاً تاريخ هذا الاستثمار يخبرنا أن حافظ أسد ليس هو الباعث لهذا المشروع ولا صلاح جديد حتى، منافسه الأشد آنذاك على حكم سورية حكماً طائفياً، فكثير من الشواهد تؤكد أن المشروع كان يتشكل منذ الانتداب الفرنسي على سورية.

لم يقدم أسد الأب ولا الولد شيئاً يذكر للطائفة العلوية، وإن خرج منهم بضعة ضباط تحولوا إلى رجال أعمال معظمهم يخوضون في الأنشطة الممنوعة أو يستثمرون في فساد مؤسسات الدولة العسكرية والمدنية. كما إن مناطق العلويين معدمة وخالية من التنمية، ومعظم سكانها يعيشون فقراً مدقعاً، لكنه حوّلهم إلى حرس لحكمه ونّمى داخلهم غريزة يصعب على الإنسان مقاومتها إلا إذا وصل إلى قدر من التحضّر والأنسنة وهي غريزة التسلط على الآخرين، والتمايز والاعتداد بهوية مفرغة من الحضارة كالتعليم والإنتاج والتطوير، ومنحهم بدلاً عنها امتيازات مؤقتة، كرواتب متعددة من هذه المؤسسة أو تلك، كما حدث في مؤسسة الإسكان العسكري مثالاً: التي قدر عدد الذين يحصلون منها على رواتب دون أن يعملوا بها نحو ١٢ألفاً، كما أنه بعد طرد قوات أسد من الرقة تبين أن ٦٥ ألفاً من

العلويين يحصلون من المحافظة على رواتب دون عمل مقابل، الراتب الواحد حوالي ٨٠ دولاراً، ومجموع هذه الرواتب بالكاد يسد جوعاً ولكن لا يدفع فقراً! كما خلق نظام أسد لرتب الجيش المتوسطة والصغيرة مصالح ضمن دائرة الفساد المُمأسَس لإفساد المجتمع، إذا اكتسب هؤلاء حقوقاً في التهريب والأنشطة المحظورة الأخرى كزراعة وصناعة المخدرات التي باتت تنتشر بشكل واسع في سورية.

مع بداية الثورة انطلقت فرق الموت الطائفية التي أطلقت على نفسها لقب "الشبيحة" لقتل المتظاهرين. أولى الصرخات الطائفية ضد حكم أسد أطلقها القرضاوي من الدوحة(!؟) في عدة خطب جمعة، لتشكل خطبه أول تعبير راديكالي عن التطرف سينشأ داخل الثورة السورية متأثراً بهذه الخطب وبالمؤامرات التي تُحاك محلياً من قوات أسد وإقليمياً من كل الدول، بما فيها التي قدمت نفسها في المقلب الآخر ودولياً غرباً وشرقاً، وهذا أكّد أهمية نظام أسد لمنظومة الأمن العالمي!

انطلقت دعوات القرضاوي للجهاد في سورية والمظاهرات لا تزال في أيامها الأولى، فأعطت نظام أسد المستقوي على شعبه بسلاح الدولة وجيش الدولة الذي يبلغ نحو نصف مليون عسكري ونفس

الرقم أمني، وكذلك استقوى بمنظمات الدولة ومؤسساتها وبدعم عدد كبير من الطائفة العلوية والتي كانت تقدر بنحو ٨-٧٪ من الشعب السوري، ودعم الطوائف الأخرى التي تخاف من مشروع إسلامي في المنطقة عموما ولسورية خصوصاً، وتفجر لديها عداء ضد السُنة العرب، سنتوسع بالحديث عنه في المقالة القادمة؛ فقدمت لهم رخصة بالمظلومية وأخرى بالقتل بحجة الدفاع ضد عدو مُتَوَهَّمْ!؟ كما قسّمت الشعب السوري قسمة الموت بين مؤيد ومعارض! فإن أدرك القرضاوي أم لم يدرك، فإنه كان جزءاً من مشروع كبير لإنقاذ النظام السوري وتحطيم سورية!.

تبعت خطب القرضاوي خطب من السلفية الجهادية في عدد من دول الخليج ومصر التي اعتبرت الجهاد ضد بشار أسد واجباً دينياً، وبدأنا نسمع عن خطابات طائفية ضد العلويين ودعوات إلى الجهاد تصدر عن سلفيين وجهاديين في أوروبا أيضاً، ومع انشقاق الجيش الأسدي وانسحاب السُّنة منه، شكلوا كتائب الجيش الحر، منقسمة فيما بينها، والتي ما لبث الإسلاميون أن سيطروا على بعض فصائلها وقضوا على أخرى، بعدما هزمت الجيش الطائفي وميليشياته وحررت نحو ٨٠٪ من مساحة سورية.

أصرّ النظام الأسدي أن تكون أغلبية الوحدات العسكرية التي تقوم بذبح السُنة من العلويين ويقودها علويون، كذلك الأشخاص الذين يُعذّبون النساء والأطفال السُنة حتى الموت ويحرقون المحلات والسيارات ويهينون النساء والمسنين، وقد لمعت أسماء لضباط علويين ارتكبوا فظاعات في قرى سُنية، فمثلاً: ضابط برتبة نقيب من آل مخلوف كان يأخذ المدنيين المقبوض عليهم من أهل قرية إبلين في جبل الزاوية ويضعهم في فرن يشويهم حتى تنضج جلودهم ويرميهم خارج منطقة التنمية الريفية التي حولها إلى معسكر، وعندما يحاول الأهالي الاقتراب شفقة لأخذ أهليهم المشويين والذين تهفّ عليهم الحشرات والقوارض كان يقنصهم واحداً تلو آخر!

قضت هذه المجازر على سلمية الثورة وتنادَى بعض السُنة لحمل السلاح للدفاع عن أنفسهم، وتجند الإسلاميون للحديث بمصطلحات طائفية عبر الإعلام: كنصيري* ورافضة ومجوس وصفوية. أما خصومهم من الميليشيات العلوية والشيعية فتبنت الدفاع عن آل أسد معتبرين أنه صِدام شيعي سُني، وهؤلاء خلقوا مصطلحاتهم الطائفية: ناصبي، تكفيري، أموي، وهابي. وهدف الجانبين من استخدام تلك المصطلحات تصوير أعدائهم كفاراً عقوبتهم الموت، والاثنان اتفقا أن تكون سورية ساحة المعركة! لتتحول ثورة الشعب السوري من

مظاهرات تطالب بالحرية والعدالة إلى ساحة معركة قذرة تحتقرها الشعوب المتحضرة.

ساهمت تغطية قناة **الجزيرة** وخصوصاً **الجزيرة مباشر** المدعومة من الحكومة القطرية والقائمة على أسس طائفية سياسية، والتي تميل بشكل واضح للإسلاميين السلفيين والإخوان المسلمين وأحياناً قدمت شخصيات تتحدث بلسان الجهاديين؛ ساهمت بدعم الجهادية ومواضيعها وشخصياتها في سورية، فشكلت تغطيتها مواضيع لوسائل التواصل الاجتماعي والتي بدورها شجعت على تشكيل فقاعات تستقطب أصحاب التفكير المماثل وتساعدهم في البحث عن بعضهم وتعزيز تحيّزاتهم، كما انبرت قنوات طائفية عدة شيعية وسنية لتعزيز الصدام على الأراضي السورية.

***

منذ فترة ما بعد استقلال سورية ربما ولفترة بداية ثمانينيات القرن الماضي كان من المعيب التحدث في الطائفية لأن هوية الدولة السورية قد بدأت تتشكل في عقل السوريين، وتعزز حلم الوطنية والبحث عن الوحدة القومية من المحيط إلى الخليج، وبدأ السوريون يتحولون من عقلية الولايات والدول الطائفية والقبائل والأقليات الدينية والعرقية إلى مجتمع مؤمن بالدولة، لكن تعزيز سياسة التمييز

الطائفي واستخدامها في كافة مجالات الحياة في سورية منذ حكم أسد الأب ١٩٧٠ قضى على تلك الهوية الناشئة، وبدأت تعيد تشكيل نفسها وتبحث عن خلاصها كل مجموعة بنفسها. وهذا أظهر مثال على الدور الذي لعبه النظام في التراجع التاريخي للأمّة السورية من البدء في صعود سلم الأمم الراقية بعد حقبة الاستعمار إلى حضيض البربرية والتوحش.

لقد وعى الغرب سيكولوجية الأقليات وعرف خوفها على مصيرها من الأكثرية، وأنها مهما امتلكت من قوة لن تستطيع الشفاء منه، لذلك تبقى محتاجة ومرتهنة دائماً إلى الدعم الخارجي، ما سيؤدي إلى غياب القرار الوطني وارتهان الدولة وفقرها وانحطاطها، لذلك سعى دائماً لتعزيز ديمومة خوفها على مصيرها حتى تستديم أداة طيعة بيده.

تُحَلّ مسألة الطائفية بتشكيل مؤسسات دستورية لا تجعل الطائفية أحد شروطها، وتستطيع إيصال السوريين إلى صندوق انتخابي عادل. إن الانتخابات المزيفة التي تقوم بها العصابة الطائفية وتسهيل وصول المجنون الطائفي بشار أسد إلى الحكم إنما هدفها تعزيز الجرح الطائفي ونتائج المعركة الطائفية التي تحاول الإطاحة بالثورة وبمطالب العدالة.

وأخيراً: لعل المتتبع لجرائم أسد الأب كتدمير مدينة حماه وأحياء في حلب وجسر الشغور بين ١٩٧٨ و١٩٨٢، وقتل نحو ٤٠ ألفاً

وتهجير مثلهم وتغييب مثلهم في السجون، (العدد الكلي ١٢٠ ألفاً)، وكذلك وتدمير أسد الولد لأكثر من ٧٠٪ من سورية منذ اندلاع الثورة ولا يزال، وقتل نحو ٢ مليون سوري وتهجير ١٦ مليوناً نصفهم تهجيراً داخلياً ونصفهم الآخر تهجيراً خارجياً، يدرك أن هدف الطائفيين لم يكن هزيمة قوة مقاتلة، ففي المرة الأولى كان عدد المقاتلين ٢٢٥ مقاتلاً من كتيبة الطليعة المقاتلة التابعة للإخوان المسلمين، ولاحظنا خلال الثورة أن النظام كان يضغط لتوسيع دائرة الاحتجاجات، إذاً فالهدف قولاً واحداً ليس هزيمة قوة مقاتلة، وإنما تدمير المجتمعات السُّنية، تدمير الأمّة السورية. وهي وسيلة أيضاً لتدمير الأدلة على جرائم الحرب التي ارتكبوها.

وهنا أود أن أذكر حادثة أن محمد حمشو أحد عظام رقبة النظام قال لي في جلسة خاصة آذار ٢٠١٣: إن مستشارة بشار أسد لونا الشبل قالت له على لسان بشار بداية ٢٠١٣:

"أن لا مشكلة لديه مع السُنة الذين وقفوا ضده لكن مشكلته مع السُنة الذين وقفوا معه ما الذي سيفعله بهم بعد انتصاره"!؟

هامش:

* يأتي استخدام الجهاديين العالميين لمصطلح النصيريين منذ سنوات كمصطلح مهين لنظام الأسد والعلويين بشكل عام. غالبية السوريين بمن فيهم السُنة يرفضون إطلاق هذا المصطلح على الطائفة العلوية احتراماً لها.

أورينت نت: ٢٠٢١/٥/٣٠

حلفُ الأقليات*: احتضار أُمّة!

"تشكّلُ آسيا العربية مكاناً فريداً في التنويع الطائفي الإسلامي ففيها يعيشُ السُّنة والشيعة والعلويون والدروز والإسماعيليون والبهائيون والإباضيون، وبالرغم من أن السُنة هم الأغلبية فإنهم تعايشوا مع الأقليات الأخرى ودون صراع طائفي. ولم يلحظ المرء ومنذ عصر النهضة وحتى نهاية القرن العشرين تَعيُّن التنوع الطائفي في حركات وأحزاب سياسية ما خلا الإخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامي والأحزاب الطائفية المحلية في لبنان، البلد الذي يقوم نظامه السياسي أصلاً على التقاسم الطائفي. ثم نشأت بعد ذلك الأحزاب الشيعية كحزب الدعوة وما شابه ذلك. "والحق أن الطوائف الإسلامية وقائع تاريخية وواقع موضوعي والناس يتوارثون الانتماءات الطائفية دون خيار منهم".

---

* المقصود بحلف الأقليات هنا ليس الأفراد وإنما المؤسسات بعضها قد يكون حزبياً وبعضها مؤسسات دينية أو إعلامية توجه عداء منتسبيها إلى السنة العرب وتسعى لتجنيد ما أمكن من أفراد الطائفة في هذا العداء. لكن بالتأكيد هو ليس اتهاماً للأفراد ولا للعقائد، فعدد من الأفراد من عموم الأقليات وقفت ضد التحالف على السُنة العرب واعتبرت التحالف مدمراً لوجودها وللأوطان أيضاً.

كشف انفجار الثورة السورية اللثام عن تحالف أقليات في المنطقة يستهدف السُنة العرب، مع أنه لا يمكن لأحد أن ينكر استبدادية النظام السوري وفساد وإجرام عائلة أسد، والفقر والقهر والتهميش الذي يعيشه السوريون عامة منذ أن استلم أسد الأب الحكم، لكن عموم الأقليات، عدا الأقلية التركمانية والداغستانية رفضت المشاركة بالثورة، وكثير منها رفضتها بعنف وتسلحت للقضاء عليها، الشيعة السياسية جندت حزب الله والمليشيات الإيرانية، والمسيحية السياسية شكلت ميليشيات وطردت السُنة العرب من القرى المجاورة في سهل الغاب ودمرت قراهم، وكذلك تسلح أرمن حلب وساهموا بقمع المظاهرات، كما سخرت إعلامها ضد الثورة، عدا إعلام القوات اللبنانية، والدروز رفضوا الاشتراك بالثورة وشكلت مراكز النفوذ فيها ميليشيات حاولت اقتحام قرى درعا العربية السُنية، كما هاجم عدد من دروز الجولان سيارة إسعاف تحمل جرحى نقلتهم المنظمات الإنسانية لعلاجهم في إسرائيل. (١)

أما الميليشيات الكردية فلعبت ولا تزال دوراً في تمزيق مدن السُنة العرب في شمال شرق سورية. لكن لا يمكن التجاهل أن من أعلن الحرب على السُنة العرب هو الحلف الشيعي الذي تشكّل واستقوى بوصول الملالي لحكم طهران ١٩٧٩.

انفجر الصراع الطائفي السُني الشيعي في منطقة آسيا العربية مع بداية هذا القرن؛ ويخطئ من يظن أن الاحتلال الأمريكي للعراق هو سبب الانفجار، لكنه الشرارة التي فجرت المرجل الذي كان يغلي منذ فترة مبكرة، فالسياسات الطائفية التي استثمرها حافظ أسد مبكراً في سورية، ثم تبعه الاستقطاب الطائفي الذي روّج له النظام الإيراني عبر سياسة تصدير الثورة، وكذلك سياسة نظام صدام حسين في العراق، كلها جعلت المنطقة تغلي بأحقادها، وما فعله الاحتلال الأمريكي للعراق أنه حرر كل صراعات الهوية في المنطقة وقدم لها ساحة مناسبة للصراع.

النموذج السوري مثالاً

قسّم الانتداب الفرنسي سورية تقسيماً طائفياً عام ١٩٢٠، وبدأت السياسات الطائفية في سورية تتشكل، وكان أهم أشكالها جيش الشرق الذي كان معظمه من الأقليات المسيحية والعلوية والإسماعيلية والدرزية؛ وإنْ فشل التقسيم بعد بضع سنوات لكنه أيقظ الهويات الطائفية النائمة عبر تعزيز السياسات الطائفية في البلاد طيلة فترة الانتداب.

ورثت سورية بعد الاستقلال جيش الشرق الطائفي، المسكون بالحركات الطائفية الخفية والتي انتهت بسيطرة الأقليات على الجيش

السوري ١٩٦٣، ثم سيطرة العلوية السياسية التامة على الجيش وعموم مفاصل الدولة مع وصول حافظ الأسد للسلطة في انقلاب ١٩٧٠.

أما في لبنان الذي كان قد شهد صراعات طائفية منذ ١٨٦٠، ازدهرت الحياة السياسية فيه نحو ربع قرن بعد "الاستقلال"عام ١٩٤٦، لكنه نكص بشدة وانفجرت الحرب الأهلية بين عامي ١٩٧٤-١٩٩١، ولا تزال ارتداداتها قوية جداً وتهدد بزلزال آخر بعد سيطرة حزب الله الشيعي الذي أعلن ولاءً سافراً للإمامية في قم/ إيران، وإن كان قد تخفّى تحت عباءة مقاومة إسرائيل نحو ربع قرن، لكنه لم يُخفِ سلوكه الطائفي ضد السُنة عن المدقق فيه. فمثلاً ما علاقة مقاومة إسرائيل بشعارات كان يطلقها منتسبوه عقب كل لقاء جماهيري، "لن تسبى زينب مرتين" وهي تهمة لا علاقة لإسرائيل ولا لليهود بها، وإنما تهمة وجهها بعض الشيعة لسُنة سورية، قبل ١٤٠٠ سنة، كما ترافق الشعار بشعار ثأري آخر وأصله التاريخي موجه ضد السُنة "هيهات منّا الذلة" أيضا لا علاقة له بثأر بين الشيعة وإسرائيل واليهود!

***

ليس هناك علاقة مهمة لانفجار الصراع السُني الشيعي بالاختلافات الدينية الجوهرية أو بـ ١٤٠٠ عام من التاريخ الإسلامي. لكنه مثال صارخ لاستغلال سياسات الهوية وركوب السياسيين لطريق سهل يُؤّمن لهم مصالحهم في الحكم أو الاستبداد فيه عبر التركيز على السلطات الدينية والتفسير من خلالها، وجعل الطائفية جوهر السياسة من خلال المحسوبية والتمييز في مؤسسات الدولة وفي التجنيد العسكري.. إلخ، ما سيؤدي إلى ترسيخ العداء بين الطوائف، ويجعل من السهولة الدفع بالعنف الطائفي (وفي العرقي كذلك) عند الحاجة سواء من الأنظمة الاستبدادية أو من النخب الطامحة والتي ستسعى لاستغلال اختلافات الهويات حسب مصالحها، ثم ترمي البلاء على الشعوب عقائد أو أعراقاً أو كلاهما مدّعية أنها السبب، وربما هؤلاء الحكام لا يعرفون الاختلافات أو لا يؤمنون بالعقائد ولا بالأصول، غير مهم طالما سيكونون سعداء بتسخير هذه المسألة والضحك على غباء المتقاتلين. لذلك أعتقد أن تفسير الصراع السُني الشيعي على أنه صراع عمره ١٤٠٠ سنة تفسير ساذج، فالانفجار الطائفي أو العرقي هما نتيجة حتمية لفشل الدولة والعنف والخوف وفشل السياسة واستحكام قبضة الاستبداد وبطشها على الأفراد والجماعات المحلية، لذلك يميلون إلى التراجع والبحث عن هويات نائمة ضيقة كالهوية القبيلة أو الطائفية في مواجهة تلك الضغوط، والدفع بالمطالبة بحقوق

نائمة أو ميتة، كالثأر للحسين عند الشيعة، أو مبتكرة جديدة، كرفض الوطنية وسلطة الدولة والتبعية لدولة أخرى، كالتبعية لقم/ إيران عند الشيعة السياسية العربية! ولتنجح لا بد لها من إنشاء مظلومية تبرر سبب الصراع الهويّاتي ورفض مشاركة الآخر والدعوة إما لحكم البلاد كاملة بطريقتها أو التهديد بالتقسيم وإنشاء جيوب طائفية تودي لانتهاء عصر الدولة، كما طالبت النخب العلوية في سورية في استبيان كانت قد قامت به مجلة (نيويورك بريفو) الأمريكية عام ٢٠١٩.

استقطب الحلف الشيعي الأقليات لصالحه، كما حدث في لبنان، تحالف حزب الله الشيعي مع الأحزاب والمؤسسات المسيحية ضد السُنة العرب، ففي غير موقف عبّرَ ميشيل عون عن دعمه وتحالفه مع حزب الله الذي حارب في سورية، خارج حدود بلاده. كما إنه طالب بحماية المسيحيين في الشرق الأوسط في زيارته لموسكو ٢٠١٩. كذلك أعلن رئيس بطريركية القدس للروم الأرثوذكس المطران عطا الله حنا في لقائه ببشار أسد ٢٠١٧، في نفس الوقت الذي كان أسد يقوم بمجزرة الكيماوي:

"أن المتآمرين على سورية هم ذاتهم المتآمرون على فلسطين"

وكان المفكر والبروفيسور إدوارد سعيد قد أشار في كتابه "مسألة فلسطين" الصادر عام ١٩٧٩ أن واحدة من المعضلات المحورية في

منطقة الشرق الأوسط هي قضية الأقليات معتبراً أن ممارسات الأقليات: "هي ممارسات تخدم الكيان الصهيوني".

***

تَحوّل عدد من أفراد الأقليات الذين هاجروا إلى الغرب إلى سفراء للأنظمة الدكتاتورية في المنطقة. كنت قد قابلت أحدهم في إحدى العواصم الغربية استغربت دفاعه عن أحد أكثر الأنظمة السُنية انغلاقا أمام مراكز صنع القرار الأوروبية وسألته عن سرّ ذلك وهو المتعصب ضد الإسلام والمسلمين والعرب؟ فردّ رداً نزل كالصاعقة: "وما الذي نريده لكم أسوأ من هكذا أنظمة"!؟ والمتابع يعرف أن مثل هذا بالآلاف!

إن تغلغل الأقلويين في الإعلام الناطق بالعربية وفي المراكز البحثية السياسية جعلهم خير مدافع عن حلف الأقليات وأفضل مزوّر لجرائمه؛ في تقرير نشره الإعلامي الأمريكي ديفيد كينر، في مجلة **(فورين بولسي)** قدم العديد من الشواهد حول الدعايات الكاذبة التي روّجها الأقلويون ومؤسساتهم: "نشرت صحيفة يو إس إيه توداي مقالاً قالت فيه: إن المملكة العربية السعودية أرسلت ١٢٠٠ سجين محكوم عليهم بالإعدام للقتال في سوريا، وهذا الادعاء نقلته المجلة

عن وثيقة مزيفة نشرتها وكالة الأنباء الآشورية الدولية (أينا)، وذلك لضرب حقيقة أنها ثورة شعب سورية على نظام قمعي وتعزيز ادعاء نظام الأسد بأنه يحارب إرهابيين قادمين من خارج الحدود.

كما إن مجلة **ناشونال ريفيو** استشهدت بما كتبته الأم أغنيس مريم دي لا كرو، راهبة الكرملية اللبنانية، ومن أكثر المدافعين عن نظام الأسد، بأن المقاتلين المعارضين جمعوا الرهائن المسيحيين والعلويين معاً في مبنى في مدينة حمص وقتلوهم بنسفه بالديناميت. كما نقلت المجلة عنها أن فيديو الهجوم بالأسلحة الكيماوية في ٢١ آب ٢٠١٣، ملفق وتم إعداده مسبقاً بهدف تصوير الحكومة السورية على أنها الجاني.

أما صحيفة **لوس أنجلوس تايمز** فكانت تنشر تقارير عن وكالة الفاتيكان الرسمية (آجينزا فيداس) حول القتل الجماعي للمسيحيين في حمص، وجميعها تقارير كاذبة كانت تأخذها من مواقع مؤيدة لبشار أسد ليس لها أي مصداقية" .

ومثل ذلك حدث في مجموعة **إم بي سي** إذ نشرت فيلماً عن حسن نصر الله زعيم حزب الله يصوّره كبطل أسطوري؛ فيما كانت كتائبه تجتاح المدن العربية السُنية السورية، وتنفذ مجازر على الهوية. فيما بعد اعتذرت الوسيلة وسحبته. واعتبر مراقبون أن ذلك نتيجة اختراق من مديرين وإعلاميين أقلويين لهذه الوسيلة الإعلامية السعودية!؟

وهذا تكرر في أكثر من وسيلة إعلامية ناطقة بالعربية وعدة وكالات أنباء أيضاً. كذلك رفضت الكنائس في حمص تأبين المخرج باسل شحادة (مسيحي) الذي قضى وهو يوثق جرائم ميليشيا أسد.

المأساة!

فَقَدَ مصطلح أقلية وأكثرية حقيقة ميزان القوة والضعف الذي كان يتضمنه في ظل قوة الدعم بالمال والسلاح الذي يُقدم لطرف ويُحرم منه آخر. كما إنه بات واضحاً أن القوى الغربية المتحكمة في المنطقة سحبت القرار من مراكز القوة والنفوذ والحكومات السُنية العربية. وبالمقابل أعطت لحلف الأقليات ما يحتاجه من مبررات ودعم دولي، ليشنّ حرباً شعواء على السُنة العرب تدمّر حواضرهم ووجودهم وتستهدف شخصياتهم بالتهجير والسجن والتقتيل.

والحقيقة الصارخة ظلماً أن السُنة العرب في بلاد الشام والعراق يتهاوون نزولاً على منحدر سريع ليصبحوا طبقة دنيا مُهشّمة في المنطقة، على الرغم من تصورهم لأنفسهم أنهم الحكام الطبيعيون للبلاد قادوها في أصعب الأوقات إلى برّ الأمان لجميع سكانها، ولو كانوا طائفيين وعنصريين ما عاشت تلك الأقليات إلى اليوم في المنطقة!

إنهم يعانون بشدة من الحرب الدائرة عليهم، ومن اغتيال قياداتهم وتهجيرها منذ أكثر من ٧٥ عاماً، كما حدث للسُنة العرب في فلسطين على يد الميليشيات الصهيونية ١٩٤٨، فيما لم يُصب المسيحيين والدروز الفلسطينيين ما أصابهم؛ وكذلك ما حدث لهم في سورية على يد النظام الطائفي منذ آذار ١٩٦٣، الذي هجّر واغتال وهمش مئات آلاف النخب منهم. وبعد ذلك عام ١٩٨٢، قتل وهجّر وشرّد ١٢٠ ألفاً منهم في حماه وجسر الشغور وحلب.

أما في العقدين الأخيرين فاشتدت المحن على السُنة العرب كثيراً، ففي العراق وسورية قضى نحو ٦ ملايين منهم قتلاً، كما تهجّر نحو ٢٠ مليوناً منهم الى أصقاع الأرض، كما فككوا شركاتهم ومنازلهم وأحياءهم وحواضرهم أقدم مدن الأرض: بغداد وحلب والموصل وحمص والأنبار ودير الزور وصلاح الدين والرقة.. بسبب القصف الدائم، كذلك تفككت عائلاتهم بسبب التهجير القسري، كل فرد منهم في دولة ويحمل جنسية مختلفة عن أخيه! وأيضاً سُفحت شخصيتهم السياسية أمام العالم كله وحضورهم الحضاري بعدما نسبوا داعش الإرهابية المتخلفة لهم، فيما داعش صناعة غربية شارك فيها حلف الأقليات في المنطقة، إيران وباقي الطوائف، وقد عانى منها السُنة العرب الأمرّين أكثر بمئات المرات من معاناة أية مجموعة سكانية أخرى. كما إن اغتيال الشخصيات السُنية العربية جعلها

تعيش أزمة قيادة قد يمر وقت طويل قبل أن تشفى منها (٢)، إن لم يتدخل القدر وحده، وهذا سيقلل حتماً من قدرتهم على توليد السلطة السياسية وإعادة الإمساك بزمام البلاد وبالتالي دفعهم ودفع دول المنطقة إلى المجهول!

***

باختصار العرب السُنة في منطقة بلاد الشام والعراق ولبنان وفلسطين في وضع كارثي، حيث يُنظر لهم على أنهم ليسوا مواطنين وإنما محتلون تاريخيون ومعادون وسكان لا يُؤمن جانبهم، بينما هم يعانون في الوقت نفسه من الحرمان الهائل، وفقدان حافز المواطنة، إضافة إلى الاقتلاع من المنطقة، لذلك نستطيع أن نقول بكل معاني القول إن السُنة العرب يعيشون اليوم أسوأ هولكوست مرّ على تاريخ البشـــرية المكتوب، بمعرفة وتواطؤ أممي.

حاول العراقيون واللبنانيون من جميع الطوائف مؤخراً أن يقوموا بثورة على الطائفية أُسوةً بالثورة السورية؛ ففي العراق انفجر ألم الشيعة بعدما أدركوا أن السياسات الطائفية لم ولن تجلب إلا الفشل والموت والدمار! ولنفس السبب انطلقت المظاهرات في لبنان مؤخراً والمتظاهرون في كلا البلدين متشابهون للغاية، إذْ تخلّوا عن ثقتهم

بالنظام الطائفي، ولم يعودوا يثقون بوعوده بالتفوق العقائدي المزعوم، وأدركوا أن هذه النظم الطائفية لن تقدم لأي مجموعة في البلاد عيشة محترمة. وحدتهم المشاكل السياسية ذاتها لذلك رفعوا ذات المطالب وذات الشعارات: إسقاط الدساتير الطائفية وإسقاط النخب الحاكمة وإسقاط النخب الداعمة لها والتي سخرت البلدين لخدمة مصالحها الذاتية. وهتف المتظاهرون بشعار واحد في كلا البلدين: "لصوص... مجرمون".

لقد فهموا أن قادتهم الطائفيين وشبكات رجال الأعمال والنخب الدينية والثقافية والإعلامية المتآمرة معهم مجرد مرتزقة يستبيحون الدولة التي لا تعنيهم لصالحهم الخاص، وأنهم بالبطش يتسيّدون عليهم فيما هم عبيد للغرب والإيراني؛ يطعمون شعوبهم عقائد وشعارات، فيما هم يسحبون ما تبقى من مقدرات البلاد إلى حساباتهم البنكية الخاصة.

إن خير طريق للقضاء على حلف الأقليات هي المواطنة الحقة والتعبئة السياسية لأجل هذه الغاية، وتغيير قواعد الحكم الطائفية الحالية إلى انتخابات حقيقية على أسس برلمانية صحيحة لا حزبية طائفية، واعتماد مبدأ الأكثرية والأقلية السياسية والمصالحة الشاملة في البلاد.

ليس هناك أمل من مخاطبة النخب الطائفية الحاكمة أو الداعمة لها بأنواعها، فهؤلاء ينتظرون الوقت المناسب حين تحترق البلاد عن آخرها ليهربوا منها، وقد تجهزوا هم وعائلاتهم لهذا اليوم بالمال والجنسيات الأخرى والملاذات الآمنة لما سيتبقى لهم من عمر.

الهوامش:

(١) حاصر دروز السويداء ميليشيات الشبيحة لاحقاً وتظاهروا ضد النظام ورفعوا مطالب تحسين المعيشة. أما دروز لبنان فبسبب عداء جنبلاط لنظام أسد وقفوا على الحياد.

(٢) اغتيال رفيق الحريري يأتي ضمن هذا المطلب.

أورينت نت: ٢٠٢١/٦/٦

دور القبائل العربية في سورية

بعدما انهارت المفاوضات للمرة الثالثة بيني وبين العميد مناف طلاس بوصفه ممثلاً لبشار أسد آنذاك في ٢٠١٠/٨/٤، سأتكلم عن الموضوع بتفصيل أكثر في مقالة قادمة، وعرف حينها أني لن أوافق على شروطهم للشراكة، وفي محاولة لكسري ولتقديم عربون ولاء لنظام أسد طلب مني طلاس "تريلّا"/شاحنة تتسع لعشر سيارات جيب لكزس، سعر السيارة الواحدة آنذاك نحو ١٠٠ ألف دولار، أقدمها للحرس الجمهوري وأيضاً خمسة ملايين دولار أقدمها لإحدى القبائل في منطقة الحسكة، رفضت طلبهم أيضاً وقلت: "لن أدفع، أنا غادرت سورية بعد تخرجي من الجامعة ولم أعمل في سورية ولم أجن فيها فلساً واحداً"!

القبلية بين الإنكار والاعتبار

- لم تَخلُ أجزاء مذكرات لورانس العرب (أعمدة الحكمة السبعة)، من الحديث المتكرر عن رِشاً كان يقدمها للقبائل العربية على طريق

تحرير الحجاز وسورية من العثمانيين، لجذبهم وحثهم على المشاركة والقتال إلى جانب الشريف حسين وأولاده؟!

حوران أول من أطلق شرارة الثورة على النظام الطائفي العنصري الفاجر حتى النخاع إجراماً وفساداً، طالب الشباب رجالاً ونساء زعماء العشائر بالوقوف مع الثورة ودعم مطالبهم. لم تمنع انخراطات رؤساء العشائر في مصالح آنية مع النظام من الثورة عليه ورفض سياساته الإقصائية والمهينة. وحدها العشيرة/ القبيلة كانت آخر من بقي لديها بضعة أنفاس منعتها من الانهيار أمام سياسات النظام المكبلة لكبح الشعب السوري وإذلاله وازدرائه، فيما كثير من سكان الأحياء المتحضرة في عموم سورية خافت من الثورة عليه، مع كرهها له، لأن أفرادها يدركون أنهم مُنْبَتّون لا ملجأ لهم يجمع قواهم في قوة قادرة على المنعة عنهم!

أما شرارة الثورة فراحت تمتد من منطقة عشائر وقبائل إلى أخرى من حوران جنوب سورية إلى حمص في وسطها إلى إدلب وريف حلب في شمالها إلى عموم مدن شرق سورية، ولا يخلو الأمر من بعض الأماكن الحضرية أيضاً.

بين هذه الحالة التي تمثل أقصى النبل والتضحية وبين المثالين السابقين اللذين يمثلان أخس أنواع التخلي والارتزاق، هناك شيء ما خفي؛

شيء ما، لا يريد من يتحكم بالمنطقة أنْ ندركه وأنْ نتخذه سلوكاً في هذا المضمار؟!

حينما يتبادر إلى أذهاننا مصطلح عشيرة أو قبيلة فإن أول ما يخطر على تفكيرنا: البدائية والعزلة والتشدد وكره الغرباء وكراهية الآخر وعدم الثقة به والجهل والغزو والانتقام والثأر، وللبعض البساطة والسذاجة، ربابة ومهباج وفنجان قهوة وشيخ عشيرة مغرور وهيل وجمل! وللبعض الآخر قيم مطلقة كالكرم والنخوة والتضحية والشعر والحصان؛ فيما الاقتصاد رعوي إبل وغنم وماعز والسعي على منتجاتها؟!

ومع هذه الدوغمائيات التي في أذهاننا تغدو القبيلة والسياسات القبلية خارج أي نسق حضاري، وسكانها لا يعرفون من الحضارة والإدارة والسياسة شيئاً؛ تغدو شرّاً مطلقاً، أو نكتة أو حكاية عابرة بين كثبان الرمال! لكن الحقيقة أنه بين هذه الدغمائيات تغيّبت الحقيقة عن أذهاننا بأن القبائل العربية مجتمعات بشرية طبيعية تتأثر تتطور تنكص.. إلخ. بين هذه الدوغمائيات التي أخذناها عن المستشرقين تكمن قوة مغيّبة لم نعرف كيف نستخدمها بالطريقة

الصحيحة، ولكن عرف العدو كيف يستثمرها بالرشوة والإيقاع لما فيه شر الوطن.

إذاً لا يمكن الإنكار أن معظم النخب الحضرية العربية تسيء فهم طبيعة القبائل إلى حد كبير. وهذه النظرة الخاطئة للقبائل على أنها بدائية وعنيفة ومعزولة لها بالفعل آثار ضارة على بناء السياسة لمجتمعاتنا وعلى استقرارها ووحدتها السياسية والاجتماعية.

القبيلة مسألة حتمية وواقع تاريخي لا يمكن تجاهله كما إن لها جاذبيتها، وضرورتها أهم ضرورة لَمسناها هذه الأيام، ففي انفلاش فقاعة ما كانوا يدّعونه دولة وحكم الدولة، عاد كثير من التجمعات والأفراد في سورية إلى القبيلة لتكون ملجأهم وحمايتهم من الظروف القاسية، من توحش سلطة قمعية طائفية، من فساد يملكُ دولة امتص خيراتها حتى أجهدها وأمعن إجراماً بها حتى فتّتها، من فئة طائفية تدّعي أنها تحكم باسم الدولة وباسم الشعب، لكنها اضطهدتْ أفراد الشعب وجعلت الدولة سجناً وأَسراً لسكانها، بعدما أقنعتهم بالانتماء للدولة وعندما فعل أغلبهم أخذتهم بالبطش منفردين لا سند ولا عضد! وأمامَ توحّش الدولة وحدها تكون القبيلة آخر حصن لمقاومة تسلط الدولة وتسلط المركزية، وهذه أيضاً سيكون لنا معها شأن في مقالة قادمة.

واقع القبيلة من حكم أسد إلى الثورة ومخرجاتها

بعد نهاية الانتداب الفرنسي على سورية، كانت القبائل التي قاد كثير من رجالاتها انتفاضات على المحتل الفرنسي جزءاً من الحكم الوطني الذي حكم سورية بالتوافق بين جميع مكوناتها. لكن انقلاب حافظ أسد الطائفي أعاد التعامل مع القبائل السورية ضمن سياسة الاحتلال، وذلك عبر استخدام سياسة العصا قوة الميليشيات الطائفية/الجيش وجزرة الرِّشا بالمال والمناصب، كما قدمْنا في روايتنا مطلع المقال.

لعب الشباب الثائر دوراً قوياً في حشد عشائرهم ضد المجرم أسد ونظامه وميليشياته، كما لعبت العشائرية دوراً أساسياً في توسع الاحتجاجات والمظاهرات لتشمل عموم سورية، فشيوخ القبائل يتمتعون بسلطة كبيرة ولهم احترامهم بين الشباب، كما إن لديهم من الحكمة ما يجعلهم متفاعلين مع رغبات أفراد قبيلتهم، لذلك أعلن عدد كبير من شيوخ القبائل انحيازهم للثورة ضد النظام؛ بعضهم ظل خائفاً متردداً ينتظر الكفة الراجحة، والبعض في البداية دعم النظام من مبدأ الرشوة والمنفعة الخاصة، لكنْ كثير من هؤلاء ارتدّوا لدعم الثورة خوفاً على مكانتهم التي بدأت تتراجع في عيون شباب القبيلة.

الصّلات القبلية التي تمتد من سورية حتى دول الخليج والعراق ساعدت على تدفق الأسلحة والأموال إلى سورية، ولاحظنا سقوطاً مريعاً لحدود سايكس بيكو بالمعنى الحرفي لكلمة سقوط، وهذا ما جعلها قادرة على مواجهة الميليشيات الطائفية الأسدية والشيعية الإيرانية اللبنانية العراقية معاً، ولم يكسرْها إلا تمدد داعش خصوصاً شمال شرق سورية وما جرّ معه من غارات للتحالف وروسيا مزقت العشائر وأضعفتها، وكذلك الإجراءات الشديدة لإيقاف دعم أفراد القبائل الخليجية خوفاً من اتهامهم بدعم فصائل متشددة.

لذلك بعدما جمعت الثورة شباب العشائر أدت تلك الهجمات القاسية والحصار الأقسى إلى هجرة كثير منهم وتشتت العائلات وتقلّص الارتباطات التضامنية التقليدية والدعم من إخوانهم في الخليج. فواجه العديد من زعماء العشائر في المنطقة صعوبة في إثبات قوتهم ونفوذهم، كما ظهرت نزاعات عشائرية جراء التنافس على اقتناص أكبر قدر ممكن من غنائم الحرب الدائرة في المنطقة ومنها حقول النفط والغاز، وكذلك امتيازات الانتماء إلى كُل مدعومة من الدول ذات النفوذ كـ (قسد) الكردية المدعومة أمريكياً، وميليشيات (الجيش الوطني) المدعومة من تركيا.

القبيلة والمنظمات المتطرفة

ينافس أمير الجماعات المتطرفة شيخ القبيلة وينزع منه سلطته على قبيلته، لذلك القبائل أهم سلاح في وجه الجماعات المتطرفة. وفي روايتين لتشكيل الصحوات تقول الأولى: إن الأمريكان أهملوا القبائل في العراق، لكن شيوخ العشائر بعدما عانوا طويلاً من تمدد وسطوة الجماعات المتطرفة لجؤوا إلى الأمريكان وطلبوا منهم التعاون لمقاومة مدّ الجماعات المتطرفة ومنهم الدواعش ومدّهم بالسلاح اللازم، وبموجب ذلك تشكلت الصحوات؛ أما الرواية الأخرى فتقول: إن الأمريكان اخترقوا شيوخ القبائل وجندوهم لمحاربة الجماعات التكفيرية، مع ميلي للرواية الأولى، اعتبر الأمريكان أن القبائل والعشائر شركاء أساسيون في الحرب على المنظمات المتطرفة وأخذوهم وكلاء محليين في هذه الحرب وشكلوا معهم ما سمي الصحوات، حيث تلاقتْ مصالح الطرفين في الإطاحة بالقاعدة في العراق.

لكن تأثيرات النظام الأسدي طيلة نحو ٥٠ عاماً أدت إلى انقسام العشائر السورية والنقمة على بعضها ما جعلها أضعف من أخواتها في العراق، وبالتالي غير قادرة على تشكيل جبهة موحدة في مواجهة داعش والنصرة، وفعلاً خسرت قبيلة الشعيطات نحو ألف من

شبابها عندما خاضت المعركة وحيدة ضد داعش، لذلك اعتمد الأمريكان على الأكراد وتبنوهم كوكلاء محليين بدلاء، لأنهم أكثر تنظيماً ووحدة وقدرة على التحكم والسيطرة التي افتقدتها القبائل العربية في سورية.

نتيجـــة:

من رحم القبيلة خرج قادة شجعان وأنبياء وحكماء قادوا أُمماً. ومن رحم القبيلة خرج أساتذة جامعات وأطباء ومهندسون وضباط ومحامون وبناؤون قدموا خيراً كبيراً للشعب السوري. لذلك ساذج وحده من يطبع القبيلة بالسذاجة والمكر والتخلف والانعزال. لكن واقع القبائل يشبه حال المجتمع السوري كلّه من التمزق والفساد، مع ذلك أجد أنهم لا يزالون أهم عامل يمكن الاعتماد عليه في أن يكونوا اللبنة الأولى لإعادة الاستقرار إلى سورية وإعادة تشكيل المجتمع السوري. فإذا كنا نأمل أن نرى هذا اليوم علينا فهم ماهية القبائل ونقاط قوتها وتعزيزها لتكون عامل جمع بدل أن تكون أحد أسباب مشاكلنا السياسية، فالقبيلة يمكن أن تساهم في الحل، فكما كانت الملجأ لحماية أفرادها من عسف أكثر النظم في التاريخ إجراما يمكن أن تكون ملجأ لحماية الأمة السورية من النهاية الحتمية إن بقي الحال كما هو عليه، بما تملكه القبائل من ولاء وصلات. فلو عرفنا أنه "لا

يزال حوالي ١٥٠ مليوناً من أفراد القبائل يعيشون في أكثر من ٦٠ دولة حول العالم داخل مجتمعات غير قبلية ويختلطون بها، يتعلمون منها منذ قرون ويتفاعلون أيضاً مع بعضهم البعض، ما جعلهم ينجزون ويزدهرون"، ولو أيضاً تذكرنا أن كثيراً من أمم الشرق من أقصاه إلى أقصاه بما فيها العرب والترك قادتهم قبائلهم لتشكيل أعظم الدول عبر التاريخ وحولتْهم إلى أمم مزدهرة، لعرفنا أن الموضوع يستحق الخوض فيه والعمل عليه.

***

أَدركَ مَنْ خَطّطَ نظام حافظ أسد أنه نظام طائفي يمثل أقلية تحكم أكثرية بالقوة؛ لذلك هو لم يدفع أموالاً لشراء ولاءات كما هو متعارف في السياسات غير الديمقراطية، وإنما دفعها ضمن سياسة العامة لتجزئة المجتمع السوري إلى عصبيات صغيرة، تجعل من أقليته المنتمي لها أقلية بين أقليات. ونجح النظام أينما وُجدت العصبيات وكلما كانت العصبية أقوى كان نجاحه أقوى أيضاً؛ لذلك رأينا نجاحاً عظيماً في العصبيات الطائفية بسبب السمات المتشابهة بينهم؛ وفعلاً كان له نجاح كبير أيضاً بين القبائل والعشائر لقوة عصبيتها. فلذلك سعى في تجزئتها واستغلال تناقضاتها، كما حصل في حوران طيلة نحو

نصف قرن يمكن إطلاق عليه نصف قرن الكراهية بين العشائر، كما سلط على بعضها سُقاط أهلها وجعل منهم شيوخاً، لكن القبائل تعرف الأصيل من الساقط، وما أسهل أن تطرد الخبيث وتجتمع على الأصيل. وجميعهم جعل مرجعياتهم أجهزة المخابرات التي تلاعبت بهم وسيّستهم حسب مشيئتها. أما في الأماكن التي تضعف العصبيات فيها، فقد كان تأثير نظام أسد ضعيفاً، لذلك سلم تلك المناطق للإهمال والعزلة الجغرافية، وخير مثالٍ مناطق إدلب وغربها وشمالها.

إن أعظم نقطة للبداية هي إعادة تأهيل زعماء القبائل الحقيقيين ليدركوا أنهم اليوم الأقدر والأكثر جدارة لإعادة اللُّحمة إلى سورية ورأب تصدعاتها، وأن عليهم أن يكونوا قادرين على التفكير بطريقة وطنية حقيقية لا تتنكر لانتماءات تفاصيل الهوية، والقبلية إحداها، لكنها لا تتصرف في نطاقاتها الضيقة إنما تعززها لتوحّد المجتمع وتخلق دولة لا مركزية عادلة للجميع، بعيدة عن التنافس على المكاسب المحدودة والتبعية لهذه الدولة أو تلك، وأن يكون تنافسهم فيما بينهم في إطار مؤسسة القبيلة التي حمتهم طيلة قرون، حتى نصل إلى مؤسسات دولة تدير التنافس بطريقة وطنية واعية.

لذلك على شيوخ القبائل أن يجدوا طريقة واعية للتفاوض على حل خلافاتهم، وأن يستوعبوا أبناء عشائرهم بينهم. وفي لحظتنا الحالية

أرى أنهم الأقدر أيضاً على تشكيل قوة أمنية لضبط الأمن في المناطق المحررة من ميليشيات أسد، فبينهم عشرات الضباط المنشقين القادرين على هذه المهمة بكفاءة، وهم قادرون على مواجهة الجماعات المتطرفة والجماعات الانفصالية وعصابات الفساد والسرقة، وتحقيق الأمن الذي على أساسه يمكن البناء والتطور.

كنتُ قد أصدرت بياناً لعشائر حوران على راديو وتلفزيون أورينت قبل ثلاث سنوات (١) ، أيار/ مايو ٢٠١٨، نبهتهم فيه إلى مخطط لتذويب عشائرهم بالتهجير والقتل، وأنبّه جميع العشائر اليوم أن المهمة لا تزال قائمة!

أورينت نت: ٢٠٢١/٦/١٤

هامش:

(١) نُشر البيان على موقع أورينت نت بتاريخ: ٢٠١٨/٥/٣٠ تحت عنوان: (غسان عبود يصدر بياناً لأهالي حوران.. ويحذر من كارثة كبرى!) وقد جاء في نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السوريون الأحرار في درعا والقنيطرة، مع بداية اشتعال الثورة في آذار ألفين وأحد عشر، ومع أول عملية إجرامية عسكرية من ميليشيات أسد الطائفية ضد أهل درعا، زار مكتبي وفد من وجهاء حوران، وكان أسد وماكينته الإعلامية يشيعون أن تلفزيون

أورينت مفلس وسأغلقه قريباً كما تتذكرون، وعرض وجهاء درعا عليّ مالاً يمكّنني من متابعة تشغيل تلفزيون أورينت حتى لا يضيع دم أبناء حوران هدراً، ظنّاً أن الإشاعة صحيحة، وبالحرف قالوا: إن نساء حوران لا يجدن حرجاً في خلع حلّيهن وإعطائها لك لتبيعها وتتابع عمل أورينت ولا توقفها، فأجبتهم: لست محتاجاً إليها الآن، لكن عندما أحتاجها سأطلبها. والحمد لله لم أطلبْها لا منهم ولا من غيرهم، وحتى تاريخ هذه اللحظة أؤكد أن المجرم أسد ينصر على أهل درعا والقنيطرة.

فالدول المتنفذة أعطت أسد الضوء الأخضر لشنّ عمليات عسكرية بمساعدة الطيران الروسي طيلة هذا الصيف لإعادة سيطرته على درعا والقنيطرة، وأن السبب الرئيسي هو أن الدول المحاذية لا تستطيع تحمل فوضى السلاح وفوضى عدم تنظيم حياة السكان القريبين من حدودهم، وخصوصاً أن هذه الفوضى تدخل سنتها الثامنة، كانت إسرائيل تأمل آخر أربع سنوات أن يتحسّن الوضع الأمني في حوران والقنيطرة وأن تتوحد القوى المسلحة في قوى أمنية تساعد الناس على الحياة، وبالتالي لا تخشى إسرائيل من انفجار الوضع المأزوم على حدودها وتهديد أمنها بعشرات الآلاف من المرضى والمحتاجين والغاضبين، والذي حصل أن إسرائيل يئست من تحسن الوضع الأمني في الجنوب، لأن كثيراً من الكتائب الموجودة في الجنوب رفضت التوحّد واستمرأت الاستكبار في حكم بضعة أمتار من حوران، ولم تقبل بوجود مجالس مدنية لإدارة حياة الناس، وأحدها يتواصل مع حزب الله سرا ويجتمع مع الروس بوساطة قيادات معارضة من درعا كرئيس ونائب رئيس هيئة التفاوض، التي لم نرها فاوضت على شيء منذ تأسيسها، سوى على عودة درعا والقنيطرة لسيطرة ميليشيات أسد الطائفية، وذلك مقابل وعود أهمها جريان الراتب لرئيس الهيئة ومناصب له ولنائبه ولمن حوله، كما إن شيوخ العشائر وكبار العائلات تخلوا عن دورهم لصالح هؤلاء الأمراء الصغار، بدل أن يأمروهم بأن ينظموا شؤون حياة الناس، ولقد استغلت الدول المتنفذة في الشأن السوري يأس الإسرائيليين من استتباب الأمن على حدودها، فحملت هذه الدول تعهدات بشار أسد بحفظ أمن إسرائيل بدون الوجود الإيراني، وذلك مقابل السماح لميليشيات أسد

بالدخول إلى درعا والقنيطرة بقصف جوي تمهيدي روسي باتوا يطلقون عليه ضمانات روسية! كما حصل في كل المناطق السورية التي دمرت وهجّر أهلها كالغوطة والقلمون، التي هدّمت المساكن فيها على رؤوس ساكنيها ثم بعثرت المقاتلين، قبل أن تدخل ميليشيات أسد الطائفية لتبيد وتعتقل حتى الموت، وتهجر من تبقى إلى الشمال معدوماً تذله الحاجة وضعف قدرة أهل الشمال عن الكرم، وإن تبقى بضع سكان ممن والى أسد أو صمت سيعيش تحت حكم شريعة الشبيحة، السلب والنهب والاعتقال والاغتصاب والإذلال، وبالضمانات الروسية ذاتها!

إن سيناريو النهاية لم يعد خافياً، رأيناه طيلة الأشهر السابقة، ولا يفصلنا عن هذه النهاية ولا يمنعها عنّا اليوم إلا تحقيق أمرين: الأول: وحدة الفصائل المقاتلة وحدة جدية حقيقية وليست مزيفة، فالفصائل مكشوفة الآن، وإصدار بيان بالتصدي مهما كلف الأمر، وحصار الخونة ومنعهم من التسليم بمسرحية استسلام مفتعلة. والثاني: اجتماع شيوخ العشائر وكبار عائلات حوران والقنيطرة وأهل النفوذ الاجتماعي والديني والمالي بمجلس عظيم وأؤكد على عظيم، يرفض اتفاقيات الدول بإخضاع المنطقة لميليشيات أسد، ويتعهد بالدفاع عنها ويتعهد أيضاً ببناء قوة أمنية تحفظ الأمن وتؤسس مجالس مدنية ومحاكم ودوائر تدير شؤون الناس، وإن سقوط حوران والقنيطرة كارثة كبرى، من حيث نهاية العشائر والعوائل التي تشكل عصب الوجود الحقيقي لأهل الأرض في تلك المنطقة، وتحولهم إلى أفراد مغلوبين لاجئين يهان فيهم الكريم، ويستقوي الأنذال على القوي فيهم قبل الضعيف، فلا تتهاونوا في الدفاع عن هذا النسيج من التفكك لأنه رمز بقاء السوريين في تلك المنطقة، والأمر الخطير الآخر أن من يجلس على حدود إسرائيل تكون له حظوة دولية إن لم يشكل خطراً على أمنها وهذه حقيقة سياسية لا يمكن القفز فوقها، فلندرك أن علينا ألا نعطي الفرصة لأحد كي يعيد هذه الحظوة لأسد، بحجة تشتت فصائل الجنوب وتشرذمها، والمدن السورية التي يحكمها أسد بقوة الروس وإجرام الإيرانيين كدمشق وحماة واللاذقية والسويداء هي مدن تحت احتلال القهر بالقوة ولا تدين لأسد بالولاء، وما ترونه من مشاهد نشوة المواخير ما هو إلا نتاج بضع ألوف من

أتباع أسد، كما يروي المشهد المتكرر ذاته، وهو لا يعبر عن الملايين المغلوبين على أمرهم، المحاصرين بين الخوف من البطش أو الخوف من الفوضى!"

كنت ابنكم البارّ ولا أزال وسأبقى أدافع عنكم وعن أحلامكم حتى آخر نفس. لم تغرني المطامع ولم تخفني التهديدات وقدمت مثلكم دماً ومالاً وألماً وتهجيراً ولجوءاً ولا أزيد عليكم، هي لحظة الحقيقة الآن إمّا أن تكون هذه الكلمات آخر ما تسمعونه مني قبل الحسرات وضياع كل تضحياتنا، وإما أن تكون هي لحظة الاستدارة الحاسمة والنصر ليس ببعيد. فأسد ضعيف لكنه يستقوي بفرْقتنا وتشتت آرائنا وتجرّئه على كل القيم التي تجمعنا، أبوه باع الجولان وهو يبيع سوريا شققاً مفروشة للدول الطامعة، مقابل أن يتركوا له فرصة حكم جزء من سورية يذيق أهلها ويلات النهب والقتل والاعتقال والتهجير والإفقار والجوع والإذلال الطائفي، نعم في هذه اللحظة نستطيع فعل الكثير، ولا تقولوا لديهم جمع ودعم وطائرات وجيوش ومرتزقة. فالدول حولنا تدرك قوة كلمتكم الموحدة. ولا يموت شعب إلا إذا استسلم، وإن كانت لكم كلمة موحدة سيسمعها الله عز وجل ويسمعها من يجب أن يسمعها".

والنصر للشعب السوري الحر الموحد... والسلام عليكم ورحمة الله".

رجال الأعمال بين الحقيقي والزائف

١- سورية من رجالات الاقتصاد الوطني إلى سرّاق الثروة الوطنية

قابلتُ اللواء هشام اختيار رئيس المخابرات العامة في سوريا آنذاك (١) ٢٠٠٣/٨/٤، بناء على طلبه للنقاش بخصوص تجارة إعادة التصدير، التجارة التي عُرِفتُ فيها عالمياً، حول إمكانية الاستفادة منها في سوريا. دام لقاؤنا نحو ٤ ساعات حضره شخصان: الأول عزيز ولا يزال والثاني كان عزيزاً لكنه اختار الجانب الخطأ من القيم والتاريخ! (٢)

في بداية اللقاء قدمت له معلومات عامة، وحين انقضت نصف ساعة استأذنت بالانصراف لأن مدير مكتبه كان قد أكّد على مدة اللقاء، كما إن رئيس الوزراء آنذاك مصطفى ميرو كان ينتظر الإذن بالدخول على اللواء. فقال لي بالحرف الواحد: "سيبك من هذا الكلب (في إشارة لميرو)، اجلس أريد شرحاً أكثر تفصيلاً". عندها طلبت منه الأمان لأتحدث كما يتطلب الموضوع دون خوف، أو مواربة أو

مجاملة أو عقاب؟ قال لي أيضاً بالحرف الواحد: **"داخل مكتبي ليس هناك خطوط حمراء قل ما يجب أن يُقال في هذا الشأن ولا عليك"!**

عندها أكملنا الحوار لنحو ثلاث ساعات ونصف دون توقف، بالاستعانة بخرائط مفصلة ومراجع قانونية، استدعى خلاله خبيراً، وتحدث بالهاتف مع عدد من الخبراء من البنك المركزي والمناطق الحرة ووزارتي الاقتصاد والتخطيط. عندما طرحت متطلبات المشروع وشرحت معوقاته وكانت كالتالي:

١- الفساد والتعدي على حقوق الناس.

٢- الانغلاق وعدم الانفتاح التجاري على العالم، ووجوب تسهيل دخول الجنسيات الأخرى إلى البلاد وإعطائهم ضمانات استثمارية.

٣- البدء بالبحث عن مستثمرين لبناء مرافق خدمية أولها لا أقل من نحو ١٠٠٠ فندق.

٤- تحسين البنية التحتية لمرفأي اللاذقية وطرطوس ورفع كفاءة إدارتهما سواء عبر منحها لشركات بارعة بهذا الخصوص وهو الأفضل في حالة انتشار الفساد فيهما أو وضع خطة لمحاربة الفساد واستقطاب الكفاءات الوطنية.

٥- إعطاء الأولوية لسورية وتنفيذ سياسة قطرية هدفها الشعب السوري ذاته أولاً.

في نهاية الاجتماع قَدّرنا أنه لو تم إنشاء منطقتين تجاريتين حُرّتين في اللاذقية وطرطوس وأخريين في حلب ودمشق وثالثة في الحسكة وربطهم بالطرقات الدولية الثلاث التي تمرّ بسورية:

أ- الطريق بين الموصل وحلب إلى المتوسط.

ب- طريق بغداد حمص دمشق.

ج- طريق باب الهوى شمالاً نصيب جنوباً.

سنصل إلى حجم تبادل تجاري ضخم وإعادة تصدير ربما يساوي أو يزيد عن حجم التبادل التجاري لدبي، وستكون المنطقتان دبي وسوريا متصلتين ومكمّلتين لبعضهما: فدبي لوجستياً أفضل وأسرع موقع للوصول براً وبحراً إلى شرق ووسط أفريقيا وشرق ووسط آسيا والخليج العربي والشرق الأوسط وبلاد بحر قزوين وشرق أوروبا، أما سوريا: فلديها أفضل موقع يربطها بحراً وبراً ويصلها بدول المتوسط العربية والأوروبية وغرب أفريقيا، وكذلك غرب وشمال أوروبا ودول البحر الأسود والخليج العربي بسبب وجودهما على نقطتين استراتيجيّتين متقاربتين ولكن مختلفتي الموقع، ما سيمنحهما تكاملاً في

خطوط الملاحة البحرية والبرية خصوصاً، وأكدت له آنذاك أنه لو أتيحت الظروف السياسية لإسرائيل وأنشأت مناطق حرّة، وكذلك لتركيا، على المتوسط - إلى اليوم المتوسط خالٍ من المناطق التجارية الحرّة- لما أتيح لنا كسوريين العمل لديهم حَمّالين!

إن قوة المشروع في الدولة التي تأخذ قصب السبق، كما إن المشروع لو تم على أسس صحيحة شفافة سيتحسن الاقتصاد السوري أضعافاً، وكذلك سترتفع قوة الليرة السورية، كما إنه سيوفر فرص أعمال تجارية هائلة للسوريين، وسيوفر أيضاً عدة ملايين من فرص العمل بدخول تتراوح بين الممتازة والمتوسطة! إنه طريق الحرير بصيغته الجديدة التي برع السوريون في صيغته القديمة منذ نحو ٣ آلاف عام، التجارة وخدمات القوافل التجارية على طريق الحرير الواصل شرقاً من كيوتو العاصمة القديمة لليابان إلى روما غرباً والجزيرة البريطانية! السوريون ليسوا أهل حرب وصناعات وإنما أهل تجارة وحرف وخدمات، هذه بضاعة السوريين وسرّ نجاحهم!

بعد ٤ ساعات وقف اللواء اختيار حائراً وأخذ دقائق قدّم لنا فيها شاياً، ثم قال: "لكن إسرائيل ستخترقنا وسيكون صعباً علينا الصمود والمقاومة في وجهها". كانت المرة الأولى التي يرد فيها ذكر إسرائيل خلال لقائنا! أدركت عندها أنه استخدمها حجة لأن المشروع أكبر

من طموحاتهم، إنهم يسعون إلى مشروع صغير يذرّ الرماد في عيون السوريين حول الرئيس الإصلاحي الجديد. مشروع بعنوان براق ومضمون فارغ. إنهم يخافون أن يصبح السوريون ذوي دخول لا تُحوجهم للحكومة.

إن المشروع لو حدث سيُطيح بالمشاريع الطائفية ويوحد السوريين بطوائفهم بالغنى وبالطموحات. بالنهاية إن المشروع لا يخدم نظامهم الوظيفي الذي خُلق ليدمرِ سورية والمنطقة! لكن مع ذلك قلت له بالحرف: "إسرائيل دولة تَصنعُ أجهزة دقيقة ودخلت دائرة العالم الأول. إسرائيل تعرف ألوان ملابسنا الداخلية بأجهزة التجسس المتطورة لديها، كما إن العنصر البشري في مجال التجسس قلّ الاعتماد عليه، وأيضاً عن أي مقاومة وممانعة تتحدث وإسرائيل وشعبها في شغلهم وتطورهم، بينما السوريون يشاهدون أن أغلب الاختناقات المرورية مردّها للأعطال المفاجئة للمركبات العسكرية على الطرقات العامة؟!

وكذلك بينما أنتم لا تزالون تمنعون التواصل بأجهزة الفاكس وتمنعونها حتى عن أصحاب التجارة والصناعة، وتلزموهم بتقديم طلبات لأجهزة الأمن تصدر الموافقة عليها بعد أشهر! هل لك أن

تشرح لي كيف سيصمد أعزل متخلف فقير أمام عدو متطور بأحدث العلوم والأسلحة؟!

إن الجارة تركيا قبل بضع سنوات كان مواطنوها يُهرِّبون المازوت والسكر والقهوة من سوريا إلى تركيا، لكن منتجاتها باتت تصل إلى سورية ودول الخليج اليوم! بكل الأحوال أدركت منذ طلبتني أن المشروع ليتم تنفيذه يحتاج إلى إعادة إدارة سوريا بطريقة مختلفة لكني قَدّرتُ أن سوريا بقيادة (وضعت جميع الألقاب الرسمية للطائفي الأهبل بشار أسد قبل النطق باسمه)، لكن يبدو أن طريق السوريين طويل ليبدؤوا"!؟ غادرنا بعدما أهداني خنجراً مفضضاً مذهباً.

تواصلنا بعدها مرتين، لم يك لهذا الموضوع علاقة بهما. أيضا حينما أعلنت عبر تلفزيون أورينت الثورة على نظام أسد الطائفي بتاريخ ٢٠١١/٢/٢، خرجت على تلفزيون أورينت وتحدثت عن أهمية تجارة إعادة التصدير للشعب السوري، وكيف ولماذا رفضه النظام؟

بعد انتهاء المقابلة حاول اللواء علي مملوك، آنذاك ولا يزال رئيس المخابرات العامة في سوريا، التواصل معي عبر إعلامي مقرب من الإعلامي المعروف أيمن عبد النور، وكان ذلك في اتصال هاتفي. حيث أكد أنهم مستعدون للنقاش ببدء المشروع، وأعجبهم طرحي في

القسم الأول من المقابلة وسيتجاهلون انتقاداتي القاسية لهم على الشاشة في النصف الثاني، فرفضتُ الحديث معه وقلت لأيمن: "قل له إنهم أغبى من أن ينفذوه". فردّ ضاحكاً: "إنه على الخط يسمعك"!

***

أكتبُ عن الاقتصاد السوري ورجالاته وتأثيراته وتعرّجاته وانحطاطه في العصر الحديث من وجهة نظر رجل اقتصاد وأعمال سوريّ عاش الواقع لحظة بلحظة وعرف أحداثه، وبصفته تلك قابل رجال الحكم في سوريا على اختلاف مناصبهم الأمنية والسياسية والتنفيذية والحزبية، صغارهم وكبارهم، فأدرك البنية التي تنتج تلك الأحداث والوقائع. إذاً لست أكتب من وجهة نظر باحث أو خبير أو مؤرخ اقتصادي أو أستاذ جامعي أو منظّر لفلسفة الاقتصاد السوري، وإنما أكتب من خلال تجاربي ومعرفتي.

لا يشكو الاقتصاد السوري من قلة في الموارد الاقتصادية الطبيعية (٣) كما إن موقع سورية الجغرافي مثلما حوّلها بغباء إدارة البلاد الحالية على يد أوباش العصر إلى ساحة حرب تتنافس الدول فيها على تدميرها، كان من الممكن لو تم استثمار موقعها الاستراتيجي ووضع الخطط الاقتصادية السليمة أن يكون موقعها أهم عامل على الإطلاق في ازدهارها وتحقيق عيش كريم لشعبها. وهذا فعلاً ما فعله الحكم

الوطني في فترة زمنية قصيرة أثناء حكم البرجوازية الوطنية، بين "الاستقلال عن فرنسا" ١٩٤٥ وتاريخ استحواذ العسكري المغامر جمال عبد الناصر على سوريا ١٩٥٨، ثم لغاية حكم العسكر الطائفي من أسد الأب إلى الولد، حيث وصلت سوريا خلال ١٣ عاماً فقط من الحكم الوطني لتحوز الرقم ٣٨ في قائمة الناتج العالمي.(٤)

سرّ تشنيع الحكم العسكري على التجار وتحميلهم مسؤولية الأزمات!

حظي التجار والرأسماليون عبر التاريخ في سوريا باحترام كبير من السوريين، ونظروا لهم على أنهم الحراس الحقيقيون للأمّة السورية، واعتبر السوريون في أمثالهم أن حكمة تجارهم واعتدالهم قادت إلى حماية الشعب السوري من غضب الغزاة الذين مروا على سوريا.

كل شعوب الأرض المسكونة المتحضرة تحترم طبقة أعمالها فهي تعرف أنها أهم ملجأ إن أرادت التطور والازدهار؛ والثورة الصناعية التي نشأت قبل ٥٠٠ عام خلقتها الرأسمالية، وليس الحكومات. فالرأسمالية وحّدت الكون ووصلت الشعوب ببعضها، وبنت مصانع الطاقة والنور والجامعات وشركات السلاح واستثمرت في تطوير الاكتشافات والعلوم. أما التاريخ الأبعد فتحدث لنا عن تجار وقفوا مع شعوبهم في الأزمات والفاقات الكبرى والحروب. وكذلك عن

حكام عظام أنشؤوا أو قادوا أمماً أعطوا التجار حظوة كبرى، واعتمدوا عليهم في تجنيب أممهم الفاقة والعوز وفي جلب البضائع للأسواق وتلبية حاجات الناس، والتنافس وتحويل الأسواق إلى مكنات لإنتاج المال والنفوذ للدولة وحكومتها.

***

أول من عاضد الرسول الأكرم محمد (ص) كانوا تجاراً، خديجة بنت خويلد وأبو بكر ابن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وغيرهم بالعشرات، رضي الله عنهم جميعاً، طبعاً عدا عن عامل إيمانهم برسالته، أيضاً هناك عامل مهم آخر أن محمداً (ص) ضَمَّن رسالته إكمال ما بدأه جدّه قصي في حلفه الشهير في حماية طرق القوافل وتحويل مكة إلى مركز تجاري للجزيرة العربية، وهذا أقصى وأحب ما يتمناه التجار ومجموعات الأعمال في أي دولة (مناطق التبادل التجاري)! لذلك منهم من زوّد الجيوش الإسلامية وأقام آباراً وسقاية، وأطعم جياعاً وكسا عراة وأعتق عبيداً ليحوّلهم إلى مقاتلين كأبي بكر وعثمان، ومنهم من سخّر ماله وخبراته السياسية، كعمر بن الخطاب وزير خارجية قريش في الجاهلية لجذب القبائل إلى الدعوة.

كذلك كان لطبقة التجار حظوة كبرى في اليابان، فقد كانت طبقتهم بعد طبقات الأسرة الإمبراطورية في الهرم الطبقي؛ أما الترك وحتى قبل تأسيس الدولة العثمانية حرصوا على الاستيلاء على الأسواق من البيزنطيين وتأمين الخطوط التجارية وبناء أسواق إضافية. إذاً أدرك حكام الأمم أن التجار يعمّرون خزائن الدولة بالمال، ويجلبون نفوذاً لهم بما يخلقونه من تبادل تجاري مع الأمم الأخرى، كما يخلقون فرص عمل تُرضي المحكومين وتمنع عصيانهم. وهم الذين يحوّلون المشاريع من خيالات وأفكار وخطط ومخططات على الورق إلى أبنية وحواضر قائمة؛ يوفرون للثقافة دورها/ مسارح وأوبرا وسينما ومطابع ودور نشر وقنوات إعلامية، وللصنّاع والمخترعين معامل ودور بحث ومخابر، وللمرضى مشافي ومراكز طبية، وللعبَّاد دور عبادة! فيما ينحصر دور الحكومات الحقيقية في تنظيم المجتمع ووضع الخطط اللازمة لبناء البنى التحتية والإشراف عليها وحماية أمن البلاد واستقرارها وتثبيت العدل بخلق القوانين الناظمة له والإشراف على دقة تنفيذها. كما إن رجال الأعمال أول سعاة العدل لأنه يمنح فرصاً استثمارية متساوية للجميع، وهم أول من يقف بوجه الظلم لأنه يقتل طموحاتهم ويدمّر فرصهم ويستبيح أموالهم ومكانتهم وكلمتهم بين الطبقات.

في التاريخ القريب نستطيع أن نكتشف أن حكمة مجموعة الأعمال السورية أدت إلى تحقيق الاستقلال في أربعينيات القرن الماضي. فرجالات حكومات الانتداب الأخيرة وحتى تاريخ الوحدة مع مصر من طبقة الأعمال من العائلات السورية العريقة المتنورة من البرجوازية الوطنية والإقطاع النبيل. لكن مع وصول العسكر للحكم تعرّضت طبقة الأعمال في مصر وسوريا لإجحاف وظلم كبير بدأه العسكري الجاهل عبد الناصر وأكمله أسد الأب والولد في سوريا، فهؤلاء العسكر الذين أتوا من سقاط المجتمعات، لا نقصد هنا مقام العسكر الذين كانت الأمم كاليونان والرومان واليابان والعرب والعجم والترك، لا تمنح شرف الدفاع والذود عنها والقيادة العسكرية إلا لأعز الناس مقاماً وأصلاً ورفعة، وتمنع على العبيد والرعاع وسقاط المجتمعات الخدمة العسكرية لعلمها أنها سهلة الانقياد للخيانة وتُشترى بالمال، ولما لها من طبيعة نفسية ناقمة قد تقوم بأعمال إجرامية تتنافى مع نظام وروح الجندية. لكن سقاط السوريين الذين استخلفهم أعداء السوريين على الشعب السوري، ١٩٦٣، دمروا ولا يزالون الطبقات السورية النبيلة والوطنية بمن فيهم تجارها الحقيقيون، أهم سبب دعاهم لذلك أن تلك الطبقات كانت في معظمها الأعم من السُنة العرب ودورهم كبير عبر التاريخ في تعظيم نفوذهم في المنطقة وفي صون البلاد من الأذى والسعي إلى تطورها

أسوة بباقي الأمم، وكذلك لكي يغطوا على فشلهم السياسي والاقتصادي والإداري وغبائهم وخياناتهم لصالح حكومات أجنبية على حساب مصالح الشعب السوري، لذلك يرمون طبقة الأعمال بالأنانية والتكسب غير المشروع والاحتكار وخلق وافتعال الأزمات.

وللإيضاح أكثر وتفنيداً لادعاءات هؤلاء الحثالات سنضرب مثلاً يؤكد براءة طبقة الأعمال من هذا الهراء: في الدول التي تسود فيها حرية التجارة وتداول السلع كما دول الغرب والشرق المتطور، كماليزيا واليابان وسنغافورة وأسترالية ونيوزيلاندا والإمارات العربية المتحدة لم تنقطع أي سلعة في أي زمن، ولم يكترث الناس يوماً أن تنقص السلع الضرورية من الأسواق أو يعانوا للحصول عليها. كما إن تشجيع التجارة وخلق بيئة استثمارية تنافسية صحية جعل أسعار السلع في هذه البلدان أسعاراً تنافسية، وجعل هامش أرباح التجار والصنّاع في حدوده الطبيعية، بين ٣-٨٪، وجعل الأسواق مكتظة بكل السلع، وفرص العمل متوفرة متطورة متبدلة.

هذه البيئة الصحية استقطبت وخلقت كفاءات عليا في البلاد وأيدٍ عاملة وموظفين مهرة. أما سوء إدارة البلاد من العسكر الرعاع الفاشلين في سوريا فجعل الاقتصاد الحقيقي في الحضيض، وأنشأ بدلاً عنه اقتصاد الفساد لقلة من السُرّاق، وربط عيش قلة آخرين به

يعملون حراساً وخدماً لهم وأنهك بقية المجتمع، ما أدى إلى هروب الخبرات التجارية ورؤوس الأموال، ومنذ ذلك الوقت شحّت البلاد وافتقرت وعمّ الظلم والهلاك والأمراض، حتى عزّ أن يجد الناس الأساسيات: كالكهرباء والماء والوقود وأساسيات الغذاء بما فيها الخبز!؟ ونضبت أنهار البلاد كبردى والفرات والعاصي لسوء استخدامها ورمي النفايات فيها، وعمّ الجفاف وندرت المحاصيل، لسوء السياسات وغياب الاستثمارات الصناعية/ الزراعية، وجاع خلق كثير من اغتناء قلة فاسدة على حساب جوع وموت الكثرة!.

هوامش:

(١) اغتيل اللواء هشام اختيار في عملية اغتيال خلية الأزمة، عبر تفجير مبنى الأمن القومي تموز/٢٠١٢، التي راح ضحيتها عدد من كبار القادة العسكريين،* ونتج عنها مقتل وزير الدفاع داود راجحة، ونائبه آصف شوكت، ورئيس خلية إدارة الأزمة حسن تركماني، وهشام بختيار رئيس مكتب الأمن القومي آنذاك، ويقال إن ضمن الضحايا عمر سليمان رئيس المخابرات المصرية، آنذاك، ويعتقد أنها مؤامرة دبرها بشار وماهر أسد مع الحرس الإيراني، لأن الخلية كانت تبحث عن حلول لتهدئة الوضع وتجنيب سوريا الدمار الذي وصلت له على يد بشار أسد والإيراني.

(٢) الإعلاميان أحمد سماق وجانبلات شكاي.

(٣) من يريد التعمق هناك دراسات عديدة على النت عن موارد سوريا الطبيعية.

(٤) حالياً سوريا في ذيل هذه القائمة على الإطلاق.

أورينت نت: ٢٠٢١/٦/٢١

٢- سورية من طريق الحرير إلى طوق الحديد!

مع تمدّد الربيع العربي زارني رجل أعمال حلبي على أبواب الستينات آنذاك في مكتبي في بروكسل، وحكى لي كيف أرسل بشار أسد عبر صنيعته رامي مخلوف من يغتصب زوجته أمامه ليُجبره على التوقيع والتنازل عن ملكية وكالة تجارية. وقّع التنازل وأخذ عائلته وهرب لاجئاً إلى أوروبا.

لعل أحداثاً كهذه، - وما أكثر ما سمع السوريون مثلها - تجعلنا نعرف الطريق الذي يُدفع فيه الاقتصاد السوري عبر رجالاته، بعيداً عن مساره التاريخي وتطوره ونموه المستقبلي.

من دولة سورية الكبرى إلى دويلة القرية!

فقدت دمشق باحتها الجنوبية، سهل فلسطين وحتى البحر الأحمر، بنشوء إسرائيل ١٩٤٨. أدى هذا أيضاً إلى انقطاع صلاتها التجارية البرية بمصر وشمال أفريقيا. كذلك بموجب اتفاقية تقسيم سورية، سايكس بيكو، فقدت دمشق كثيرا من عمقها باقتطاع شرق الأردن ولبنان، فانخفضت التجارة البينية معهما إلى أقل بنحو ١٥٪ عنها قبل ١٩١٦.

أما **حلب** فنزلت بها الطامة الكبرى آخر ١٠٠ عام! إذ لم يشهد تاريخها الطويل فترة كانت قليلة النفوذ ومتناهية الصغر بعدما اقتُطعت منها باحتها الشمالية، المدن التي ضُمت إلى تركيا الناشئة ١٩٢٠ على أنقاض الدولة العثمانية، مناطق جنوب جبال طوروس: ككيليكيا وأورفه ومرعش وعينتاب ومرسين وديار بكر وماردين وطرسوس وأضنة وأنطاكية، ثم فقدت ١٩٣٦ إقليم لواء إسكندرون/ هاتاي حالياً الذي استحوذت عليه تركيا أيضاً، بصفقة سياسية مع الاحتلال الفرنسي. (١) وجميعها مدن كان يصبّ اقتصادها في بوتقة اقتصاد حلب.

لكن ما كان يقيم اقتصادها أن الحدود مع العراق رغم انقضاء ٦٠ عاماً على اتفاقية سايكس بيكو، لم تُغلق حتى وصل حافظ أسد للحكم وطبق سياساته الطائفية وقطع علاقته بالعراق طيلة عهده تقريباً، فتضاءلت حلب كثيراً، بعدما فقدت امتدادها وتجارتها مع الموصل عاصمة الشمال العراقي. لأنها كانت المحطة التجارية الوحيدة لمناطق شرق سورية وشمال العراق مع البحر المتوسط. كما إن سياسة حافظ أسد العدائية تجاه تركيا، عبرَ دعمه لفصائل البي كي كي لزعزعة استقرارها، أدى طيلة فترة حكمه إلى إغلاق الحدود التركية، ما حوّل حلب إلى مدينة صغيرة تعيش على ذكرى غابر أزمانها، تُقدّم خدماتها التجارية لسكانها فقط ولبضع محافظات حولها. كما إن

السياسة المركزية التي اعتمدها حافظ أسد أفقدت حلب مركزها الإداري والتجارة الخدمية الناتجة عنها لصالح دمشق.

هذه العوامل مجتمعة دفعت الحلبيين للتضامن مع كتيبة الطليعة من الإخوان المسلمين التي انتفضت بوجه حافظ أسد بين ١٩٧٨ و١٩٨٢، والتي انتهت بشنّه حرباً طائفية عليها وتدمير عدد من أحيائها، قتل خلالها نحو ١٠ آلاف حلبي، واضطر عدة آلاف من شبابها المتعلم للهرب، كما قتل نحو ١٠ آلاف آخرين من شبابها المثقف في أقبية سجونه.

الفترة الوحيدة التي انتعش فيها اقتصاد مدينة حلب خلال الاحتلال الأسدي الطائفي كان في عهد وراثة بشار أسد لحكم سوريا، لأنه بموجب اتفاقه مع الأمريكان وتحالفه معهم على غزو العراق ٢٠٠٣ اضطر إلى فتح الحدود مع العراق لاستقبال حصته من اللاجئين. كما زاد انتعاش الاقتصاد الحلبي في هذه الفترة بعد تحسن العلاقات التركية السورية، والدعم الذي قدمه أردوغان لبشار أسد بعد تاريخ طويل من العداوة، وهذا أدى إلى ازدهار التجارة والصناعة في المدينة حتى اندلاع الثورة ٢٠١١ بعد ضعفٍ استمر نحو قرن. فعاد لحلب طيف بسيط من ألقها التجاري التاريخي.

المفارقة الساخرة أن الحرب على العراق دمرته وشتت أهله لكنها كانت نعمة على اقتصاد حلب، فقد أدى تدفق اللاجئين إلى ارتفاع الإيجارات وارتفاع أسعار الأراضي، وكذلك استثمر التجار الحلبيون في متطلبات العراق ما قبل وأثناء وبعد الحرب، وكذلك تلقى العديد من تجار حلب مدفوعات على عقود بملايين الدولارات لم يضطروا للوفاء بها بعد سقوط نظام صدام حسين.

مجتمع الأعمال السوري بين العريق الممتد والوضيع المنبت

يمكن تقسيم مجتمع الأعمال السوري بعد حكم حافظ أسد إلى ثلاثة أنواع:

الأول التقليدي: وهم ما تبقى من التجار والصنّاع من العائلات العريقة في دمشق وحلب ولا تخلو المحافظات الأخرى منهم، ممن لم يهاجروا بعد ضغوطات حكم الوحدة وحكم البعث، وبعد التأميم وما رافقه من إساءات لهذه الطبقة، ومعظم هؤلاء من السُنة العرب، وأغلبهم من المحافظين لكنهم يرفضون التطرف والجهادية والتعصب. كما إن بينهم عدداً مهماً من المسيحيين الذين يخشون بديلاً إسلامياً متشدداً يضطهدهم. لكنهم جميعاً غير موالين لأسد، بسبب سياسته التي أفقرتهم وضعضعت مكانة طبقتهم التليدة، لا بل بعضهم عمل على إسقاطه. وهذه الطبقة على اختلاف أديان منتسبيها تتميز بتشابه

الطبائع، في كرهها للمخاطرة، والأمل بتغيّر قليل الكلفة بشرياً ومادياً، والميل إلى الاستقرار والخشية من الحروب وخصوصاً الأهلية.

المثال التالي سيوضح سبب هجرة التجار المسيحيين خلال حكم أسد الأب والولد: في حوار لي مع أحد تجار وصنّاع الذهب المسيحيين السوريين سألته عن سبب رغبته وعائلته بالهجرة ٢٠٠٤؟! قال: "لم تعد تجارة المجوهرات وصياغتها رابحة، بعدما افتقر السوريون وقلّ الاعتماد على أسواقنا من الدول المجاورة، كما أصبحت حرفة صياغة الذهب قليلة الدخل، فدخل صياغة خاتم مثلاً ٥٠ ليرة سورية، ما يعادل دولاراً واحداً آنذاك"!

عن الكاتب البريطاني "باتريك سيل" تناقلت المراجع والدراسات رواية مفادها أن التجار التقليديين في سوريا أبرموا صفقة مع حافظ الأسد في بداية حكمه استبدلوا حرياتهم السياسية ودورهم التاريخي بالاستقرار الذي وفّره بعد سلسلة من الانقلابات وحكم العسكر اليساري وسياسات التأميم (!؟)

رأيي بهذا الموضوع: "سيل" كان على علاقة مميزة مع حافظ أسد ويُعتبر أهم مروّج لحكمه، ما يجعل مصداقيته ضعيفة. (٢)

صحيح أن الإعلام التقط لحافظ أسد صوراً مع رجال أعمال تقليديين كالمرحوم بدر الدين الشلاح، وخصوصاً الصورة التي ظهر فيها حافظ أسد متأبطاً ذراعه إلى صندوق الاقتراع إبان استفتاء ١٩٨٤، كما

صوّر الإعلام لقاءات عدة لأسد الأب والولد مع عدد من التجار الدمشقيين والحلبيين التقليديين، لكن هذه اللقاءات نابعة من الخوف والإجبار على الحضور والتقية من غضب أجهزة المخابرات عليهم.

ودليلنا على عدم رضاهم عن حكم المرحلة أن تجار دمشق حاولوا مرات الإضراب زمن حكم البعث وحكم أسد الأب والولد، ١٩٦٤ تضامنا مع أحداث حماه وتدمير جزء من أحيائها القديمة واقتحام وتدمير مسجد السلطان، وقامت ميليشيات الحرس القومي الطائفية بتكسير المحلات. ١٩٦٥ الإضراب بسبب تجديد التأميمات الظالمة على خلفية طائفية، وأيضاً الإضراب بداية ثمانينيات القرن الماضي إثر قيام ميليشيات سرايا الدفاع الطائفية بنزع الحجاب في الشوارع عن رؤوس النساء، وتضامنا مع مجازر شمال ووسط سوريا، وكذلك إضراب في بداية الثورة الحالية إثر مجزرة الحولة أيار ٢٠١٢، وواجهوا في المرات كلها قمعاً شديداً وفُتحت محلاتهم بالقوة وتمّت سرقة محتويات بعضها وتلقوا تهديدات بالتصفية من المجرمين حافظ ورفعت أسد ثم بشار. كما إن كلام "سيل" يتنافى كلياً مع طبيعة رجال الأعمال التقليديين في كل الأمم ومن بينهم سوريا، ويتنافى مع مصالح طبقة الأعمال السورية كما أسلفنا. نعتقد أنها محاولة لئيمة للنيل من وطنية الطبقة التي جعلت الأمّة السورية في سدة الأمم.

النوع الثاني الطفيلي: وهو الذي خلقه نظام حافظ أسد وتكاثر ولا يزال منذ نهاية سبعينيات القرن الماضي. هؤلاء يفضلون أن يُطلقَ عليهم لقب رجال الأعمال، لكنّ السوريين يطلقون عليهم ألقاباً ساخرة منحطة تُلخص وضاعة أصولهم وفسادهم. معظمهم من سقاط المجتمع السوري، ينتمون لعدد من الطوائف، بينهم عدد مهمٌّ من العلويين (٣) ممن كانوا ضباطاً في الجيش أو على علاقة به، أقواهم من العائلات المحيطة بآل أسد كمخلوف وشاليش والأخرس وجابر، أو على علاقة مصاهرات بهم كسامر الفوز، حسب ما أوردته صحيفة التايمز البريطانية.

كما إن بعضهم من أصهار العائلات العلوية، كمحمد حمشو مثلاً، وبعضهم من حثالة العشائر كبرّي في حلب، أو من حثالات المدن كحسام قاطرجي، وتُقدر الإحصاءات أن عددهم نحو ٢٠٠ من كبار الفاسدين يزدادون أو ينقصون بحسب رضا بشار أسد عنهم. وجميعهم شركاء تجاريون لأسد وعائلته، استفادوا من وصولهم إلى دائرة العائلة واستحكموا بالفوز بعطاءات مشاريع البنية التحتية العامة، أو المشاريع الجديدة التي طرحت كالبنوك والنقل والمقاولات.

واليوم تحوّل كثير منهم نتيجة ما حل بالبلاد من تهالك ودمار إلى صناعة وتجارة المخدرات وتجارة المواد الخام التي تمد صناعة البراميل المتفجرة وأدوات القتل الجماعي الأخرى، وتهريب النفط والغاز

والدعارة ومتعلقاتها من مواخير وأشباهها، وجميعهم زوّدوا الشبيحة بالمواصلات والطعام والرواتب، بعضهم أصبح لديه ميليشيات خاصة كرامي مخلوف وأيمن جابر والقاطرجي وبري، أما السلاح فمن مخازن الدولة والجيش الذي تسيطر عليه ميليشيات أسد وإيران، وهذه الأخيرة تحدث الروايات عن تأسيسها لطبقة من "رجال الأعمال" خاصة بها كمحمد السواح و سامر الفوز وهؤلاء لا يعتمدون أصول التجارة ولا يقدمون للناتج المحلي شيئاً، ويرضعون ثروات البلاد ويشتتونها بين الهدر والنقل إلى الخارج.

يُثرون من جميع الأعمال الممنوعة المتعلقة بالفساد وبالجرائم العامة في حق الدولة والمجتمع أو الجرائم المتعلقة بالأفراد، كالخطف والابتزاز والاستيلاء على أموال الغير. حولهم أيضاً مجموعة مستفيدة قد تكون أضعاف هذا الرقم من ذوي الأدوار المتوسطة تديرهم وتتشارك معهم أجهزة الأمن، وهؤلاء يتباهون بإطلاق لقب رجال أعمال على أنفسهم أيضاً. وجميعهم باختلاف مراتبهم مصالحهم مرتبطة ومستمرة في بقاء بشار أسد في السلطة.

***

خلق نظام حافظ أسد نوعاً طفيلياً تكاثر ولا يزال منذ نهاية سبعينيات القرن الماضي. هؤلاء يفضلون أن يُطلقَ عليهم لقب رجال الأعمال، لكنّ السوريين يطلقون عليهم ألقاباً ساخرة منحطة تُلخص

وضاعة أصولهم وفسادهم. معظمهم من سُقاط المجتمع السوري، ينتمون لعدد من الطوائف، بينهم عدد مهمٌّ من العلويين ممن كانوا ضباطاً في الجيش.

النوع الثالث المهاجر: وأعدُّها سورية رغم أنها لم تنشأ في سورية وإنما نشأت في بيئات مختلفة، لكن لها أثر مهمّ على الاقتصاد السوري والحياة السورية في الربع قرن الأخير وكذلك على الثورة السورية، وهي بدورها تنقسم إلى فئتين:

الأولى/ المهاجرة إلى الأبد: تتميز بأنها فقدت الكثير من السمات السورية، البعض من منتسبيها لا تربطه بسوريا إلا بعض كلمات عربية بلكنة أجنبية، وبعضهم الآخر يرى سورية بمنظار السائح!؟

ما يعنيهم منها وما يعرفه عنها ليس القهر المرسوم على وجوه أهلها أينما قابلتهم، ولا الربع مليون إنسان الذين يموتون سنوياً نتيجة الأخطاء الطبية بسبب تهالك المشافي وسوء إدارتها، ولا يعنيهم الربع الآخر لمليون إنسان يموتون سنوياً في حوادث المرور بسبب سوء تنظيم الطرق وتفشي الرشوة في دوائر شرطة المرور، ولا البطالة المقنعة التي تتجاوز الـ٥٠٪ والبطالة الوقحة التي تتجاوز الـ١٥٪، والفقر غير المبرر سوى أنه سياسة إفقار، وهجرة الشباب للعمل في الخارج حتى خلت البيوت منهم، وما صاحبَ ذلك من أمراض اجتماعية؛ ولا يعرفون معاناة

أهلهم من ظلم المحاكم واكتظاظ السجون بالأبرياء! سوريا بالنسبة لهؤلاء مجرد مصيف ومرقص ليلي وأجواء سهر رخيص مبتذل، قابلت عدداً منهم خلال تنقلاتي؛ اعتبروا الثورة وبالاً عليهم لأنها حرمتهم من تلك المزايا، وحرمتهم فرصة أن يُظهروا أنفسهم كطواويس بين أهليهم وأقرانهم القدامى، بضعة مغترين بين أكوام المُعسِرين!

ظهر من بين هؤلاء عدد من الأقلويين في صفقات السلاح التي وصلت لميليشيات أسد وصفقات نترات الأمونيوم، كما ظهرت منهم شخصيات في المحافل والمقرات الدبلوماسية، كالخارجيات الغربية وسفاراتها، يقومون بحملات علاقات عامة لنظام أسد، ينشرون الكذب والادعاءات على الثورة بأنها إسلامية متطرفة تهدف إلى إبادة الأقليات، فيما الحال عكس ذلك تماماً: تحالف أقليات لإبادة الأكثرية!

من هذا النوع أيضاً ظهر أشدّ وأعند وأذكى المناضلين ضد نظام أسد! فئة باركت الثورة ودعمتها بالمال وبالموقف وأسست عدة مجالس وخصوصاً في أمريكا والدول الأوربية الفاعلة، ولا تزال تقدم أفضل ما لديها لتساعد أهلها على الخلاص، تابعتهم بنفسي وهم يؤسسون المجالس ويقيمون المؤتمرات لدعم القضية السورية، ويدفعون الأموال في حملات انتخابات مجالس النواب في بلاد الهجرة وغيرها، ليخلقوا

دعماً سياسياً لقضيتهم، على علوّ مكانتهم يجمعون ما أمكن من مواد إغاثية ويوصلونها إلى الداخل على شكل أدوية واحتياجات وللمشافي والمدارس، بعضهم رجال أعمال كأيمن الأصفري، بريطانيا، وبعضهم علماء كالدكتور عدنان وحود، ألمانيا، ومئات الأطباء كالطبيب سمير كزكز، ألمانيا. تابعتهم بنفسي، رائعون مخلصون ينسقون مع مشافي أورينت الإنسانية وغيرها ليقوموا بعمليات جراحية مجاناً للمصابين جراء إجرام أسد وحلفائه. تذاكرهم على حسابهم، يُجرون عدة عمليات في الـ٢٤ ساعة، ينامون في غرف المشافي الميدانية البسيطة لأسبوع أو اثنين، يأكلون ما تيسر مع زملائهم ومرضاهم، ثم يعودون إلى أشغالهم في بلاد المهجر وهكذا دواليك.

الثانية/ المهاجرة مؤقتاً: معظمها في دول الخليج وهي لم تنقطع عن سوريا طيلة فترة اغترابها، سواء بالبناء والتعمير ومحاولات الاستثمار أو المساعدات لأهليهم وذويهم. هؤلاء معظمهم من الأرياف والمدن الصغيرة، وفيهم من دمشق وحلب، لكن جميعهم يشتركون بعامل واحد أنهم جميعاً لم يجدوا فرصة في سوريا لإثبات جدارتهم وأهليتهم، ووجدوها في الخليج، أغلبهم الأعمّ عصاميون بدؤوا من الصفر ثم سجلوا أسماءهم شامخة على شركات كبرى عالمية،

تجارية وخدمية ومبانٍ برجية ضخمة وفنادق عظيمة، ومستشفيات، ونوادٍ ومطاعم!

لا يوجد من هؤلاء رقم يذكر يدعمون نظام بشار أسد، لكن بعضهم تخاذل عن دعم الثورة خوفاً من البطش، وكثير منهم دعم الثورة ووقف معها وخسر كل منهم ملايين الدولارات نتيجة حجز بشار أسد على أموالهم وتدميره لممتلكاتهم، كما حدث معي.

قرأت عدداً من الدراسات الغربية وكذلك شاهدت أفلاماً وثائقية عدة تُصور كمّاً كبيراً من مجموعة الأعمال المتوسطة في الخليج يجمعون الأموال ويرسلونها إلى المتظاهرين في مدنهم وبلداتهم وقراهم. يساعدون المنكوبين ويحاولون أن يكونوا سفراء إنسانيين لقضية بلدهم أمام الرأي العام الخليجي.

هوامش:

(١) تقدر مساحة تلك المناطق بنحو ٢٣ ألف كم مربع، وهي تعادل ضعفي ونصف مساحة لبنان.

(٢) كتب المحلل اللبناني إياد أبو شقرا في صحيفة (الشرق الأوسط) يقول تعليقاً على مقال باتريك سيل الذي نشره في نيسان/ إبريل من عام ٢٠١٤ أي بعد عشرات المجازر لبشار أسد وبعد استخدامه الكيماوي في غوطة دمشق:

".. كتب باتريك سيل، الكاتب البريطاني المهتم بقصة سوريا وحكم عائلة الأسد، يوم الجمعة الماضي، في صحيفة «الحياة»، مقالاً تناول فيه الملف السوري الملتهب، وشرح، حسب رؤيته التحديات التي تواجه المتصارعين على سوريا، من روسيا إلى أميركا والاتحاد الأوروبي، طبعاً هو أبدى موقفاً نقدياً «لتأخر» الرئيس بشار الأسد في الإصلاحات والاعتماد على الحل الأمني فقط، وهو بالمناسبة موقف تجاوزته أحداث الثورة السورية، ولم يعد يصنّف على أنه موقف معارض للنظام الأسدي، لكن هكذا خيل لباتريك سيل أنه بهذا الموقف قد احتفظ لنفسه بموقع حيادي"

(٢) حتى العلويون أنفسهم يسخرون من تلك الفئات وحينما يمرون بقصورهم يقولون قريباً نحولها إلى مستشفى أو دار ثقافة حينما نتخلص منكم.

أورينت نت: ٢٠٢١/٦/١٨

٣- حراس الأمّة السورية التاريخيون بين التجاهل والتنكيل!

حين انهارت مفاوضات الشراكة على تلفزيون أورينت تماماً بإصراري العنيد على شروط شراكة عادلة؛ في الاجتماع الثالث والأخير مع العميد مناف طلاس في دمشق، ٢٠١٠/٨/٤، وكان حينها مسؤولاً كبيراً في الحرس الجمهوري ويجتمع معي بصفته مفاوضاً عن بشار أسد، في محاولة لفرض الشراكة مع بشار. عرفت أني يجب أن أغادر سورية بسرعة قبل تدبير عملية لاغتيالي، هُددتُ بها في الاجتماعات الثلاثة.

ما أبقاني آنذاك بعيداً عن محاولة اغتيال مدبرة، هو إدارتي لعملية تلاعب دقيقة اعتمدتُ فيها على استثمار الوقت، وخلق إحساس لديهم أني أصبحت لقمة في فمهم يلوكونها ومع الوقت سيهضمونها. وأنا تركتُ اللقمة في فمهم ولم أسحبها، فلو فعلت ورفضت لحل غضبهم الإجرامي عليّ، كما لم أتركهم يبتلعونها، ولو فعلت وشاركت لانتهيت كما انتهى كثير من رجال الأعمال السوريين قبلي وبعدي! وذلك منذ لقائي الأول برامي مخلوف، ٢٠٠٩/٣/٢٧، والذي كان طلب التوقيع على عقد شراكة إذعان يأخذون فيه حصة ٩٢،٥٪ من تلفزيون أورينت/ المشرق سابقا، ويتركون لي ٧،٥٪، والمُحكِّم ابن

عمه، وليس حتى المحاكم السورية(!؟) مقابل أن أكون عضواً في شام القابضة التي هي مجرد صندوق فارغ لا قيمة له، لكنها تسعى للقبض على عموم طبقة الأعمال السورية.

***

مرّت سنتان قبل أن ينقذني الربيع العربي الذي فضح ضعفهم. ففي صباح اليوم التالي لهروب رئيس تونس الأسبق زين العابدين بن علي، توقفتْ كل أشكال ضغوطاتهم اليومية عليّ، والتي لم تنقطع منذ لقائي برامي مخلوف. كان لا يمكنني قبل انفجار الربيع العربي أن أقول لهؤلاء المجرمين لا فهذا يعني التصفية لي ولمن يلوذ بي، ولا يمكنني أن أقول نعم فهذه ستكون موافقة كاملة مني على تمكينهم من أموالي واستخدامي ممسحة لطاولاتهم، كما فعلوا مع جميع رجال الأعمال السوريين الذين شاركوهم عنوة أو جشعاً، إذ حوّلوهم إلى مطايا للفساد ثم بعدما امتصوا ثرواتهم، استخدموهم قضايا في لعبة مكافحة الفساد لتلميع النظام الأسدي الطائفي الفاسد وذرّ الرماد في عيون السوريين.

بإمكانكم أن تتخيلوا حجم التجارب والآلام التي دخلتُ بها على يد المجرم أسد طيلة تلك المدة. فقط تخيلوا أن تكون دولة بأجهزتها

الأمنية وحكومتها، من أحقر موظف مدني أو أمني في مدينتي إدلب إلى أعلى موظف في الدولة، وزراء ورئيس وزراء، يعملون ضدي؛ كيفما تحركت لا ألمس إلا عرقلة وغضباً، فاعتراني الهمّ والترقب والخوف وأمراضها.

هذا هو حال مجتمع الأعمال السوري طيلة نصف قرن يرزح تحت التسلط الطائفي والفساد، بعضه يقع وبعضه يقاوم، وبعضه زائف، بالتالي ضاعت جهوده في خضم هذه العملية الخشنة عن المشاركة في إنماء وتطوير المجتمع، والتي أصبحت خارج حساباته فجُلُّ حساباته البقاء! لذلك بدأت تموت في داخل مجتمع الأعمال روح البرجوازية الوطنية والرأسمالية المنتجة للتطور والممولة له وروح المبادرة الفردية، وتموت معها قيم تلك الطبقة النبيلة في مسعى لتحويلها إلى سقاط المجتمع!؟ مع ذلك ورغم الضغط الهائل الذي تتعرض له هذه الطبقة لا تجد لها سنداً من مجتمع حفظته نحو ألف سنة ولا حتى مدافعاً!؟ كل الطبقات التي اضطهدها النظام الأسدي وجدت من يدافع عنها ويعيد لها وقارها ويساندها، العمال والفلاحون والنخب الثقافية التي بيدها القلم(!؟) والعسكر المطرودون من الخدمة خلال حكم البعث الطائفي قبل حكم أسد الأب وأثناءه، وحتى الإخوان المسلمون تعاطف معهم الناس بما تعرضوا له من ظلم؛ وحدهم حراس الأمّة السورية التاريخيون طبقة الأعمال لم يجدوا من يساندهم، ولا تزال

طبقات المجتمع الأخرى تلومهم بالكثير والقليل وتشنّع عليهم وتتهمهم بما ليس فيهم، كما بيّنا في المقالات السابقة! مع كل تلك السياسة الغليظة عليهم لا يزالون وحدهم صامدين، حتى عندما يُضربون ولديهم الكثير ليخسروه إن فعلوا، لا تنزل طبقات الأمّة معهم لحماية إضرابهم وحماية أرزاقهم، بل يتركونهم وحدهم لسطوة الفاجر على التاجر!

إضراب الأسواق الدمشقية

عقب مجزرة الحولة أواخر أيار ٢٠١٢، والتي نفذتها مجموعات طائفية علوية، بإيعاز من بشار أسد شخصياً، قُتل فيها ذبحاً ١٠٨ أشخاص من السُنة العرب نصفهم من الأطفال، عمّ الإضراب الأسواق الدمشقية التاريخية الشهيرة، كالحميدية ومدحت باشا والحريقة والبزورية وباب الجابية وسوق مكتبات الحلبوني، وسوق البحصة وبرج دمشق وشارع خالد بن الوليد وزقاق الجن، وكذلك أسواق أحياء الميدان والقدم وكفرسوسة والقابون وبرزة، والقدم وعسالي وحوش بلاس وجوبر، وغالبية مدن وبلدات ريف دمشق، مارست قوات الأمن تكسير المحلات لفك الإضرابات في العاصمة، بينما كانت شوارع أغلب المدن السورية تزدحم بمظاهرات الاستنكار.

المجرم الطائفي بشار أسد كان استدعى عدداً من رجال الأعمال والتجارة الدمشقيين التقليديين وخاطبهم: "سمعت أنكم تفكرون بدعم الثورة. لو تأكدت من ذلك سأجعل سوق الحميدية والبزورية ومدحت باشا والحريقة دماراً كما فعلتُ بحي بابا عمرو في حمص". ثم طردهم بصلافة"!

كنتُ قد قدّمتُ لكم أنواع طبقة الأعمال السورية خلال المقالات السابقة، في مجموعة من الأمثلة والعيّنات عن رجال الأعمال السوريين لتعرفوا جيداً عمّ نتكلم ولتكون المقارنة والحكم أوضح عليكم، ولا تأخذكم دعايات إعلام أسد المحلي أو الخارجي الممول وزبانيته والببغاوات التي تردد دعايته التي مزقت السوريين ألف ممزق وشككت بعضهم ببعض.

تؤكد الأمثلة التي قدمتها أنه لا يمكن النظر إلى مجتمع الأعمال السوري ككتلة واحدة بعد انقلاب البعث ١٩٦٣. وبأنهم جميعاً دعموا أسد الأب والولد، كما حاول إعلام أسد المحلي الخارجي الممول وماكينة الثورة المضادة، ومعهم أغبياء النشطاء أن يصوروا لكي يعزلوا التجار السوريين عن الثورة، ضمن سياسة تمزيق الشعب السوري، كما قلنا لتصبح الأقلية الحاكمة أقلية بين أقليات.

بين درعا وحلب

انطلقت الثورة في درعا ثم ما لبثت أن شملت عموم سورية، عدا مدينة حلب ومحافظة طرطوس. ولكل منطقة أسبابها الخاصة مع اشتراكها بالعام: ففي درعا كان الاعتداء على كرامة الناس والإساءة لشرفهم في خطاب رئيس الأمن السياسي لشيوخ العشائر حين طالبوا بالأطفال المحتجزين لأنهم كتبوا الشعار الموسيقي الرائع: (الشعب يريد إسقاط النظام) على الجدران، هو الذي فجّر شرارة الثورة، وطبعاً أيضاً أحد أهم أسبابها اقتصادية، وهي البطالة وسوء التصدير وقلة تصنيع المنتجات الزراعية، ما أدى إلى تدني أسعارها وأحياناً تلفها. ومثل ذلك يمكن قياسه على عموم سورية، عدا ريف دمشق الذي يُعتقد أن السبب الرئيسي لثورته هو سرقة الأراضي من الناس باسم الحكومة عبر قوانين الاستملاك، ثم تحويل ملكيتها إلى "رجال أعمال" النظام في الدائرة المحيطة به، كمخلوف وغيره وهؤلاء جميعهم يعملون لدى بشار أسد واجهات ومرابعين، ثم إعادة طرحها للبيع كأراض معدة للبناء بأسعار تفوق مئة ضعف!

أما في حلب فثمة عدد كبير من مجموعة الأعمال التقليديين، تجاراً وصنّاعاً من عائلات حلب التقليدية الشهيرة، هاجرت بعد الهزات الاقتصادية والاجتماعية التي تعرضت لها المدينة سواء في زمن التأميم ١٩٥٨-١٩٧٠ أو في زمن السياسات الطائفية التي مارسها أسد

الأب القائمة على قانون الاستيلاء على الأراضي والعقارات والمصانع وإخفاء وامتهان طبقة الأعمال التي ترفض الانصياع. لكن دعاية وسائل الإعلام الأسدية ضد الثورة توافقت مع رغبات بعض رجال الأعمال التقليديين الحلبيين وكل "رجال الأعمال الجدد" من السقاط والفهلوية المرتبطين بأجهزة مخابرات أسد التي صنعتها وسهّلت نموّها. وهذا بدوره أثر على إبقاء الطبقة العاملة غير المتعلمة مترددة تخاف على مكاسبها الجيدة.

فالنخبة الحلبية بشقيها ظنت أنها تدين بازدهارها خلال العقد الأول من حكم بشار أسد "لحكمة" سياسته، في حين أن غزو العراق وتغير العلاقات الدولية بين دول المنطقة لعبت دوراً مهماً لصالح مدينة حلب؛ لذلك اعتبرت طبقة الأعمال أن الثورة جاءت في توقيت غير مناسب لحلب، فتجار حلب كانوا لا يزالون يجنون ثمار الظروف الطارئة التي ذكرناها، كذلك فعل الصنّاع لأن المصانع في أوج إنتاجها، بعضها كلف شراؤه أموالاً طائلة، لم تأتِ بعد بمردود تغطية تكاليفها، حتى طبقة العمال وصغار الكسبة التي انتعشت نسبياً بانتعاش الحركة الاقتصادية التي جعلت جميع المهارات العمالية مهارات مطلوبة، بما فيها المهارات اليدوية والمتدنية، أيضاً لم تُحبّذ الثورة ولم ترَ فيها فتح خير، لذلك كانت النفسية الحلبية جاهزة لتقبل دعاية نظام أسد بأن الثورة مؤامرة وتقبل المعلومات الخاطئة حولها.

طبعاً معلوم للجميع أن سورية دولة أمنية تحكمها عشرات أجهزة الأمن الطائفية بالقوة. والخوف من الأجهزة الأمنية الطائفية أدى إلى إحجام كثير من كبار التجار داخل سورية عن التحدي العلني، عدا قلة من تجار دمشق، اضطروا فيما بعد لمغادرة دمشق. خسروا أموالهم وربحوا شرفهم!

كما إن عنف النظام الإجرامي إلى حد اللامعقول والمجازر الجماعية وتهديم مدن وبلدات بأكملها واستهداف الأحياء والمساجد في دمشق القديمة والمدينة القديمة في حلب، والاغتيالات وإطلاق النار العشوائي على المتظاهرين، جعلهم يُحجمون عن المشاركة العلنية والفاعلة، لكنّ الثورة صحيح أن العاطلين عن العمل والفاقدين الأمل من جيل الشباب هم من أشعلوها، وكذلك العمال والفلاحون وصغار الكسبة والطلاب، الذين ادعى الطائفيون أن انقلاب البعث جاء لتحسين أوضاعهم ضد الإقطاع والبرجوازية، هم أهم الفئات التي شاركت فيها بقوة وأمدتها بالحياة.

توسع الطبقة العاطلة عن العمل كان سببه انهيار الطبقة الوسطى التي هي عصا توازن طبقات المجتمع ومؤشر صحته. إن تمددت وزاد عددها كان المجتمع سليماً معافى، وإن قل اعتُبر المجتمع مريضاً والأمّة في طريقها إلى الانهيار. انهيارها جاء بسبب توقف الصناعات

الحقيقية بعد محاصرة الصناعة وتأميم المصانع ثم تركها للخراب وتحويلها مراتع للبطالة المقنعة. المشاريع الصناعية التي قام بها "رجال أعمال" المافيا الأسدية، معظمها خدمية كالمطاعم والصناعات التحويلية الخفيفة، التي كانت محل سخرية المجتمع السوري كالعلكة والمصاصات! لم تقدم خدمة للطبقة العاملة الحقيقية ولم تستفد منها الطبقة الوسطى، لأنها كانت قائمة على عمالة مزيفة تجلب العسكري "المْفيّش" (١) للعمل فيها بديلاً عن ذهابه للمعسكرات، أو يعمل بها صغار أفراد المخابرات كعيون على تجمعات السوريين، أو للقادمين من قرى الجبال(!) فالطبقة الوسطى تنشأ وتمدد في ظل الاقتصادات والمؤسسات السليمة الفاعلة، ولذلك تحول أغلب الطبقة الوسطى، التي كان عزّ ألقها وتمددها في أربعينيات إلى منتصف سبعينيات القرن الماضي، إلى طبقة الرعاع التي هي حزام الفاشية ويدها الضاربة لانحطاط قيمها ورخص تجنيدها. وهذه سياسة قصدية تحضيراً لقمع المجتمع عند انفجاره بالثورة، لذلك كانت طبقة الرعاع جاهزة لتكون درعاً من دروع إجرام نظام بشار ضد أهلها، ضد المجتمع السوري: فمثلاً تقاضى المجند الرعاعي في الميليشيات الإيرانية والأسدية ٥٠-٧٠$، شهرياً، والمرتزق خارج سورية أقل من ١٠٠$!

تعتبر الفئة المتوسطة من التجار المحليين في عموم مدن وبلدات سورية هي الممول الأساسي للثورة، لانتمائهم لبقايا الطبقة الوسطى، وكانوا

من أكثر الفئات فعالية فيها، ووفروا لها وسائل النقل وتكاليف التنظيم والتصميم وعلاج الجرحى، وقدموا لها الخدمات اللوجستية، الماء والطعام والمشروبات واللافتات..، كما ساعدوا عائلات الشهداء المنكوبين بمعيليهم.

الثورة والمعارضة

إذاً كما أسلفت، معظم رجال الأعمال التقليديين وأغلبية رجال الأعمال المهاجرين مؤقتاً، كرهوا نظام أسد ووقفوا ضده وساعدوا الثورة ما استطاعوا، وخصوصاً في السنتين الأوليتين لانطلاقها، واستمر الدعم لكن بزخم أقل في السنة الثالثة بسبب ظهور داعش والنصرة.

لكني في هذا المحور أتحدث عن موقف طبقة الأعمال من المعارضة المنظمة التي تمثلت في المجلس الوطني والائتلاف وهيئة المفاوضات والحكومة المؤقتة. لا أعتقد أن عدداً كبيراً من طبقة الأعمال وقف بشكل جليّ ظاهر مع هذه التجمعات، وإن كان كثير منهم بارك إنشاءها وتمنى لها النجاح. البعض وجد فيها فرصة للمشاركة وربما لتحقيق شهوة الحضور السياسي، فمنهم من استوزر ومنهم من أصبح عضواً في عدد من الهيئات وترددت أسماء كثيرة، كوليد الزعبي وأحمد الجربا ومعتز الخياط، كما دخل عدد من رجال الأعمال من

الدرجة الوسطى كيحيي قضماني وغيره. دعمت قطر عدداً من هذه الفئة المتوسطة كأحد أصحاب المطاعم وصاحب محل أدوات صحية ليكون طريقها لإيصال الدعم المالي والأوامر القطرية لأجهزة المعارضة، وجميع هؤلاء من فئة رجال الأعمال المهاجرة مؤقتا، أما من الداخل السوري فدعم الثورة بقوة عدد من رجال الأعمال، وفيهم عدد من الدمشقيين نذكر منهم التاجر الدمشقي المعروف محيي الدين حبوش. لكن على العموم أحجم كثير من رجال الأعمال عن دعم تلك الهيئات لسببين:

الأول: أن جميعها هيئات مدعومة من دول لها مصالح في سورية.

الثاني: أن النفسية السورية تربّت في نصف القرن الأخير على حب التقرب من أجهزة الاستخبارات، لذلك لم تسعَ الشخصيات القيادية في هذه الهيئات للتفاهم مع طبقة الأعمال، إنما سعت إليهم كمحفظات نقود يدفعون لهم فقط وليس ليشاركوهم القرار والتحديات كطبقة لها احترامها ورؤاها وثقافتها ومتطلباتها!؟

***

قيادات تلك المنصات، وما أكثرها، كان مسعاها منصبّاً على إرضاء أصغر موظف في خارجية أية دولة منخرطة في الشأن السوري، ولم

يهمها السوريون بكل فئاتهم وطبقاتهم بما فيها طبقة الأعمال!؟ كما إن الانقسام المريع داخل هيئات ومجالس المعارضة والفساد أو عدم الأهلية الإدارية، أو كليهما لعدد من الشخصيات القيادية في تلك الهيئات والتي ضجّت وسائل الإعلام بهم وبسوء سلوكهم، وكذلك احتكار المناصب لأجل تسميات طنانة فارغة المضمون وتداولها بين ثلة من الصعاليك، وشخصنة المواقف عزز رواية النظام بأنها:

"هيئات فاشلة غير قادرة على إدارة مدرسة ابتدائية"! (٢)

هوامش:

(١) مصطلح أطلق على العسكري الذي يدفع راتبا شهريا للضابط كي يغطي هروبه من الخدمة العسكرية، وصل عددهم إلى عشرات الآلاف. وهي تخصص الضابط العلوي.

(٢) قول لفاروق الشرع نائب المجرم بشار أسد.

أورينت نت: ٢٠٢١/٧/٥

٤- حكم اللصوص والحريق الأخير

بدأ تلفزيون أورينت تحدي سياسة مافيا أسد اللصوصية العنيفة قبل بضعة أشهر من انفجار الربيع العربي، حينما بدأ بث برنامجه الجريء آنذاك البلد بارك،١٠/١٠/٢٠١٠، ثم زاد جرعته أضعافاً مع انفجار الربيع العربي.

قبل انطلاق الثورة السورية بعدة أسابيع وردني هاتف في مكتبي في بروكسل من "رجل الأعمال" أيمن جابر يحاول استدراجي إلى دمشق عبر اللعب على وتر طموحات ورغبات رجل الأعمال بداخلي. رفضت. لأني تأكدتُ أن بشار أسد أصدر حكم الإعدام عليّ، بعد فشل مفاوضاتي مع مناف طلاس آب ٢٠١٠.

أيمن جابر علوي وصهر لعائلة أسد، مع انطلاقة الربيع العربي وتحسباً لانطلاق الثورة السورية أسس كتائب شبيحة يمولها وتتبع له شخصياً.

تتشارك دول الربيع العربي بعوامل عدة، أهمّها الفساد المستشري عبر مجموعة مختارة من بطانة وأقرباء الحاكم، وتحويلهم إلى طبقة أعمال تتبع لهم، تتحكم بالاقتصاد والتجارة وبقوت فئات المجتمع.

أعْتبرُ أن هذا هو السبب الأساسي للانفجار العنيف الذي شهدناه في الربيع العربي. هذه الفئات متشابهة في اللصوصية في ليبيا ومصر

وتونس واليمن مع عينة أيمن جابر ومحمد حمشو ومخلوف.. كأحمد عز في مصر وأفراد أهل ليلى الطرابلسي زوجة بن علي في تونس، الكوافيرة التي لعبت الصدفة دوراً في تحويلها إلى سيدة أولى تعيث فساداً في قوت التوانسة.

انهارت هذه الدول بسرعة مدهشة. يخطئ من يظن أن الربيع العربي انكفأ. إنها استراحة محارب ثم سيكون أشد قوة وأكثر تنظيماً "وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون"! حيث سنشهد انهيار عدد آخر من النظم العربية، وللأسف ستأخذ معها ما بقي من هياكل عفنة لدول ترزح منذ عقود تحت حكم اللصوص وسياسة الفساد والإفساد، وإن تلحّفت بمسميات مختلفة، طائفية أو قبلية أو عسكرية أو حزبية. حكم اللصوص الذي دمّر الحوافز وثبّط الابتكار وأعاق الفرص وطرد سلالات العائلات التقليدية واستنزف مواهب أهل العلم والمال والخبرات، حين التفّ على خناق الدولة عبر إمساكه بمقدراتها بأداة السيطرة على الجيش وتحويله إلى ميليشيات لا وطنية تابعة.

***

أكبر خطأ أنْ ظننا أنَّ هذه النظم نشأت خطأً أو صدفة. كما تدعي هي ونخبتها من أدعياء الثقافة ومرتزقة الإعلام، بأنها نتاج المجتمعات

العربية المتخلفة "يصف جماعة أسد أنفسهم: "نحن لسنا صالحين لكننا منكم ومثلكم". كذبوا. فهؤلاء أوصلوهم إلى سدة الحكم عن قصد ليكونوا بديلاً عن المؤسسات السياسية الحقيقية للدولة العربية الناشئة بمؤسسات سياسية مزورة سوف تُزوِّر كل شيء في مجتمعاتنا وأولهم قادة الأعمال. من اطّلع على تاريخ رواد الأعمال في اليمن والعراق ومصر وسوريا سيعرف أنه قبل هؤلاء كان قادة الأعمال بدؤوا بتشكيل مجتمع منفتح ودولٍ تسعى إلى أن تكون رقماً متقدماً في الناتج العالمي. فبنت دور ثقافة وفنون نشرت من خلالها ثقافتها الراقية، التي أطلق المثقفون على زمنها (الزمن الجميل)! الغريب أنهم هم أنفسهم من هاجم الطبقة التي أنشأت تلك الثقافة واعتبرها رجعية ومتخلفة (!؟) قبل أن يأتي حثالات العسكر وتذهب مجتمعاتنا العربية العريقة نحو القبح والنكوص، وتحول إلى مستنقعات آسنة نتنة تنزّ قيحاً.

اعتمدت هذه الأنظمة سياسة الخوف والانتهازية في وجودها. لم تعنِها تنمية وتطوير مؤسسات الدولة، فحكمت بالشدة والعنف لتظهر قوية مستقرة إلى أن تصبح فجأة غير مستقرة، وعند هذه النقطة يصل العنف والفوضى إلى ذروته، ولا يعود هناك وقت لفعل الكثير، لأنه يكون فات الأوان. حتى هؤلاء الفئات الذين انخدعوا بهم وتحولوا إلى متعصبين لطروحاتهم، الطائفية الثأرية، كالميليشيات العلوية

والشيعية، بتسمية أدق طبقة الرُّعاع التي اعتمدوها في تنفيذ سياسة الخوف والانتهازية والتي شكلوا بها خط دفاع عن حكمهم حكم اللصوص.

***

في تلك اللحظة حين يدرك هؤلاء أنهم خسروا المعركة، وأنهم مخدوعون وأدوات رخيصة استفادت القليل على جثة مستقبلهم ومستقبل أبنائهم تنهار تلك الدول كما تنهار قلعة بناها طفل على رمال شاطئ، "كأن لم يغنوا فيها"!

لاحظوا احتجاجات منتسبي الميليشيات العراقية ضد قادتها وقادة الأحزاب الحاكمة في العراق ولبنان حالياً، وقارنوا كيف كانت تقاتل قبل سنوات بشراسة واليوم تقتلهم الحسرات حتى على حكم صدام! ومن هنا يعتقد البعض أن أسد وفريقه يبدون أقوياء، لكن نظرة إلى الخلف على نُظم: صدام حسين، وحسني مبارك، والقذافي وبن علي وصالح تجعلنا ندرك أنهم مجرد طبول جوفاء لا تحمل أكثر من بضعة تقارير إعلامية وبضع تظاهرات، وما شهده السوريون من دمار إنما هو من صنع الأيدي الخفية للدول الاستعمارية، وما أسد الأب والولد وثلّتهم إلا عصبة مجرمين يأتمرون بأوامر خارجية نفذوا ما هم موجودون لأجله، واليوم أسد الولد لا يملك إلا أن يراهن على

الوقت، إنه ينتظر لحظة يحتاج الغرب الاستعماري فيها خدماته مرة أخرى.

***

إن الولد امتداد سياسة أبيه في تطبيق المذهب الاستراتيجي الذي قالت عنه الألمانية بنتيه شيلر في كتابها "حكمة لعبة الانتظار السورية": إن نظام أسد نجا واجتاز المصاعب على مدى العقود الخمسة الماضية من خلال تطبيق خطة الانتظار"!

دعونا إذاً نفهم أنّ الدول التي أتى عليها الربيع العربي ومنها، سورية، لم تتفكك بسبب اندلاع العنف والحروب الأهلية على أراضيها على خلفية ثورات الربيع العربي!؟ إنها تفسخت قبل ذلك بعشرات السنين بسبب سياسات كبح النمو وهدر الإمكانات الهائلة لمجتمعاتها، ما حكم على مواطنيها بالفقر لأجيال. هذه الخيانة العظمى تركت تلك البلدان بمستويات معيشية أقل بكثير مما يجب للبقاء على حيوية المجتمع وتطوره، فلذلك رمى الملايينُ من مواطنيها أنفسهم في البحار متكبدين أهوال العبور إلى ضفة المتوسط الأخرى، معتبرين أنها، بما فيها من هول الموت غرقاً مع الأسرة، أقل إيلاماً من الحياة تحت حكم اللصوص. يبقى تأكيد الأمر المأساوي في أن ممارسات تلك النظم

الإجرامية كانت عن قصد. إنها سياسة ممنهجة مبرمجة بعقول أذكياء ينفذها المجرمون.

لعل أقوى الضغوط التي مارسها حكم اللّصين، أسد الأب والولد، على مجموعة الأعمال السورية التاريخية محاولة أدلجتها، وكأن أفرادها أعضاء في حزب أيديولوجي وعليهم أن يلتزموا بقواعد تنظيمهم، في رفض التعامل مع: "الغرب الرأسمالي"، و"الرجعية العربية"، والإصرار على تبعية قادة الأعمال لسياستهم الخارجية، والتي تميزت بتذبذبها بين القطع والوصل زمن المارقَين حافظ وبشار، يمنعون على طبقة الأعمال التواصل مع مثيلاتها في تلك البلدان ويحاصرون علاقاتهم التجارية والصناعية والحرفية، كلما قاطعوا نظام دولة ما لأسباب سياسية، ما يعرّضهم واقتصاد البلاد لخسائر فادحة!

"قدّرت حكومة أسد، قبل الثورة، أن حوالي ١٨ مليون سوري يعيشون في الخارج". أهم سبب لهجرتهم في الخمسين سنة الماضية السلوك الطائفي المهين الذي مارسته ثلة طائفية حاقدة تمكنت من السيطرة على مقدرات البلاد مستخدمة الحدود القصوى للعنف والإهمال والفساد التي سببت ضبابية لمستقبل البلاد. وإذا أضفنا لهم نحو ٧-٨ ملايين لاجئ نتاج الشتات السوري الحالي الكبير، والذي قَدّرت دوائر سياسية عالمية أن نظام أسد مسؤول عن ٩٥٪ منه، فيما المجرمون الآخرون، قسد وداعش والنصرة...، مسؤولون عن الـ

٥٪ الأخرى. هذا الشتات مثلما استنزف الأطباء والمهندسين والعلماء والخبراء والمثقفين والكتّاب والفنانين والمعارضين، استنزف أرقاماً مهمة من طبقة الأعمال التجارية والصناعية والحرفية التقليدية معظمهم من خيرة أبناء الوطن من ذوي الطبقات ذات القيم النبيلة والعائلات العريقة. هذه السياسات التخريبية خلّفت أزمة اقتصادية متفاقمة استنزفت مدّخرات السوريين.

كما إن التهجير السريع الأخير استنزف الطاقات البشرية التي يُعَوَّلُ عليها في إدارة البلاد لعشرات السنين وترك البلاد تدار بنسبة ١٠٠٪ من شخصيات طائفية من لون واحد، الطائفة العلوية، بشكل فجّ ووقح! كما إن الاقتصاد السوري المحتضر من سوء الإدارة الطويلة ومن الحرب، أدى إلى انخفاض قيمة الليرة السورية خلال الـ٦٠ سنة الماضية مقابل الدولار من ٣ ل.س إلى نحو ٥٠ ل.س زمن أسد الأب، أما زمن أسد الولد فانخفضت نحو ١٠٠ ضعف من ٥٠ إلى ٥٠٠٠! وسيستمر انخفاضها لسنوات طويلة، وستفقد قيمتها تماماً، ما سيجعل أسد ومافياته الحاكمة تحاصر بشدة طبقة الأعمال، التقليدية والجديدة على السواء، وتدير عملية ابتزازهم وتصفيتهم لتسديد فواتير إدارة البلاد، وخير دليل ما حدث مع ذو الهمة شاليش ورامي مخلوف، وكلاهما من المقربين لأسد، الأول ابن عمته والثاني ابن خاله، كما يتم ونحن نكتب هذا المقال، استهداف عشرات من رجال

الأعمال الموالين للنظام بعمليات الابتزاز، وبالوقت نفسه يحاصر أسد اللّص طبقةَ الأعمال الوسطى عبر استخدام مؤسسات الرقابة التموينية والضرائب والجمارك والبلدية والمحافظة، التي لم تعد منذ نصف قرن تقوم بدورها التنظيمي والرقابي الطبيعي، وإنما تحولت إلى إدارات لصوصية تديرها عصابات أجهزة الأمن الطائفية لابتزاز وتفليس هذه الطبقة ودفعها دفعاً إلى الهجرة (١).

أما على صعيد السوريين في الخارج فإن الدمار الذي لحق بمدنهم وقراهم وتكاليف اللجوء استنزف مدخراتهم. واليوم السوريون داخل البلاد أو خارجها منكوبون يبدؤون من الصفر، وهذا سيجعل من الرقم الكبير للمهجرين قسرياً، لا يُعوّل عليه في تقديم حوالات للداخل السوري، كما كانت تفعل طبقة المغتربين قبل وأثناء الثورة، وخصوصاً بعد فقدانهم الأمل بعودة سريعة!

من العوامل المهمة التي ستجعل الاقتصاد السوري ضعيفاً وغير موثوق به تحوّلُه إلى اقتصاد حرب مبني على المفاسد، تحت سيطرة مجموعة "رجال أعمال" جدد، لأنه بات مبنياً على مداخيل أنشطة غير مشروعة كزراعة وصناعة وتجارة المخدرات والسلاح والنفط الخام المسروق والدعارة وغيرها، هذه الفئة غالباً ستُعطى الصلاحية الكاملة لاستخدام قوتها لجمع الثروات الهائلة من الصفقات الفاسدة وأغلبها سيُحوّل إلى الخارج ولن تقوم أيّ بنى تحتية في البلاد تعود عوائدها

لدعم الاقتصادات المحلية. إذاً على مدى سنوات طوال لن يكون هناك ضخ استثمارات في البنى التحتية، وبالتالي لن تكون هناك قوة شرائية سكانية يمكن للاقتصاد المحلي أن ينتعش بها.

أما إعادة البناء فهي كذبة يستخدمها أسد كمُخدّر للسكان، إنه يبيع الوهم، ويُعينه على ترويجه مُشغّلوه الدوليون، فالثقة في الاقتصاد السوري تحت إدارة بشار أسد انتهت حتى لو بقي في السلطة ربع قرن وحَسُنَ سلوكه، فما بالكم بنظامٍ القائمون عليه لم يكتفوا بسرقة الثروة الوطنية وإنما يقطع أفراد عائلاتهم الطرق ويسرقون سيارات المواطنين من اليوم الأول لتسلُّطهم على الحكم إلى اليوم، ويتباهون أمام رئيسهم بأنهم شبيحة (٢)؟! جاؤوا همجاً وقتلة وسُراقاً، وبعد نصف قرن من الحكم لم تتطور أخلاقهم ولم يتحضّروا قيد أنملة! مثلما جاؤوا لا يزالون همجاً ولصوصاً وقتلة!

إننا نعرف أنهم سعداء حينما نَصِفُ للكون إجرامهم، ونعرف أننا حين نتكلم عن مفاسدهم ومخازيهم على البلاد نضخّ الحياة في أركان نظامهم فترة أطول، لأن وصفنا يُنشي مشغليه بحجم فساده وإفساده وإجرامه ووقاحته وهذا أقصى ما يتمنونه لبلادنا(!؟) "فالولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا لم تلتزم بمبادئها. لقد وفروا العَون

والاطمئنان للطغيان العربي وخانوا مبادئهم وسهّلوا أمور الدكتاتوريات" (٣)

***

لعل من المفيد ذكره أن الانهيار الاقتصادي في سوريا جعل من الصعب على كثير من المواطنين الذين أصبحوا معدمين، وأبناؤهم خارج نطاق التعليم، (أكثر من ٦٠٪ من الطلبة السوريين خارج مدارسهم منذ ٢٠١٢)، تجاهل الامتيازات التي قدمتها إيران لأجل تشيّع سكان سورية على الطريقة الملالية الإيرانية، وهؤلاء، بملَكتهم المعرفية البسيطة، لا يمكنهم فهم التأثيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية السلبية على مستقبل البلاد جراء تلك العملية.

أما عن تأثيرها على الاقتصاد السوري، فستحوله إلى اقتصاد تابع للاقتصاد الإيراني، ففي ظل حكم بشار أسد "أصبحت دمشق أحد أقاليم دولة إيران الثيوقراطية" (٤) منذ ٢٠٠٢ إلى اليوم تمدد نحو شرق سوريا، عدا عن عشرات المفاسد والسلبيات الأخرى، نتركها برسم المختصين الاجتماعيين!

ربما نعترف بأن عدداً مُهّماً من قادة الأعمال السوريين لم ينضموا إلى الثورة علناً، خوفاً من إجرام الأجهزة الأمنية، لكنهم خسروا ويخسرون الكثير وفقدوا الأمل بقدرة الاقتصاد الحالي على تعويضهم

عن خسارتهم. هذا جعلَهم يتخلّون عن صمتهم ويوجهون انتقادات شديدة حول سوء اقتصاد البلاد الذي أصبح في حالة موت سريري. بالتأكيد لا يريدون ولا تناسبهم أبداً دولة القمع والتهريب والفساد والمخدرات والدعارة، ولا يشرفهم أن يكونوا جزءاً من اقتصادها. كما إن "رجال الأعمال" الجدد الفاسدين دخلوا مرحلة التصفيات البينيّة، وهم غير قادرين على المدى القصير على منع سقوط بشار أسد ونظامه.

أما العقوبات الدولية على المافيا الأسدية الحاكمة فستزيد التكاليف الاقتصادية على السوريين، والنبذ الدولي سيجعل أسد يعيش عزلة محببّة له وللطغاة والمستبدين أمثاله، حتى يأتي وقت إمّا الحاجة الدولية له للقيام بالأعمال القذرة، كما يفعل نظامه منذ نصف قرن وبالتالي إنعاشه وضخ الدماء الدبلوماسية في شريانه، وهذا بدوره لن يؤثر على الاقتصاد إيجاباً، أو الانتهاء منه ورميه بخزيه، إمّا في قاعات المحاكم الدولية أو في القبر، والأغلب القبر لأنه نظام عرّاب.

إذاً في ظل أي سيناريو يمكن تصوّره لن يتعافى الاقتصاد السوري في ظل حكم بشار أسد مطلقاً. وأتحدى أي مركز أبحاث استراتيجي عالمي أو أي خبير اقتصادي محلي أو دولي أن يُثبت العكس! والأيام بيننا. وإِنَّ الرائِدَ لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ!

هوامش:

(١) قد يسأل سائل لماذا نؤكد في حديثنا عن الاقتصاد أهمية العائلات العريقة، طبعاً عدا عن مميزاتها الاجتماعية وعدا عن ثقافتها الراقية التي تنشرها في المجتمع وأشياء ثمينة أخرى تمتلكها، من باب الاقتصاد تلك العائلات لديها اتصالات عالمية واسعة مع عائلات عريقة في دول العالم، تمنحها القدرة على التواصل معها وتجديد عوامل الدخل الوطني، بما فيه من منفعة للاقتصاد الوطني. إنها ثروة تراكمت عبر التاريخ، سورية أهم محطة في طريق الحرير، كان لا يجب أن تضيع، فإعادة بناء تلك العلاقات صعب ومكلف جداً.

(٢) مصطلح أطلقه السوريون على المجرمين من العلويين الذين اعتمدوا الخطف والسرقة بالإكراه وسيلة وأسلوباً لحياتهم. عندما دخل بشار أسد إلى دار الأوبرا في دمشق وقف الحاضرون بمن فيهم حكومته وهتفوا "شبيحة للأبد لأجل عيونك يا أسد" فحياهم بهبله المعروف فرحاً معترفاً برعاعيته المتفقة مع رعاعيتهم!

(٣) عجمي، فؤاد: (التمرد السوري)، ترجمة أحمد الشنمبري، ط١، ص٢٤٨، دار جداول- بيروت: ٢٠١٣

(٤) المرجع السابق: ص٢٠٥.

أورينت نت: ٢٠٢١/٧/١٢

٥- من جهل شيئاً عاداه!*

انتبهتُ إلى سيدة أسترالية من أصول أوروبية، في العقد الخامس من عمرها، تعمل مدّبرة لغرفة الفندق الذي أقيم به وأملكه، تحاول لفت انتباهي للحديث معها، بينما زوجتي تلتقط بعض الأشياء قبل مغادرة الغرفة. سألتها إن كانت تريد شيئاً. تحدثت عن شؤون ترتيب الغرفة ومتطلباتها. ثم بعد هنيهة استأذنت وسألت:

"سيدي مساء أمس أثار إعجابنا أنا وزوجي ملفك الشخصي على الإنترنت وعظيم إنجازاتك، وأنت بالكاد وصلت إلى سن الـ ٥٠! بينما أنا وزوجي أعمارنا تقريباً مثل عمرك ليس لدينا الكثير! إننا نملك بيتاً مستقلاً وسيارة وحياة هادئة ورحلة سنوية سعيدة، هل لك أن تشرح لي لماذا لسنا أثرياء مثلك وكيف يمكن أن نكون؟ ".

ما أكثر ما سُئلت هذا السؤال، وكأن لغزاً ما حللته أو مارداً خرج من قمقمه وأعطاني مفتاح الثروة ورحل!؟ أجبتها:

"سيدتي أنت تعرفين أن مهنتك لن تجعلك ثرية، ومثلها باقي المهن الأخرى والأعمال المأجورة براتب شهري. لو أردت أن تكوني ثرية كان عليك أن تسلكي دروب الثراء، التجارة أو الابتكار، مصـــدر

---

* مقولة للمفكر المصري أحمد لطفي السيد

الثراء الشرعي في عالم اليوم. إن ما يجعلك غير راضية عن حياتك الحالية الخطأ في طريقة حسابك لدخلك. أنا رجل أعمال أحسب دخلي بعدد المشاريع والصفقات التي أنجزها، وكمية المال اللازم لإتمامها. لكن الطبيب حساباته يجب أن تكون مختلفة، عليه أن يحسب دخله بعدد المرضى الذين نجح في علاجهم. أمّا المحامي فعليه أن يحسب دخله بعدد القضايا التي كسبها، والمدرّس عليه أن يحسب دخله بعدد التلاميذ الذين علّمهم. أنت عليك أن تحسبي كم غرفة نظفت ورتبت وكم زبوناً رضي عن أدائك وكم تكريماً حصلت على حسن أدائك، عندها جميعاً سنكون راضين عن أعمالنا سعداء في حياتنا.

إنّ جميع المهن المفروض أنها تقدم حياة كافية لأصحابها، لكنها بالتأكيد لا تجعل أصحابها أثرياء. نحن نحس بالحسد الذي يولّد التباغض لأن كلاً منا يحسب بجدول حساب الآخر! تخيلي لو أني حسدت صديقي الطبيب لعلاجه آلاف البشر بينما أنا لا أستطيع؟! أكون قد تجاهلت أني لم أختر الطب دراسة ولا مهنة!؟ كل ما في الأمر أني سأبقى غاضباً من نفسي حاسداً صديقي، يعم إحساس عدم الرضا حياتي.

إنها مأساة الحسابات الخاطئة والرغبة بما لدى الآخرين وعدم الاهتمام بما لدينا، الفقر والعوز للشعوب عار النظم الفاسدة التي كان عليها أن تنظم المجتمع بالكفاية بدل سرقته وتبديد مقدراته"!

***

شكّل الوعي الشيوعي عقول النخب المثقفة والحزبية العربية وكمّاً مهمّاً من جيل الشباب منذ بدايات القرن العشرين حتى اليوم. هذا الوعي الرومنسي الذي أثبت لا واقعيته وفشله الذريع حينما انهارت اقتصادات الدول التي طبّقته وانهارت معها النظم السياسية والمجتمعات، كما حدث حين انهارت الكتلة الشيوعية السوفييتية، خلق علاقات عدائية زائفة بين طبقات المجتمع المفروض أنها تكمل بعضها بعضاً.

حلّتْ الرأسمالية والليبرالية مشكلة الصراع بين الطبقات بتطبيق قوانين عادلة على جميع فئات المجتمع، بما فيها عدالة توزيع الثروة وحق العلاج والسكن اللائق والتعليم وحق العيش الكريم براتب يوفر أساسيات الفرد والأسرة لجميع أفراد المجتمع، وقوننة وتنظيم علاقات عادلة بين أرباب العمل والعمال والموظفين.

لعلّ النصوص الدينية الموضوعة وطريقة تفسيرها ساهمت في نظرة المجتمع السلبية لرجال المال والأعمال، كالحديث المنسوب للرسول

الأكرم: "ما جمع مال إلا من شح أو حرام"! حاشا له أن يقول ذلك، لأن هذا المفهوم لا يمت لثقافة الإسلام بصلة، وإلا فمعظم أصحاب رسول الله الذين رفعوا لواء الإسلام كخديجة وأبي بكر وعثمان وابن العاص وجميعهم تجار وأغنياء، أكانوا سُراقاً وأشحاء؟! هذا لا يصح، كما إن الشح بحد ذاته لا يُبلِـغُ الشحيح الثراء وإن أغناه ببعض المال!

كذلك التفسير الخاطئ لبعض آيات القرآن الكريم كتفسير: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم). يكتنز المال غير القادرين والذين لا يعرفون استثماره أو من يسعون لتهريبه. أما طبقة الأعمال تجاراً وصّناعاً فيستثمرون المال ويصرفونه على توسيع منشآتهم وتجاراتهم ومشاريعهم، لتوسيع نجاحاتهم. هذا المسعى يعوّض المجتمع بما هو أهم وأكثر من كنز المال وبالتالي إنفاق زكاة له وذلك بخلق فرص عمل لأفراد المجتمع، وتحويل الأمّة إلى أمّة نشطة قوية ذات نفوذ، وجميع الأديان السماوية حضت على هذا السلوك.*

لعلي أستطيع إيراد عدة عوامل ساهمت بنشأة النظرة السلبية وعدم الثقة في طبقة الأعمال في سورية.

أولها: أن المواطن السوري، طيلة ٦٠ عاماً شاهد أن معظم رجال الأعمال الذين يظهرون للعامة من الفاسدين المرتبطين بالسلطة الفاسدة المجرمة، وبالتالي أنى له أن يعرف أن هناك طرقاً للثراء لا تمرّ من حرام، فحكم على جميع أرباب المال بالتكسب من حرام؟!

وثانيها: أنّ فساد طبقة الحكم في سورية لم يخلق فرصاً تجارية صناعية يستطيع المواطن السوري معها أن يرى في الغنى ظاهرة طبيعية كما مواطن أمريكا وأستراليا ودول الخليج التي تعتبر أرض الفرص اليوم.

الأمر الثالث: أن عدم ثقة المواطن السوري بمحاكم بلاده الفاسدة جعله ينصّب نفسه ضابط عدلية ومؤسسة حسابية رقابية تطلب معرفة مصدر الأموال وقاضياً يحكم وجلاداً ينفذ الحكم في آن واحد، رغم عدم أهليته ولا قدرته على تلك المهام!؟ في حين لا يفكر المواطن الأوروبي أو الأمريكي أو الأسترالي أو الخليجي بهذه الطريقة نتيجة لثقته بفعالية قوى أمن بلاده وعدالة محاكمها!

***

كما أسلفنا في مقالة سابقة تعتبر طبقة الأعمال السورية وعلى رأسها فئة التجار حراس الأمّة السورية، لما لها من مميزات قوة ميزتها عبر التاريخ، ليس لدي دراسات مقارنة بين طبقة الأعمال السورية

ومثيلاتها العربيات، لذلك سأعتمد منهج الملاحظة في المقارنة والاستنتاج، من خلال مثال الشتات العربي في السنوات الأخيرة، فربما تمكّننا من بناء رأي حول ذلك.

للأسف تعيش أغلب الشعوب العربية مرحلة شتات، أولها شتات الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥، ثم شتات حرب الصومال ١٩٨٨ وشتات حربي العراق ١٩٩١ و ٢٠٠٣ وشتات حروب ليبيا واليمن وسوريا في أعقاب اندلاع ثورات الربيع العربي. الانطباع الأولي الصارخ يؤكد أن طبقة الأعمال السورية تجاراً وصناعيين وحرفيين استطاعت خلال بضع سنين من شتاتها أن تتميز في البلدان التي تشتت إليها، في أوروبا وتركيا ومصر والخليج.. حيث بنت أسواقاً وشوارع أعمال شبه خاصة بها، وطورت في الأداء والخدمة وبثت في تلك الأسواق روحاً نشطة وأثارت الإعجاب بقوتها وسرعة تجددها المذهلة وإعادة بناء نفسها، لكنها للأسف لم تستطع تنظيم نفسها، ولديها ضعف ثقة مبالغ به بين أفرادها، حتى إن أحدهم وصفها: "بحبات الرمل كل حبة بذاتها صلدة قادرة على صراع البقاء لكن من شبه المستحيل عجنها ببعضها"!؟

مجلس رجال الأعمال السوري: قوة قتلتها الأنانية وشهوة السلطة!

بعد عدة أشهر لانطلاقة الثورة دعا رجل الأعمال إسماعيل السعدي المقيم في دبي لتشكيل مجلس رجال أعمال. وافقته فوراً بعض

المنتسبين فضّل السرية في عضويته بسبب الخوف، وكثير منهم انسحب بسرعة حين تعقد الوضع، ثم انفرط المجلس بعد عام ونيف. قدّم خلالها مساعدات بمئات آلاف الأطنان من الطحين والمواد الغذائية للمنكوبين السوريين، لكنه مثل أي تجمع سوري عانى من أمراض الشللية والمناطقية وشهوة الحضور والسلطة!

لعل أهم ما فعله المجلس هو جمع قيادات سورية اجتماعية وسياسية معارضة لبشار أسد، ومحاولة إنشاء صندوق إغاثي إداري من تبرعات السوريين تقف خلفه مجموعة من قيادات المجتمع السوري سعياً لاستقلالية القرار الوطني. وجَهِدْتُ ثلاثة أشهر حتى نجح هذا الجمع!

عَقَدتُ الاجتماعات في بيتي في آذار ٢٠١٣، بدبي. كانت عائلتي تقيم بأوروبا. حضرها الدكتور برهان غليون بصفته الأكاديمية وبصفته شخصية مطلوبة للقيادة شعبياً، وكذلك بصفته رئيساً للمجلس الوطني، والمرحوم ميشيل كيلو بصفته معارضاً ورئيساً للمنبر الديمقراطي، والشيخ الجليل سارية الرفاعي، بصفته شخصية يثق بها السوريون، وولده عمار، والعالم المخترع عدنان وحّود بصفته الشخصية وصفة ناقل لمجريات الاجتماع للسيد عصام العطار، أمدّ الله في عمرهم جميعاً. وعدد من أعضاء مجلس رجال الأعمال. أما الهدف منه: فتأسيس هيئة سورية تشرف -وتتابع- عمل ٥٤ شخصية من خيرة التكنوقراط

السوري في الشتات، تضع رؤية للثورة تتوافق مع الشرعة الدولية كما تدير المناطق التي تتحرر من نظام أسد وتحفظ ملفات مؤسسات الدولة السورية؛ لا تتدخل في عمل المجلس الوطني والائتلاف لكنها تدعمه، وهما يستشيران الهيئة بما يجب. لأننا توقعنا أن يلجأ أسد إلى تدمير مؤسسات الدولة ولم نتصور أنه سيدمر الدولة بكاملها ويشتت شعبها.

خلال ذلك اللقاء عرضت التبرع بـ ٥٠ مليون دولار للصندوق. فشل المشروع لأن كيلو ضربه في مقتل حين صرّح أن السعوديين وعدوه بشرب النرجيلة في قهوة الحجاز في شهر حزيران القادم. واستجرّ عدداً من رجال أعمال (٢) المجلس ليكونوا أعضاء في مؤتمر الديمقراطيين الذي أنشأه في القاهرة مايو/ أيار، وساهم في تحويل أغلبهم إلى "سياسيين"(!؟)

ورغم إصراري لم يعودوا يلتزمون بأصول المجلس، وانتهى كما كل تجمعات السوريين إلى العدم والشتات. فيما بقيت أتابع وحيداً ما بدأت به. أصرف من جيبي على مجموعة أورينت الإعلامية نحو ١٨-٢٠ مليون دولار سنوياً، وكذلك على مؤسسة أورينت الإنسانية التي هي حكاية أخرى من حكايات نجاح رجل أعمال سوري!

مؤسسة أورينت الإنسانية:

تقدم الدكتور عمار مارتيني، بالاتفاق مع المدير التنفيذي الأسبق لأورينت الإعلامية المحامي فادي ميشيل جبور، بمشروع لمساعدة الجرحى من المتظاهرين الذين كانت ميليشيا أسد تطلق النار عليهم أثناء تظاهراتهم، ويُنقلون إلى تركيا سعياً للعلاج وهرباً من إلقاء القبض عليهم في المشافي والعيادات داخل سوريا.

طلب الدكتور عمار ميزانية لإدخال الجرحى إلى المشافي التركية وإجراء العمليات اللازمة لها، وتعهد، بمساعدة الأطباء السوريين الذين هربوا من النظام، بإنشاء دار استشفاء لرعاية الجرحى بعد العمليات لتخفيف التكاليف. وافقت شريطة التكفل بالإدارة كاملة وعدم إضافة أعباء إلى أعبائي الكثيرة عدا عبء التمويل.

ثم تطور العمل في سنته الأولى لتولد مؤسسة أورينت للأعمال الإنسانية، التي أنشأت ١٠ مستشفيات في مبان سورية مهجورة موزعة على مناطق شمال غرب وشمال شرق وجنوب سوريا، بعض المباني كانت مقرات لحزب البعث المشؤوم، بعضها دمرته طائرات أسد وروسيا نحو ٤ أو٥ مرات كمشفى كفرنبل وأعدنا بناءه مرة تلو أخرى. وأقمنا بمساعدة فريق تجاوز نحو ١١٠٠ طبيب وممرض وعامل ومستخدم نحو ٧٢ نقطة طبية، عالجت نحو ٣ مليون مريض، وأجرت تقريباً نحو ٤٠ ألف عملية جراحية بتخدير كامل ومثلها

عمليات جراحية بنصف تخدير، ومنظومة إسعاف ومنظومة حملات اللقاحات ومدرسة خرجت نحو ٢١ ألف تلميذ سوري. وبعد استخدام أسد المجرم للكيماوي كسلاح ضد المدنيين تبرعتُ بنحو مليون إبرة أتروبين وزعتها أورينت على عموم المدن السورية، كما أقمنا عدداً من المخيمات للأسر المنكوبة شمال إدلب.

الدكتور عمار مارتيني الرجل النشيط، لو أنه في أمّة أخرى لأقاموا له نصباً تذكارياً! كان دائم البحث عن حلول تمويلية لأنه وجد أن النفقات الشهرية تزيد عليّ بمعدلات كبيرة حتى وصلت في بعض الشهور إلى نحو مليون دولار شهرياً. وبترتيب وتنسيق مع ابن عمه شادي مارتيني استطاعا ربطي بمجموعة كبيرة من رجال الأعمال الأمريكيين بينهم سوري واحد هو الدكتور الرائع يحيى باشا، من خلال منظمة تحالف الأديان التي أسستها السيدة جورجيت بنيت، (سيدة أمريكية ناجية من الهلوكست)، والتي تضم نحو ١٢٠ منظمة إنسانية أمريكية من جميع الأديان. اتفقنا أن يقوموا بتأمين الاحتياجات الطبية من أدوية وأجهزة ومواد إغاثة ويوصلوها إلى أقرب نقطة لسورية نختارها بالاتفاق معهم، أورينت الإنسانية ستتولى كامل الأعمال اللوجستية ابتداء من تخليص البضائع إلى توزيعها وإقامة وإدارة المشافي والمدارس ودفع رواتب الأطباء والممرضين والمدرسين والعمال والمستخدمين وتأمين الوقود وكل ما

تحتاجه المشاريع. وفعلاً من عام ٢٠١٦ خفّت المصاريف عليّ سنة إثر أخرى بسبب مساعدتهم.

أعطيكم مثالاً: في كانون أول ديسمبر العام ٢٠٢٠ استطعنا تأمين وتوزيع أدوية بقيمة ٨ ملايين دولار في المحرر السوري على مديريات صحة إدلب وحلب الحرة ومشفى الجامعة ونحو ٥٠ منشأة طبية جميعها تعمل مجاناً. وكل شهر تستقبل أورينت الإنسانية من تحالف رجال الأعمال والمنظمات الأمريكية التابعة لهم لا أقل من ٢٫٥ إلى ٣ مليون دولار أدوية وأجهزة طبية توزع مجاناً منذ سنوات، فيما يظن السكان أن الدول والمنظمات الدولية هي الخيّرة عليهم وليس أبناءهم!!! (٣)

عوّضني الله بهؤلاء خيراً من رجال أعمال سوريين خذلوني وخذلوا أهلهم. واستسلموا لخوفهم وأنانيتهم. حتى هذه اللحظة صرفت من جيبي الخاص مساعدات للشعب السوري في طريق الخلاص من هذا النظام المجرم نحو ٢٠٠ مليون دولار! وإلى تاريخ كتابة هذا المقال لم تقبل مؤسسة أورينت الإنسانية أي دعم مادي نقدي لكنها تقبل الدعم بالجهد الشخصي من السوريين حصراً، والمواد العينية الطبية أو الإغاثية ممن يرغب.

***

وفي هذا المقام لا يسعني إلا أن أقف إجلالاً لأرواح شهداء أورينت الطبية والإعلامية الذين وصلوا إلى نحو ٢٥ شهيداً باستهداف مباشر من قبل طائرات أسد وروسيا، ومئات المرضى الذين قضوا في قصف تلك المشافي.

أنا غسان عبود مصنف عالمياً رجل أعمال أنتمي للشعب السوري الحرّ. أعلن أني سأبقى أناضل ضد بشار أسد ومن يشبهونه في سورية ساعياً لحرية بلدي ما استطعت!

أورينت نت: ٢٠٢١/٧/١٩

هوامش:

(١) راجع كتاب (فقه الزكاة) للشيخ يوسف القرضاوي- ط ٢ - مؤسسة الرسالة: بيروت ١٩٧٣

(٢) هذا لا يعني أن جميع رجال الأعمال مستقيمون أحدهم (ع.ق.س) كذب في حجم مساعداته كما خذل مجلس القضاة بعدما وعد أعضاءه برواتب شهرية لم يدفع منها فلساً واحداً فاضطررت لدفعها كاملة نحو ٤٥٠ ألف دولار، سترد سيرته ووثائق عنه في أماكن تالية.

(٣) المنظمات الإنسانية بسبب طبيعة المواثيق الدولية المرتبطة والمكبلة بها فإنها تقدم مساعداتها للحكومة المعترف بها وبالتالي جميع مساعداتها ذهبت لنظام أسد التي أقرت المنظمات الدولية ذاتها أنه استخدمها ورقة ضغط وابتزاز للسكان في مناطق الحصار وورقة دعم لمواليه كما إنه وزعها على الأسواق وبيعت لصالحه! وحدها المنظمات الأهلية وأورينت على رأسها بالمطلق التي أمنت الأدوية والمشافي وحتى الخيم ومراكز الإيواء للاجئين وكذلك مراكز توثيق الجرائم وإخراج الحالات الصحية المستعصية للعلاج في الخارج وساهمت في تأسيس مراكز اجتماعية وورش عمل للنساء اللاجئات في المناطق الخارجة عن سيطرة أسد.

وثيقة:

صورة ضوئية لـ "اتفاق الإذعان"

الذي كان نظام الأسد يريد فرضه - عبر رامي مخلوف (شركة نينار) - لإجبار غسان عبود على قبول "شراكة" تؤدي للاستيلاء على تلفزيون أورينت

اتفــاقيــة

الفريق الأول :

شركة نينار المحدودة المسؤولية المسجلة في السجل التجاري بدمشق تحت الرقم 14823 ، يمثلها مديرها السيد أنس أناستاسيو بندقجي المتخذة موطناً مختاراً لضرورات هذه الاتفاقية عنوانها الكائن في دمشق ....

الفريق الثاني :

السيد غسان عبود بن ...... تولد .... يحمل الهوية الشخصية رقم .... المتخذ موطناً مختاراً لضرورات هذه الاتفاقية عنوانه الكائن في دمشق – ....

مقدمه

حيث أن الفريق الثاني يملك تلفزيون المشرق الفضائي ORIENT TV الذي يتم بثه من دبي بموجب .... مجهز بكافة التجهيزات والمعدات والأرشيف بالإضافة إلى طاقم عاملين من ذوي الخبرة وذلك وفقاً لما هو مبين في الملحق المرفق.

وحيث أن الفريق الأول شركة سورية تعمل في مجال الإنتاج السينمائي والتلفزيوني وإنشاء المؤسسات الإعلامية وتملك أجهزة بث محددة في الملحق المرفق.

وحيث أن الفريقين قد اتفقا على تأسيس شركة محدودة المسؤولية في المنطقة الحرة بدمشق (والمشار إليها لاحقاً بـ "الشركة") لتقوم هذه الشركة بتملك تلفزيون المشرق

الفضائي ORIENT TV الآنف ذكره بكافة تجهيزاته المادية المحددة بالملحق المرفق وبكافة ما يملكه من حقوق أدبية وفكرية وذلك وفق الشروط الواردة في هذه الاتفاقية.

وحيث أن الفريقين قد تبادلا الإيجاب والقبول المتطابقين ،

لذلك فقد اتفقا على ما يلي:

1. تعتبر مقدمة هذه الاتفاقية وملاحقها والنظام الأساسي المرفق أجزاءاً لا تتجزأ من هذه الاتفاقية.

2. اتفق الفريقان, خلال مدة سريان هذه الاتفاقية، على تأسيس شركة محدودة المسؤولية في المنطقة الحرة بدمشق تحت اسم "..........." غايتها " إنشاء مؤسسات إعلامية تعمل في مجال الإعلام المرئي والمسموع والمقروء وإنشاء الصفحات الالكترونية على شبكة الانترنيت وإنشاء المحطات الفضائية وفي إنتاج المواد الإعلامية والإعلانية والإنتاج السينمائي والتلفزيوني والإنتاج الفني بكافة أنواعه وتوزيعه وتسويقه واستيراد وتصدير الأفلام واستيراد كافة الأجهزة اللازمة للإنتاج والعرض السينمائي والتلفزيوني وتمثيل شركات الإنتاج والتسويق السينمائي والتلفزيوني والتدريب الإعلامي وإنتاج البرامج الفنية من غنائية أو مسرحية وتوزيعها وتسويقها_وتقديم كافة الخدمات الفنية والحصول على حقوق الملكية الأدبية أو النشر أو الترخيص باستعمالها أو المشاركة في مشاريع مماثلة والحصول على أية حقوق أو امتيازات أو تراخيص لتحقيق غايات الشركة التي تسمح بها القوانين الجاري العمل بها في الجمهورية العربية السورية" ، مدتها ثلاثون عاماً رأسمالها 12.000.000 $ (اثنا عشر مليون دولار أميركي) موزع على .... حصة (........... حصة) قيمة الحصة الواحدة ....

2

دولار أميركي موزعة بين الفريقين بنسبة 55٪ من رأس المال للفريق الأول و 45٪ من رأس المال للفريق الثاني يسدد دفعة واحدة عند التأسيس وذلك وفق ما هو مبين في النظام الأساسي المرفق.

3. اتفق الفريقان على أن يدير الشركة المراد تأسيسها موضوع هذه الاتفاقية مدير واحد يسميه الفريق الأول وتكون مدة ولاية المدير .... سنة، وتكون للمدير كافة الصلاحيات عدا صلاحية بيع ورهن أصول الشركة والتصرف بها وتقديم الكفالات والتأمينات والرهونات والتنازل عن مشاريع الشركة وعن الرخص والامتيازات الممنوحة لها وعن الحقوق العينية والاقتراض باسم الشركة، أما صلاحية شراء أصول الشركة فتبقى من ضمن صلاحيات المدير.

4. التزم الفريق الثاني وعلى نفقته ومن ماله الخاص، وخلال مدة أقصاها .... من تاريخ شهر الشركة موضوع الاتفاقية، باتخاذ كافة الإجراءات اللازمة للتنازل ونقل ملكية تلفزيون المشرق الفضائي ORIENT TV بتجهيزاته ومعداته وأرشيفه وكافة ما يملكه من حقوق فكرية وأدبية وغيرها من الحقوق وذلك وفق ما هو مبين في الملحق المرفق إضافةً إلى نقل كافة العاملين لديه الواردة أسمائهم في الملحق المرفق وذلك إلى الشركة المراد تأسيسها موضوع هذه الاتفاقية وذلك لدى الجهات ذات العلاقة بحيث تصبح هذه الشركة هي المالكة الوحيدة لتلفزيون المشرق الفضائي الآنف ذكره و لكافة الحقوق المترتبة له والمرتبطة به الواردة في هذه الاتفاقية بما في ذلك إجراءات التنازل عن حماية اسم "تلفزيون المشرق" ORIENT TV لدى الجهات ذات العلاقة وذلك لصالح الشركة موضوع الاتفاقية وذلك بمجرد تأسيس وشهر هذه الشركة.

3

5. صرح الفريق الثاني وأكد بأنه المالك الوحيد لتلفزيون المشرق الفضائي ORIENT TV موضوع هذه الاتفاقية بكافة عناصره وخاصة الاسم التجاري "تلفزيون المشرق" ORIENT TV و كافة حقوق الملكية الفكرية والأدبية المترتبة على اسم "تلفزيون المشرق" الفضائي ORIENT TV و اللوغو و غرافيك الأخبار والهوية البصرية السمعية واللونية الخاصة بهذا التلفزيون والفواصل المصورة والفواصل الفرعية وكافة البرامج والغرافيك والشارات والمواد المشتراة من أفلام أجنبية وأفلام عربية سورية ومسلسلات درامية ومسلسلات رمضان وبرامج وثائقية متنوعة وكاميرا خفية أجنبية كاكاس و البرامج المنتجة في دمشق وتقارير رصد الحياة السورية وتقارير خارجية من أنحاء العالم والمواد المصورة الأولية بدون مونتاج (رشز) وذلك وفق ما هو مبين في الملحق المرفق. كما صرح الفريق الثاني بأنه يملك وحده كافة الصلاحيات القانونية التي تخوله ابرام هذه الاتفاقية وبأنه وحده المخول بالتنازل عن كافة الحقوق المذكورة في هذه الاتفاقية الى الشركة موضوع هذه الاتفاقية بشكل قانوني دون المساس بحقوق أي طرف ثالث كما يضمن بأنه لم يرتب أية حقوق مهما كانت تسميتها للغير وبأنه يقوم بنقلها للشركة بريئة من أي حق أو مطلب للغير. ويكون الفريق الثاني وحده مسؤول مدنياً وجزائياً تجاه الفريق الأول و/أو تجاه الشركة المزمع تأسيسها و/أو تجاه أي طرف ثالث عن مخالفته لأي مما ورد في هذا التصريح. كما يلتزم الفريق الثاني، ومن ماله الخاص، بتعويض الفريق الأول و/أو الشركة المزمع تأسيسها و/أو الغير عن أي ضرر ناجم عن مخالفته لذلك.

6. يضمن الفريق الثاني عدم معارضة أي شخص كان للشركة المزمع تأسيسها موضوع الاتفاقية في ملكيتها للاسم التجاري "تلفزيون المشرق"

ORIENT TV موضوع الاتفاقيـة و/أو في ملكيتهـا للتلفزيـون موضـوع هذه الاتفاقية و/أو أي من الحقوق الواردة في المادة 5 مـن هـذه الاتفاقيـة أو تلك المعددة في الملحق المرفق.

7. من المتفق عليه بين الفريقين بأن قيام الفريـق الثـاني بنقـل مليكـة تلفزيـون المشرق الفضائي ORIENT TV وكافة الحقوق الواردة في هذه الاتفاقية إلى الشركة المزمع تأسيسها موضوع هذه الاتفاقية وذلـك فـور تأسيسـها يـتم لقـاء مبلغ نقدي مقطـوع وقـدره 1.800.000$..مليـون وثمانمائـة ألـف دولار أميريكي تسـدده الشـركة إلى الفريـق الثـاني خـلال شـهر مـن تـاريخ التنازل ونقل ملكية تلفزيـون المشـرق الفضـائي ORIENT TV بكافـة الحقوق المرتبطة به إلى اسم الشركة وذلك وفق ما هو مبين في هذه الاتفاقية.

8. يتحمل الفريق الثاني وحده كافة النفقات والمصاريف المترتبة علـى تلفزيـون المشرق الفضائي وذلك حتى تاريخ نقل ملكيته إلى الشركة موضوع الاتفاقيـة ولا يحق للفريق الثاني مطالبة الفريق الأول بأية مبالغ أو مصـاريف تخـص تلفزيون المشرق الفضائي وذلك عن الفترة المذكورة آنفاً بالغاً ما بلغت قيمتها.

9. اتفق الفريقان على أن يستمر العمل في تلفزيون المشرق الفضـائي في دبـي إلى حين إتمام عملية التنازل و نقـل ملكيـة تلفزيـون المشـرق الفضـائي موضـوع الاتفاقية إلى الشركة المزمع تأسيسها موضوع الاتفاقيـة والبـدء في البـث مـن المنطقة الحرة في دمشق، ويحق للفريق الأول إرسـال منـدوب عنـه إلى دبـي لمتابعة أعمال البث والإشراف عليها

10. التـزم الفريـق الأول وعلـى نفقتـه بالحصـول علـى كافـة التراخـيص والموافقات اللازمة للبث الفضائي لتلفزيون المشـرق الفضـائي ORIENT

TV من المنطقة الحرة في دمشق وذلك من قبل الجهات المختصة في سوريا.

11. يتحمل الفريقان مصاريف ونفقات تأسيس الشركة موضوع الاتفاقية وذلك كلٌ بحسب نسبته في هذه الشركة.

12. فور شهر الشركة موضوع هذه الاتفاقية ، التزم الفريقان بعقد اجتماع للهيئة العامة لاتخاذ قرار بفتح حساب باسم الشركة لدى أحد المصارف في سوريا على أن يتم تحريك هذا الحساب بتوقيع ممثل عن الفريق الأول وممثل عن الفريق الثاني مجتمعين.

13. فور شهر الشركة موضوع هذه الاتفاقية، التزم الفريقان بعقد اجتماع للهيئة العامة لاتخاذ قرار بزيادة رأسمال الشركة ليصبح 16.000.000$ ستة عشر مليون دولار أميركي وبتفويض المدير بتحديد تاريخ ومهلة تسديد قيمة هذه الزيادة. ويكون لكل فريق حق الأفضلية بالاكتتاب على الحصص المنشأة تبعاً لزيادة رأس المال وبنسبة مشاركته الأصلية فيه، وعلى الفريق الذي يرغب بممارسة حق الأفضلية تسديد قيمة حصته خلال المهلة التي يحددها المدير لهذا الغرض ، وفي حال لم يمارس أي من الفريقين حق الأفضلية في الاكتتاب على حصص المخصصة له عند الزيادة جاز للفريق الآخر الاكتتاب على هذه الحصص.

14. فور شهر الشركة موضوع هذه الاتفاقية، التزم الفريق الأول ببيع كافة أجهزة البث المملوكة من قبله والمحددة في الملحق المرفق إلى الشركة وذلك لقاء مبلغ نقدي مقطوع وقدره2.200.000$ مليونان ومائتا ألف دولار أميركي تسدده الشركة إلى الفريق الأول خلال شهر من تاريخ توقيع محضر استلام وتسليم هذه الأجهزة إلى الشركة.

سورية: بين قيامة عليها وقيامة لها؟!
الفصل الأخير أيها السوريون

في ذلك اليوم البارد بداية ٢٠١٦ بينما هممت بمغادرة بروكسل إلى لندن بالقطار. طلب مني موظف الهجرة والجوازات الإنكليزي الانتظار جانباً بعدما أخذ جواز سفري البلجيكي وغاب نحو ١٥ دقيقة، عاد وختم الجواز معتذراً عن التأخير. فسألته إن كنت أستطيع أن أعرف سبب التأخير ولماذا أجرى تدقيقاً ثانياً؟ فأجاب بأدب مصطنع أحسسته تهمة.. سُبّة.. إهانة.. من أصعب تهمة وإساءة اضطررت للسكوت عليها، وغادرت ورأسي مثقل من هول هذه التهمة الجديدة التي سترافقني إلى اليوم: (سـوري)! جنسيتي السابقة تهمة دولية اليوم أيها السادة!؟

وبينما كنا نسافر من إحدى الدول الأوروبية قبل ٥ سنوات انتبهت لابنتي (١١ عاماً) تطلب من أخواتها ألا يتكلموا "باللغة" السورية

أثناء عبور حواجز المطار لكي لا يضايقنا الأمن والجوازات وأن يتكلموا جميعهم بالفرنسية أو الإنكليزية!

يا إلهي إنهم يُحمّلون حتى أطفالنا عقد ذنب لا دخل لهم فيها، إنهم يحاولون إصابتهم بعقدة نقص!

في ذلك اليوم قدرت إن كنت أنا بما أنا عليه أعاني من جنسيتي السابقة فما بال الملايين من الشباب الذين للتو بدؤوا حياتهم لا يعرفهم أحد؟! كيف يُفعل بالعائلات التي تُهجَّر قصداً بالتجويع والتعطيش وليس بفقدان الأمن فقط، فشعوب عديدة تصمد تحت ضربات القنابل والصواريخ لكنها لا تصمد تحت سياسة التجويع والتعطيش، فيصبح باعتبارها ذل التسول في البلاد الأخرى وهدر الكرامة أهون من الموت، فما أشرس الموت في ضمير الأحياء!

***

الجغرافيا السورية تاريخياً غير ثابتة!؟ لكنها لم تشهد في تاريخها إجماعاً دولياً على محوها كدولة وشعب من سجل الدول والشعوب محواً كاملاً كما هو الحال في السنوات المئة الأخيرة!؟

المؤكد أن تركيا بموجب اتفاقية أنقرة ١٩٢١ ومعاهدة لوزان مع الفرنسيين، ثم بعد نحو ١٨ سنة بعملية ضم لواء إسكندرون ١٩٣٩، قد احتلت ما يعادل مساحة سورية الحالية والتي تضم: مرسين وطرسوس وكيلكية وأضنة ومرعش وعنتاب وكلس والبيرة وأورفة وديار بكر وماردين، كما إنّ خط الحدود منح تركيا نصف مناطق نصيبين وجرابلس ورأس العين. الخريطة السورية الحالية المعترف بها دولياً.

بعيداً عن آفة الأيديولوجيا، سورية جغرافياً عُرفت بالمناطق الممتدة من حدود جبال طوروس شمالاً إلى حدود قناة السويس بما فيها شبه جزيرة سيناء وغرباً المتوسط وشرقاً دير الزور وصحراء بلاد الشام بمساحة تقدر بنحو ٥٤٠ ألف كم مربع، أي تماماً كمساحة فرنسا(!؟) أشارت مراسلات فرنسية بريطانية أثناء اتفاقية سايكس بيكو إلى تبعية مناطق أضنة شمالاً حتى صحراء النقب جنوباً لسوريا!

لا تقوم دولة حتى تفنى دولة

قسّم الإنكليز والفرنسيون سورية في العصر الحديث بموجب صفقة سايكس بيكو: الجزء الجنوبي (فلسطين وشرق الأردن وجنوب

سورية الشرقي مع العراق) لبريطانيا، (شمال سورية بما فيها المناطق الحالية المحتلة من تركيا إلى حدود العراق شرقاً مع غرب سورية حتى الخط الفاصل مع حدود إسرائيل قبل ١٩٦٧)، لفرنسا. مع دخول فرنسا المنتدبة بقيادة الجنرال غورو الذي أكد سلوكه أنه يحمل عقلية صليبية داس على شروط اتفاقية الانتداب، واعتبر وطأته الأراضي السورية بجيوشه امتداداً للحروب الصليبية! واستهلّ حكمه بتقسيم منطقة الانتداب الفرنسي إلى ست دول: دولة دمشق ودولة حلب ودولة العلويين ودولة الدروز ودولة لبنان، الذي غيّروا جغرافيته مرة أخرى بعدما اقتطعوا أقضية حاصبيا وراشيا وسهل البقاع من "دولة دمشق" وضموها له ليصبح اسمه "دولة لبنان الكبير" لبنان الحالي. والدولة السادسة دولة لواء إسكندرون المستقل، الذي سُهّلت لتركيا عملية ضمه فيما بعد! والمنطقة السابعة الشمالية تنازلت فرنسا عنها لتركيا كما أسلفنا ١٩٢١ وهي المناطق السورية الخاضعة لتركيا حالياً!

في العام ١٩٦٧ بموجب صفقة سرية سهّل وزير الدفاع حافظ الأسد، الذي كان قد استولى على سورية مع ثلة من عسكر الأقليات ١٩٦٣، للإسرائيليين احتلال هضبة الجولان، حوالي ٢٠٠٠ كم، لتصبح مساحة الخارطة السورية ١٨٣,٤ ألف كم مربع، وإن كانت

الأمم المتحدة ومعظم الدول لم تعترف بضم إسرائيل لهضبة الجولان إلى اليوم! وبذلك تكون سورية الحديثة فقدت نحو ضعفي مساحتها وشعبها. مع ذلك استطاعت ولغاية عام ١٩٥٨ أن تكون دولة نشطة في سلّم الناتج العالمي، المرتبة (٣٨)، قبل استيلاء عسكر الأقليات على الحكم والذي بعده تدرجت بالتحول إلى دولة فاشلة لتجلس في المرتبة الأخيرة في سلم الناتج العالمي وفي الصحة والأمن والتعليم والرفاهية...!

***

يُحمِّلُ البعض مشكلة جغرافيا سورية الحديثة لصفقة سايكس بيكو، لكني أعتقد أن مصيبة سورية تكمن في وعد بلفور ١٩١٧ الذي هيّأ لإنشاء دولة لليهود "وطن قومي" الذي وإن أتى متأخراً سنةً عن صفقة سايكس بيكو، إلا أن للأروقة السياسية خفاياها! ومن تاريخ ذلك بدأت عملية تحويل سورية إلى دولة تُستنزَف حتى الموت في سعي لإزالتها عن خارطة الدول. "لا تقوم دولة حتى تُمحى دولة"، مثلما لا تقوم إمبراطورية حتى تُنهَكَ دول وربما تُباد أمم!!

بتعدد الانقلابات العسكرية الساذجة، أثبتت الوثائق أن جميعها مدعومة إما من بريطانيا أو فرنسا أو أمريكا أو شراكة بينهم، بات

واضحاً أن هدفها النهائي وصول الحكم العلوي بقيادة شخص كحافظ الأسد للسلطة في سورية وحكمها حكماً طائفياً متوحشاً حتى تنتهي عبر تدمير مؤسساتها والقضاء على بنيتها الاجتماعية، فالحكم العلوي الطائفي خصوصاً بعدما استفحل العلويون بادعاء تفوقهم السلطوي كان كفيلاً بجعل الطوائف الأخرى تبحث عن ذاتها وبالتالي نمو الإحساس الطائفي لديها على حساب الشعور الوطني، الذي اشتغلت عليه النخب الثقافية السورية عموماً تقريباً منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر رداً على سياسة التتريك التي اعتمدها "الاتحاد والترقي" التركي وبعض النخب التركية أواخر العهد العثماني، بعضهم دفع حياته ثمناً لها (شهداء المجرم جمال باشا السفاح على مشانق دمشق وبيروت). واستكمالاً للإجماع الوطني وقطعاً لبعض الدعوات الطائفية وخصوصاً من جهات وشخصيات مسيحية استقوت بأخبار استعداد الفرنسيين لدخول دمشق فعلا صوتها الطائفي الإلغائي خلال المؤتمر السوري الوطني الذي عُقد في دمشق قبل دخول الفرنسيين بأيام(!؟) أجمع السوريون على ضرورة التنوع الطائفي في المقاومة ضد سياسة الفرنسيين في سورية.

وفي آخر ثلاثينات القرن الماضي كان الإجماع الوطني قد نضج حين توجه السياسيون السوريون الجدد لوضع خطة وطنية لاستيعاب عموم الطوائف في وحدة وطنية شاملة لا تستثني أحداً من المشاركة في الحكم لإضعاف دعوات الانفصال ودعوات النعرات الطائفية كدعوة سلمان المرشد وثلة آخرين من طائفته الذين أرسلوا كتباً إلى عدة جهات يهودية فرنسية إنكليزية، يحرّضون على الحكم الوطني، كشف السفير الفرنسي عام ٢٠١٢ عن إحداها!

النزعة السلطوية لدى كثير جداً من العلويين الذين مارسوها بتعسف وصل لحدّ الاستعباد والإجرام أيقظت الشعور بالظلم في بعض السوريين وخرجوا إلى الشوارع نهاية سبعينيات القرن الماضي، لكنه كان خروجاً نجولاً، ربما بسبب تبنّي الإخوان المسلمين المدعومين من بعث العراق آنذاك للحراك، مع ذلك حرصت النخبة العسكرية العلوية بقيادة حافظ الأسد على قمعها بهول أدى إلى تدمير مدنٍ عدة، حماة وجسر الشغور وعدة قرى وأحياء كحي المشارقة بحلب، ذهب ضحيتها نحو ١٢٠ ألف مدني. هذا القمع الذي سماه كثير من العلويين انتصاراً جعل إحساسهم بالتفوق السلطوي أكثر شراسة، كما إن الفقر وتهجير جيل الشباب السوري للعمل في الخارج كانا أهم عاملي

إحباط وخيبة أمل من حكم بشار الأسد، ما دفع عموم السوريين للخروج إلى الشوارع ٢٠١١، عدا المناطق العلوية، يقول المفكر السلافي سلافوي جيجك: "الناس لا يخرجون إلى الشوارع إذا كانت ظروفهم سيئة وإنما حين يصابون بخيبة الأمل"! ظهور تلفزيون أورينت عامل آخر مهم جداً كسر حالة الاستلاب عند عوام السوريين وجمعهم حول شاشته وعزز من وعيهم تجاه جور الحكم وأخرجهم من دائرة الانغلاق على سوريا التي شكّلها حكم البعث الطائفي على وعيهم، وقارن بين سورية المُهَلهَلة الحالية وبين سورية قبل هذا الحكم، وكذلك قارن بين ما يحدث في دول الجوار من تطوّر مُبهر خلال فترة وجيزة مع واقعهم المُنهَك وحكمهم الظالم! فقد كنت ولا زلت أرى أن أهم عامل في انفجار الربيع العربي في دول الظلم: تونس ومصر وليبيا وسورية واليمن هو التطوّر السريع والمذهل والحكم الرشيد لدولة الإمارات العربية المتحدة التي قدّمت نموذجاً يُحتذى به بالمنطقة في التنمية وبناء الأوطان وشدّ بنى المجتمع إلى بعضها! هذا المشهد المتفوق بالمقارنة خلّف حسرات على وجوه زائريها من تلك الدول العربية وأسئلة قادتهم إلى الخروج إلى الشارع بغضب كالطوفان!

حافظ الأسد ونخبة العلويين كما بدؤوا حين استولوا على السلطة، بمؤامرة وإن كُشف الكثير منها لكن لا يزال بعضها مخفياً، كما لا يزالون إلى اليوم ليس لديهم أي مشروع لسورية سوى مشروع الحفاظ على الحكم بأي ثمن وإن تحولت إلى أنقاض! وكان أول سلاح لهم ضد الشعب السوري هو سياسة ضرب بناه الاجتماعية ببعضها وتقسيم الشعب السوري إلى أديان وطوائف ومذاهب وقبائل وإثنيّات وموالاة ومعارضة، وتبعيات لهذه الدولة أو تلك(!؟) فإذا اعتمدنا نظرية عالم الاجتماع بندكت أندرسون "الدول بنى اجتماعية" فإن تحطيم هذه البنى واستعداء بعضها لبعض وضربها ببعضها سيدمّر المجتمع والدولة كما حدث في الـ ١٢ سنة الأخيرة، فتدمرت سورية وتهجّر نحو ١٦ مليون نصفهم خارجي ونصفهم تهجير داخلي، وأكثر من مليوني قتيل! وتحولت سوريا إلى ملعب للتدخلات الدولية العسكرية، فإذا كانت سياسات الحكم الخاطئة تستجلب التدخل الخارجي، فإن السياسة الميليشياوية والمافيوية في حكم سورية تخطّت منطقة التخمين بأنها سياسة خاطئة وإنما نستطيع أن نجزم أنها سياسة عمدية هدفها التدمير وإشعال الحرائق في البلاد قبل الهرب منها بعد تركها قاعاً صفصفاً!

البنى الاجتماعية السورية المضغوطة طيلة حكم مافيا أسد نحو نصف قرن آنذاك، كانت مصابة بالذعر والتوجّس لذلك بعد عامين من القمع والمؤامرة على الثورة فقدت ثقتها ببعضها وتخرّبت، وتهدمت أساسات تلك البنى، حتى إن كثيراً منها أصبح يلاطم ويضارب نفسه!! وبذلك ضاع حلم الشعب السوري الذي أحيته الثورة ببلد حرّ نبيل يحفظ كرامته، وأصبحت الكراهية والتخوين والحقد والقتل الجماعي هي الوسائل الوحيدة للتواصل فيما بين هذه البنى، لا بل حتى بين أفرادها!؟ وأصبحت الجغرافيا السورية واقعاً مقسمة: حكم دمشق وحلب المدينة للمليشيا الأسدية بقيادة عاشر أقوى شخصية في سوريا بشار الأسد بمساعدة إيران، أما حكم الساحل وجباله فللميليشيا العلوية بمساعدة روسيا، وحكم شرق الفرات للبي كي كي مليشيات كردية مسلحة حوّلت بمساعدة الأمريكان المنطقة إلى سجن كبير داخله سجون متعددة للسكان، فيما مناطق شمال حلب تحكمها عصابات مسلحة ترفع العلم التركي وتتقاتل مع عصابات البي كي كي بهجمات متبادلة يذهب ضحيتها المدنيون من الطرفين كلهم سوريون(!؟) في حين بقايا محافظة إدلب تحكمها عصابات من السرّاق والبلطجية وبقايا الفروع الأمنية الأسدية التي تتخذ من

شعارات الدين ورموزه مبرراً لوجودها وإجرامها والدين منهم براء، وبالمحصلة فإن سورية الحالية مقسمة إلى نحو خمس أو ست وأحياناً سبع مناطق تحكمها ميليشيات متقاتلة بدماء السوريين: هذه علوية وتلك سنّية وأخرى درزية وكردية وميليشيات داعشية مختبئة في ثنايا الاستخبارات الدولية.. إلخ، جميعها أدوات لاحتلالات خارجية، في الظاهر تبدو أنها لا تشبه بعضها وتوحي أن أسباب تشكّلها مختلفة كاختلاف ألوان الخرق التي ترفعها واختلاف خطاباتها إلا أن سلوكها واحد وهو: التدمير والقتل والسرقة بغية تفريغ المناطق من أهلها! أما سماء سورية فهي كما أرضها مباحة للأمريكي والروسي والإسرائيلي يجرّبون أسلحتهم على أهلها، يقتلونهم ليل نهار في عمليات استكمال لتفريغ المناطق من أهلها، والإعلام العالمي والعربي في سُبات عميق كأن موت السوريين لم يعُد خبراً!!

***

إذاً بدأت عملية تقزيم سورية وتقسيمها وابتلاعها وهضمها منذ قرن. وربما المشروع الغربي لزحزحة البنى الاجتماعية السورية التي كان يطلق عليها صفة الكبرى تمييزاً لها عن سورية الحالية بدأ قبل ذلك، فهناك مراسلات بين قناصل غربيين عملوا في المنطقة مع حكوماتهم

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تؤكد أن العملية بدأت تُمَرَّرُ منذ ذلك الحين، طوشة النصارى وحروب الدروز والمارون! لنصل اليوم إلى سورية مهلهلة، أكثر من ثلثها محتل جزء منه مستوطن، وثلثها الثاني ممزّق بأسماء دول تعادي بعضها والثلث الثالث يُعدَم بما تحمله هذه الكلمة من معانٍ!

مع انطلاقة العام ٢٠١٥ تأكدتُ أن البُنى الاجتماعية السورية قد تمزّقت ولم يعد من السهولة إعادة بناء الثقة بينها، ولم تعُد المشكلة من يحكم سورية (إلا بشار أسد ونظامه أسّ البلاء) ولا كيف تُحكَم، وإنما وقف أنهار الدماء ووقف تفسّخ الدولة وانتهائها. في ذلك العام بات الواقع يشي بأن سورية تحتاج إلى زمن ليس بالقليل، ربما عقد أو عقدين، لإعادة رتقها، لذلك تبنّيت مع بعض الخبراء مشروع "مناطق الميثاق" متأسياً باقتراح "مدن الميثاق" لرجل الاقتصاد بول رومر الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد عام ٢٠١٨، بهدف وقف تخريب البنى الاجتماعية السورية وحفظ دماء السوريين وخلق طرق اقتصادية محلية تُؤمّن وتنظّم معيشة ما تبقى من السكان، وذلك عبر إدارات محلية من أهل المنطقة حصراً، يحكمون الناس حكماً رشيداً عبر مواثيق خاصة لكل منطقة، وإن اختلفت سياساتها

لكن يجب ألّا تتضارب مع مواثيق الأمم المتحدة وشرائعها الإنسانية. وقدّمته عبر قنوات دبلوماسية دولية متعددة. (١)

مسؤول إسرائيلي يعلن بفرح: سورية انتهت سورية ماتت!

قال عاموس جلعاد المستشار الأستراتيجي في وزارة الدفاع الإسرائيلية في مؤتمر نظّمته مجلة "ازرائيل ديفنس" ينتهي الأمر ببشار الأسد أن يكون مسؤولاً عن بقايا دولة تهيمن عليها الأقلية العلوية التي ينتمي لها. وقال إن:

"سورية انتهت. سورية تموت. وسيعلَن موعد الجنازة في الوقت المناسب. بشار الأسد هذا ستذكره كتب التاريخ على أنه الرجل الذي أضاع سورية" (!؟)

***

الحرّ مُمتحَن بأولاد الزنا

عندما تتفسّخ الدولة تنهدر كرامة أفرادها، وتصبح جنسيتهم بلا قيمة ومرورهم إلى خارج الحدود مملوء بنكد العيش وفقدان الكرامة ولا يخلو من مخاطرة بالحياة، لكن ما حدث مع السوري لم يحدث مع سواه من أبناء الدول المنكوبة وإن تشابهوا في كثير من الظروف!

فالعالم من لحظات الثورة الأولى تصرّف مع السوري باستعداء واستعلاء!؟ ربما لأن السوري معروف بقدرته على التلاؤم لأنه كاره للعيش في "غيتوهات" أحياء خاصة، ربما السبب عائد لضعف ثقة السوريين ببعضهم!؟ كما إن السوري معروف برغبته الشديدة في التميز وحبّه لسرعة الإنجاز، لذلك أجد أن هناك دعوات وجدت لها آذاناً صاغية للإساءة له وتقزيمه، وصبّ كل صفات العنصرية الوقحة عليه، وأعتقد أن الهدف منها الحطّ من كرامته وكسر اعتداده بنفسه نحو تحويله إلى طبقة دُنيا في المجتمع تقوم بالأعمال الدنيا فيه. بالمناسبة الإعلام من قام بهذه الحملة وليس الأفراد فهي لا بد أنها حملة منظَّمة.

إذا كان المجتمع الدولي صادقاً بأن وجودنا بينهم يسيء لهم ويخرّب بنيتهم المجتمعية كما يدّعون فإني من خلال هذه المقالة أعرض عليهم أني مستعدّ أن أضمن عودة جميع اللاجئين إلى سوريا لا بل ونستوعب اللاجئين العرب أيضاً، مقابل أن يكفّوا شرورهم عن البلاد ويأخذوا البلاء الذي نصّبوه ودعموا وجوده على رأس هذه الأمة، آل أسد وعصابتهم الذين أسقطتهم الثورة خلال أسابيعها الأولى وتدخّلت دول عديدة لضمان بقائهم!

إن كانوا يعتبرون اللاجئين بينهم متخلّفين فإني أعلن أن بهم نستطيع أن نقيم دولة لن تكون عالة على المجتمع الدولي، لا بل ونضمن أنها ستكون شريكاً في الناتج العالمي وكما ستكون شريكاً في احترام حقوق الإنسان وحقوق الجوار، كل ما نطلبه أن تكفّوا الشرور عنا فإنا نموت بأسلحة تصنعونها ويستخدمها عملاؤكم!

للأسف السوريون في السنوات الأخيرة شبه أعلنوا استسلامهم وقبلوا أن يعيشوا مأساة لامبالاتهم. لا مبالاتهم تجاه مصيبتهم، تجاه بلدهم تجاه أصولهم، تجاه حقوقهم كبشر!

على السوري أن يفهم أن هذا العالم قذر ولا يعنيه دمار ونهاية شعب، يجب عليهم أنفسهم أن يحموا أنفسهم ويجدوا لأنفسهم مكاناً تحت الشمس، وهذه الـ"يجب" منوطة بالبحث عن المشتركات التي تجمعنا وما أكثرها وليس عن المختلفات التي تفرقنا وهي جدّ قليلة، كي نؤسّس تجمعات، منظمات واتحادات وجمعيات، نستطيع من خلالها إثبات ذواتنا، وإلزام الآخر بتقديرنا، ففي هذا البلاء يتساوى الغني والفقير ويتساوى كل من يحمل جنسية سورية ولو حمل جنسية بلد آخر من الجدّ الثالث!

أورينت نت: ٢٠٢٢/٤/٤

ملحق:

فيما يلي نص المشروع السياسي المشار إليه حول (المناطق الميثاقية)، الذي تم العمل عليه بين عامي (٢٠١٦ - ٢٠١٨) وتم تقديمه إلى دول إقليمية ذات نفوذ، لكن للأسف كان قرار إعدام سورية وتشريد الشعب السوري وحده الموجود على طاولات أصحاب القرار الدولي!

سوريا: التنمية قبل الحل السياسي

المناطق الميثاقية.. خطوة نحو الحياة

تشير كثير من الاستنتاجات عمّا يحدث في الوطن العربي أن مركزية القرار في العواصم جعل منها مكان ضغط عالٍ على باقي أطراف الدولة، وجعل الحياة في هذه العواصم لا تطاق من حيث الضغط السكاني اليومي، فمثلاً دمشق، قبل الربيع العربي، تستيقظ نحو ٨ ملايين وتنام نحو ٥ ملايين، ٣ ملايين قادمين من أطراف الدولة إلى المركز! لذلك يمكن وضع هذا السبب ضمن قائمة أسباب الربيع العربي، لما شكلته من ضعف في التنمية الاقتصادية والبشرية في الأطراف أدت إلى هجرة كبيرة منها إلى العاصمة لتتحول إلى فئات مهمشة.

كما إن الاستقلال الذاتي الذي أخذته بعض أطراف الدولة عن العاصمة/ المركز بعد الربيع العربي أصبح استقلالاً عزيزاً، لا يريد سكان الأطراف التفريط به بسهولة. ما جعل من صيغة الدولة القومية الحالية عبئاً كبيراً وجدلاً عبثياً.

سوريا لا يمكن أن تعود إلى نظام دولة استبدادية ذات اقتصاد مركزي. وإن أصرّت الدول النافذة على إعادتها هذا يعني أنها تريد سورية أن تغرق على المدى الطويل في موجات متناوبة من فشل الدولة ولا تريد أن تنتهي الحرب المتوحشة قريباً.

لدينا أسباب وجيهة لاستنتاج أن هذه الحرب ليست حرباً أهلية ،وإن كان فيها تشابه، إنما هي اعتداء من طائفة تحكمت في غفلة من الزمن في مقدرات الدولة وحولت تلك المقدرات إلى عملية قمع لبقية الطوائف بعدما تحالفت مع حثالات تلك الطوائف، وبالتالي فإن هذه الحرب قد قضت على قيم التعايش التي سادت بعد انتهاء الانتداب الفرنسي، وفقدت مكونات الأمّة السورية ثقتها ببعضها! مع ذلك فإن الكثير من الشباب والشابات السوريين يتطلعون بتلهف إلى فرص جديدة تخلق حياة جديدة مبنية على مجموعة جديدة من القيم الوطنية والأطر القانونية تحسن الظروف المعيشية . قبل أن نبدأ بعرض مفهوم "المدن الميثاقية" ورأينا في إمكانية الاستفادة من هذا النموذج وتطبيقه على الواقع السوري، كمناطق وليس كمدن، فإننا يجب أن نؤسس لمجموعة وقائع نعتمد عليها في المشروع الذي نقترحه:

أولاً: الاعتراف بالتقسيم بلا خرائط معترفٍ بها: فرغم الانتصار العسكري للأسد وحلفائه على فصائل المعارضة المسلحة، لكن استعادة سيطرته كما كان الحال قبل ٢٠١١ هو ضرب من المستحيل.

ثانياً: أن سورية من الناحية العملية أصبحت منطقة نفوذ وصراع أجندات إقليمية ودولية، وستبقى على هذه الحال لعقود مقبلة.

ثالثاً: انهيار منظومة السيطرة والولاء للدولة جعل استعادة الدور التنموي لمؤسساتها شبه مستحيل، خاصة في ظل تفشي سيطرة أمراء الحرب على حيوات الناس وأرزاقهم.

رابعاً: أن المجتمع الدولي، الأوروبيون بشكل خاص، لا يشعرون بارتياح لضخ أموال إعادة إعمار في غياب تسوية سياسية حقيقية، رغم رغبتهم بذلك، ولخوفهم أن تضيع في دهاليز الفساد.

المناطق الميثاقية وتجاوز مسألة الحدود والسيادة

يعود طرح مشروع المناطق الميثاقية لتأسينا بفكرة "المدن الميثاقية" التي أطلقها، ٢٠٠٩، عالم الاقتصاد الحائز على جائزة نوبل ٢٠١٥ " بول رومر". والتي تطرح التنمية على أسس محلية وليس وطنية. في مدن تخضع لقانون خاص خارج إطار الدولة الوطنية، يكون الفاعلون المحليون مسؤولون عن سنّ التشريعات وإدارة العلاقات فيما بينهم، لأن تحقيق هدفها الأساسي في معالجة مشكلات التنمية أسهل ويملك فرص أكبر

للحياة والازدهار على مستويات متوسطة، شرط أن يكون العدد السكاني كافياً لإطلاق دورة اقتصادية/تنموية متكاملة والتوصل إلى تسويات وشراكات فيما بينهم؛ ليس كبيراً بالقدر الذي قد يهدد بنشوء صراعات وتناقضات تكون سبباً في شلل العملية التنموية. وعادة يتم العمل بها في التجمعات السكانية المتوسطة حوالي ٣٠٠,٠٠٠ ألف نسمة. أما سبب اعتمادنا المناطق وليس المدن لأن الواقع السوري يشير إلى تفتت الجغرافية السورية إلى مناطق منفصلة، لكل منطقة وقائع مختلفة عن الأخرى، لكنها تشترك مع بعضها في الرغبة بتوقف الموت وتحقيق الأمن والتمنية نحو حياة لائقة.

في هذا المشروع يقع على العامل الخارجي، الدول الإقليمية، (تركيا، روسيا، وإسرائيل ودول الخليج)، عاتق العمل على توفير بيئة صديقة آمنة وضمن نطاق الحدود الحالية، وتوفير الموارد للمجتمعات المحلية للقيام بمشاريع تنموية حسب احتياجاتهم. لخلق نموذج اقتصادي وتنموي ناجح وفعّال يسمح للمجتمعات بالتركيز على المنافع المباشرة بغض النظر عن الانتماءات السياسية، فالناس في نهاية المطاف بحاجة الى خدمات أساسية، تعليمية وصحية وتجارية... أي لأنشطة أساسية وحيوية لاستعادة السلم الأهلي والبدء في عملية الشفاء التدريجي قبل التفكير بأي عمل سياسي.

كما يعتمد مشروع المناطق الميثاقية المنطق التقليدي في التنمية، فقد أثبتت التجارب، التجربتان العراقية واللبنانية مثلاً، أن الدول التي تخرج من حرب أهلية نادراً ما تنجح في استعادة عافيتها، وغالباً ما تبقى عملية التنمية

الاجتماعية والاقتصادية مرهونة بالواقع السياسي والعسكري الذي أنتجته الحرب؛ فعندما يتوقف النزاع المسلح تكون مؤسسات الدولة تفسخت كلياً ولم تعد قادرة على تأمين حياة الناس. وإكراه المتخاصمين على حل سياسي يجبرهم على العيش معاً بالقوة لن يسفر إلا عن تراكم احتقان سينفجر آجلاً أم عاجلاً.

يتجاوز مشروع المناطق الميثاقية معضلة الحدود والسيادة الوطنية، دون أن يهدمها تماماً، بل يلتف عليها ليسمح لعملية الشفاء بأن تأخذها مجراها على مستوى المايكرو.

يسمح مشروع المناطق الميثاقية بالانتقال من منطق الشرعية الخارجية إلى منطق الشرعية الداخلية، ويسمح للمجتمعات المحلية بالتدرب على ممارسة إدارة الموارد وبناء الصالح العام من خلال التوصل إلى تسويات وتوافقات محلية ترتبط بمستقبلهم ومستقبل أبنائهم بشكل محسوس ويومي بعيداً عن الشعارات والولاءات السياسية.

يسمح المشروع بترشيد عملية التنمية بحيث تكون الأموال مخصصة لمشاريع محددة وواضحة الأهداف والمستفيدين منها، هذا يخفض عمليات الفساد ويعزز الشفافية، ويسمح للضامنين بمعرفة سبل إنفاق الأموال التي تبرعوا بها، بحيث تكون هناك آليات محاسبة ومتابعة تؤسس لحوكمة رشيدة. يسمح المشروع بإنشاء سلّم قيم وثقافة جديدة، تتوسع بقدر نجاحها على أن

تقدم نموذجاً قابلاً للحياة يمنح السكان المحليين الأمل ويعلنون انتمائهم لها بشكل طوعي، ويساعدهم على بناء حياة سياسية سليمة.

أهمية بناء النموذج

تواجه القوى الدولية والإقليمية معضلة إدارة سورية المفككة وكيفية بناء نظم حوكمة محلية قادرة على البقاء وتحظى بالحد الأدنى من الشرعية المجتمعية اللازمة لها، لتكون قادرة على فرض أنساق محددة من العمل وإدارة النظام الاجتماعي بطريقة تحفظ الأمن وتسمح للسكان باستعادة دورة حياتهم الاقتصادية والاجتماعية وتمنع ظهور الحركات المتطرفة.

لذلك نرى أن خلق مناطق ميثاقية تقوم على فكرة انخراط السكان بشكل كبير في إدارة شؤونهم المختلفة وإيجاد حد أدنى من توافقية تشاركية سيجعل منها مناطق معيارية قادرة على تكوين ديناميات جذب تساهم في دفع المناطق الأخرى لتقليد التجربة، والانخراط بها بشكل فعال. إذاً الهدف من المشروع خلق واحات تحظى باستقرار أمني واقتصادي تُستعاد دورة الحياة الطبيعية فيها وفق المفاهيم التشاركية المبنية على تحييد عوامل النزاع وإظهار أن الأمل ما زال موجوداً في إنتاج نمط من الحياة المستقرة.

مع ذلك يبدو أن بعض عناصر نموذج ميثاق المنطقة قد بدأت تخرج من رماد المأساة السورية. فانهيار نظام الطاعة والولاء، وانهيار سيطرة الدولة بالكامل، وتفتت الاقتصاد السوري، وتقلص الجهاز الداخلي للدولة القومية

وانهيار الخدمات العامة، ليست سوى عناصر قليلة تثبت الحاجة إلى نظام جديد من القواعد استناداً إلى نماذج دولية تلبي سعي غالبية السوريين للبحث بشدة عن مخرج.

استغلال دعوات بعض المسؤولين الأمريكان بأنهم يتطلعون إلى إنشاء نموذج حوكمة معين في منطقة شرق الفرات التي تم "تحريرها" من داعش في الآونة الأخيرة وإنشاء سلطة خاصة كمنطقة تتمتع بالحماية.

المحددات الأساسية لبناء استراتيجية الاستقرار والبناء

- إن دور القبيلة ما زال دوراً مهما وبارزاً باعتباره يشكل وسيطاً يحقق المنفعة والحماية للأفراد، وبالتالي فإن أي استراتيجية قابلة للدوام لا بد أن تستقطب القبائل وتُدخلها في سياقها العام، لأنها لها قوة تأثير على معظم الجغرافية السورية.

- إن القبيلة يمكن أن تشكل حائط صدّ أمام التطرف الديني فمن المعروف أن البنية القبلية طاردة بالأصل للفكر المتطرف، الذي ينافسها زعيم الحركة المتطرفة على الزعامة التقليدية للقبيلة .

- يجب توخي الحذر من المساس بالعقائد الدينية للسكان بشكلها البسيط والفطري، والفصل بين التطرف وبين القبائل، فالملاحظ أن هناك أخطاء من جهات غربية في هذا الخصوص.

- يجب توخي الحذر في خلق ثنائية استقطابية قائمة على فكرة، "عرب مؤمنون" يواجهون "كرداً علمانيين أو ملحدين"، كما يتم الترويج في دعايات التنظيمات المتطرفة هذه الثنائية الاستقطابية تمنع العشائر من إبداء التعاون اللازم مع أي مشروع تنخرط به التنظيمات الكردية ذات الخلفية العلمانية التصادمية مع الدين* (تبين فيما بعد أن علمانية الميليشيات الكردية زائفة وهي مجرد مجموعات تصفية وتهجير عرقي)!

- تعبت مجتمعات المنطقة من الحرب، لذلك من المهم البحث عن استراتيجية تكون بمثابة الضوء في آخر النفق، تركز على الإيجابيات والطموحات ولا تستعيد بأي شكل مآسي الحرب أو تهدد بها، فالتنمية، وديمومة الهدوء، سيلاحظها أبناء البيئة المستهدفة كي يقبلوا بحماس على الانخراط في أي استراتيجية تطرح عليهم ويدافعوا عنها مستقبلاً.

الخطوات الأساسية في بناء منظومات الحوكمة المحلية الفعالة

- **مرحلة المسح وبيان قاعدة البيانات اللازمة:** وهذه المرحلة بسيطة ولا تحتاج لوقت وتعتمد أساساً على مسح الجهات الفاعلة على الأرض والتي تحظى بالقبول المجتمعي " الزعماء المحليون المؤثرون في محيطهم -منظمات المجتمع المدني الفاعلة -الشخصيات الاقتصادية التجارية والزراعية والصناعية -الشخصيات الأكاديمية المؤثرة -رجال الدين المؤثرين في محيطهم".

- **مرحلة بناء المجلس المحلي:** بعد تحديد قائمة الشخصيات المؤثرة يمكن اختيار منهم مجلساً محلياً يتولى عملية إدارة المنطقة المستهدفة.

- **مرحلة تمكين المجلس المحلي:** وهنا يأتي دور التحالف الدولي في تمكين المجلس المحلي ورفده بالقدرات المالية اللازمة وبالخبرات الإدارية القادرة على تولي إدارة المنطقة، وتقديم حوافز للفعاليات الاقتصادية المحلية وإعطائهم الأولوية في تنفيذ المشاريع التنموية المستهدفة وتطوير بيئة الأعمال وفق احتياجات المنطقة.

حفظ الأمن: لا بد من استثمار بنية القبيلة نفسها في تولي أمر حماية وتثبيت الأمن، وذلك من خلال دفع أبناء القبائل للانخراط في قوات حفظ الأمن التي تعمل بإشراف المجلس المحلي، وإكمال عملية حفظ الأمن بقانون واجب التطبيق في حال حدوث أي جنوح يهدد أمن المجتمع، وهنا لا بد من المزاوجة بين القوانين التقليدية لفض النزاعات التي تتبعها العشائر وبين تطبيق لوائح قانونية يمكن اعتمادها من خلال المجلس المحلي.

أين نبدأ؟

عُرض علينا إمكانية بناء النموذج في مناطق شرق الفرات، لكننا رأينا أنها ستكون بداية صعبة تهدد بالقضاء على المشروع للأسباب التالية:

- عدم تجانس الكتل السكانية، عرباً وكرداً، مسلمين ومسيحيين سُرياناً، البدو والحضر، هذه المنطقة تميز بتكوين اجتماعي يغلب عليه التكوين القبلي بالنسبة للعرب السنة، بينما خَفَتَ صوت العشائر الكردية التقليدية لصالح التنظيمات السياسية العقائدية التي تنادي بحقوق الأكراد، وبالتالي لدينا بنيتان مجتمعيتان متناقضتان في نفس المنطقة، بنية قبلية تقليدية بمرجعياتها بالنسبة للعرب، وبنية سياسية قائمة على التنظيم الحزبي بالنسبة للأكراد.

- هذا التناقض بين البنيتين يلعب دوراً صعباً في عملية اشتقاق الشرعية لأي منظومة إدارية تكون قادرة على العمل وتحظى بموافقة السكان ورضاهم، فبينما قد يكون أسلوب الانتخاب ناجحاً في أوساط الأكراد باعتبار أن اصطفافاتهم الحزبية ستكون ضمن المناخ السياسي للوسط الكردي، نجد أن موضوع الانتخابات في المرحلة الحالية في الوسط العربي قد لا يكون الأفضل، لوجود فراغ سياسي لديهم بسبب غياب تنظيمات سياسية فاعلة قادرة على التأطير المجتمعي. هذا الفراغ عززه الأمريكان بسبب دعمهم للميليشيات الكردية على حساب المكون العربي ما عزز بالضرورة فقدان الثقة بين المكونين وخوّف المكون العربي من طموحات الأكراد، زاد هذا الخوف بعد أن أعطى الأمريكان دعماً قوياً للميليشيات الكردية على حسابهم وقيام تلك الميليشيات بمجازر عرقية، أكد للعرب إحساسهم بعدم وجود حليف قوي لهم. أما المكون السرياني الأشوري،

بسبب عامل التبخر السكاني الذي يعاني منه منذ نحو ٤٠ عاماً، لم يعد له فعالية في تحقيق التوازن.

- عدم ثقة العرب بالأمريكان إذ لا يزال في أذهانهم تصريحات كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية الأسبق عن تبني الولايات المتحدة لفكرة الفوضى الخلاقة، وبالتالي يتم تحميل الولايات المتحدة المسؤولية عن الواقع الحالي، وبما أن عدداً من الدول العربية انهارت والحبل على الجرار فإن هناك اتهاماً عاماً لدى العرب للأمريكان بأنهم السبب، لذلك نعتقد أن للولايات المتحدة مصلحة بخلق نموذجٍ يوحي للعرب بالأمل بعد الفوضى.

- تركيا الجار القوي لديه مخاوف كبرى من وجود هكذا إقليم وبالتالي لن يدعه ينعم بالسلام.

سنحاول وضع نماذج حوكمة محلية ربما تكون أفضل في البدء بها من البدء في نموذج شرق الفرات.

نماذج مناطق ميثاق:

١- محافظة إدلب ومناطق حلب غير الخاضعة للأسد.

٢- منطقة درعا والقنيطرة.

على الرغم من اختلاف البنية المجتمعية بين محافظة إدلب ومنطقة شرق الفرات، فإن الخطوط العامة والمحددات الرئيسية لبناء حوكمة قابلة للدوام

والتطور تبقى واحدة مع ملاحظة أن الاعتماد في محافظتي إدلب ودرعا يجب أن يكون على البنية المجتمعية وعلى أبناء المنطقة، بحيث يتم توظيف النخب المحلية والتكنوقراط المحليين في هذا المشروع لأن ارتباط هذه النخب بالمشروع يعطيه الكثير من الاستقرار والقابلية للديمومة .

وأيضا لا بد من إشراك الفئة الشابة كبيرة العدد فيه، من خلال إيجاد منفعة لهم داخل هذه الوضعية، وتلك المنفعة تتمثل في مشاريع اقتصادية واعدة وواسعة النطاق خصوصاً في ميدان الزراعة واستثمار الأراضي غير المزروعة ، وثمة مساحات كبيرة سيكون إيصال المياه لها خدمة لا تقدر بثمن للسكان المحليين، وسيشغلهم العمل فيها كلياً، وهناك أيضاً الاستثمار في القطاع الصناعي التحويلي القائم على المنتج الزراعي، هذا الجانب الاقتصادي الإنمائي يمكن لدول أوروبا أن تختص به، وأن تقدم الأموال والمعدات اللازمة له مع مزايا خاصة للاجئين في تلك الدول فيما لو عادوا إلى مناطقهم وعملوا في تلك المشاريع. وهي بالعموم مشاريع منخفضة الكلفة، وصعوبتها تكمن فقط في استمراريتها، ويمكن ربط استدامتها بحماية تلك المشاريع من طرف المجتمع المحلي، حيث إن المتشددين سيسعون لتخريب تلك المشاريع، وهنا سيتحمل مسؤوليته المجتمع المحلي المستفيد.

- ربط المجتمع بمشروع فرض الاستقرار يتم بتوفير الخدمات الأساسية وعملية إعادة الإعمار، إضافة للخدمة الأمنية بالغة الأهمية لعودة عجلة الحياة مرة أخرى.

- يمكن البدء بمناطق محددة في محافظة إدلب كمدينة سراقب وكفر نبل وكفر تخاريم، بينما يمكن البدء في محافظة درعا بمدن بصرى الشام - الصنمين – جاسم- النعيمة.

- وضع خطط عاجلة لتلافي النقص في التعليم وفي سوق العمل، الذي يمس الفئات الأصغر عمراً، واستيعاب الزيادات السكانية الدائمة، وعدم ترك الأجيال الجديدة لمشكلاتهم المتفاقمة، فهم قد يكونون في المستقبل القريب، كنزاً لا يقدر بثمن بالنسبة للمتطرفين.

- الاستراتيجية التي يمكن قبولها من المجتمعات المحلية يجب أن تتضمن بعداً سياسياً واضحاً، فالقهر السياسي الناجم عن ممارسات النظام الأسدي على مدى نصف قرن يجب أن يجد متنفساً له، وأن يكون لمطالباتهم بإسقاط النظام الذي همّشهم ودمّر حياتهم صدى في الاستراتيجيات والسياسات المقدمة لهم، والتي يجب أن تتضمن بوضوح أن لا عودة لا لنظام الأسد، ولا للتنظيمات المتطرفة. تركيا أيضاً تُعتبر حليفاً قوياً لأسباب كثيرة معروفة..

- بات يُنظر لإسرائيل كحليف جديد بات ينتشر اسمها في غرف وسائل التواصل الاجتماعي، بحكم إحساسهم أن بينهم عدواً مشتركاً (الإيراني وحزب الله والنظام)، واعتبارهم إسرائيل قوة نافذة في المنطقة لا يمكن خلق أي حالة جديدة لا توافق عليها.

مصلحة إسرائيل في بناء نموذج درعا-الجنوب

سيأتي يوم مهما كان بعيداً سيظهر النموذج، وجود يد لإسرائيل في ظهوره ودعمها له سيؤدي الأغراض التالية:

- تحسين علاقة 'سرائيل بجوارها واستقطاب القوة الأكبر منه إلى ضفة نبذ العداء بين الطرفين، وبالتالي طرح إسرائيل كشريك سلام وتنمية في المنطقة بدلاً من صورتها الحالية المعاكسة.

- إن وجود نموذجين شمالي وجنوبي سيضغط على المداخيل الاقتصادية للايراني والنظام السوري وحزب الله في المنطقة، كما سيمنع تدخلات حزب الله في المنطقة.

- إن جعل عاصمة النموذج الجنوبي في منطقة جغرافية صغيرة من الجولان تكون أشبه بمدينة كنبرة الأسترالية سيُبقي الجنوب السوري تحت النفوذ الإسرائيلي الاقتصادي والسياسي وسيخفف من عبء إسرائيل أمام الغرب كدولة محتلة للجولان إلى دولة شريكة في صنع السلام.

- على الصعيد الاقتصادي إن بناء مكاتب تجارية لشركات إسرائيلية في المنطقة المقترحة سيعطيها الحرية في تصدير منتجاتها إلى البلاد العربية والخليجية والغربية ويحفظ ماء وجه حكام تلك الدول أمام شعوبهم، لأنها ستصدّر باسم هذه المنطقة وما تحمله من معاني معاناة السكان السوريين وضرورة الوقوف مع ترويج منتجاتهم. اتفاقية السلام الإسرائيلية المصرية كانت ذات نتائج ضعيفة لعزوف السكان عن شراء البضائع الإسرائيلية،

كما يجب السماح لعدد من رجال الأعمال السوريين وحتى العرب ممن ترى إسرائيل إمكانية الشراكة معهم من الاستثمار في تلك المنطقة وبناء مكاتب لهم فيها.

- السويداء سيكون دخولها فيما بعد في المنطقة النموذج تحصيل حاصل.

نموذج منطقة شرق الفرات

تواجه القوى الدولية والإقليمية معضلة إدارة المناطق التي اندحر منها تنظيم داعش وتتمثل هذه المعضلة بكيفية بناء نظم حوكمة محلية قادرة على البقاء وتحظى بالحد الأدنى من الشرعية المجتمعية اللازمة لها، لتكون قادرة على فرض أنساق محددة من العمل وإدارة الانتظام الاجتماعي بطريقة تحفظ الأمن وتسمح للسكان باستعادة دورة حياتهم الاقتصادية والاجتماعية، وتمنع من ظهور الحركات المتطرفة مرة ثانية.

معلومات عامة: غنى الموارد وفقر السكان!

يقصد بمنطقة شمال شرق سوريا، محافظات دير الزور والرقة والحسكة، ويضاف إليها أحياناً ريفا حلب الجنوبي والشرقي، وتمثل مساحة المحافظات الثلاث أكثر من ٤١% من مساحة سورية، (دير الزور ٣٣،٠٦٠ ألف كم^2 والحسكة ٢٣،٣٣٤ ألف كم^2

والرقة ١٩،٦١٦ ألف كم^2) من المساحة الإجمالية لسورية البالغة ١٨٥،١٨٠ ألف كم^2.

لكن سكانها لا يشكلون أكثر من ١٨% من سكان البلاد، الذين بلغ تعدادهم وفق المكتب المركزي للإحصاء حتى تاريخ١-١-٢٠١١ ما مقداره ٢٤٥٠٤ ألف نسمة، منهم ١٦٩٢ في محافظة دير الزور، و١٠٠٨ في الرقة، و١٦٠٤ في الحسكة.

وقبيل الثورة كانت منطقة ش. ش. س ترفد الاقتصاد السوري بنحو نصف موارده، ففيها " ٤٢٪ من المساحة القابلة للزراعة في سورية، ويخترقها نهر الفرات المورد المائي الأول، وتنتج ٥٨٪ من إجمالي محصول القمح، و٧٨٪ من إنتاج محصول القطن الاستراتيجي، و٧٢ % من محصول الذرة الصفراء، وعلى أراضيها نحو ٤١٪ من عدد رؤوس الأغنام نسبة إلى كامل القطيع السوري، وتنتج آبار النفط فيها ٣٦٠ برميل يومياً، أي نحو ٩٥ % من كامل الإنتاج السوري".

وبمقابل كل ذلك الغنى الطبيعي، عانى سكان المنطقة من الوضع الأسوأ في البلاد على كافة الأصعدة؛ إذ يقول تقرير "الفقر في سورية ١٩٩٦ – ٢٠٠٤"، الذي أُعدّ من قبل برنامج الأمم المتحدة الإنمائي سنة ٢٠٠٥، إن "المناطق الشمالية الشرقية سواء كانت ريفية أو حضرية، شهدت أعلى معدلات الفقر (في سورية) سواء من حيث انتشاره أو من حيث شدته أو عمقه"، ويضيف "وباستخدام الخط الأدنى للفقر تصل معدلات الفقر

إلى أعلى درجاتها في المناطق الريفية للشمال الشرقي (١٧,٩٪) تليها المناطق الحضرية في الشمال الشرقي (١١,٢٪)، وباستخدام الخط الأدنى للفقر تصل معدلات الفقر إلى أعلى درجاتها في المناطق الريفية للشمال الشرقي (١٧,٩٪) تليها المناطق الحضرية في الشمال الشرقي (١١,٢٪)". ويشير التقرير إلى أن " الفقر المدقع يزداد في الإقليم الشمالي الشرقي أربع مرات عن الإقليم الساحلي"، و"ترتفع معدلات الفقر في المناطق الريفية في الشمال الشرقي ويزداد عمقه وشدته، إذ تبلغ نسبة الفقراء ٣٥,٨٪".

أما بالنسبة للتعليم فقد كان متأخراً جداً أيضاً، خاصة على مستوى التعليم المتوسط والعالي، إذ شهدت المنطقة افتتاح أول جامعة (جامعة الفرات في دير الزور) سنة ٢٠٠٦، متأخرة أكثر من نصف قرن عن المناطق الأخرى، ويقول التقرير الوطني الثاني لأهداف التنمية للألفية في الجمهورية العربية السورية الصادر عن هيئة تخطيط الدولة السورية في أيلول ٢٠٠٥ إن "نسبة الملُمّين بالقراءة والكتابة (في عمر بين ١٥ و٢٤) في محافظتي دير الزور والرقة سنة ٢٠٠٤ هي الأدنى في سورية، حيث بلغت فقط ٧٨,٣ في دير الزور و٧٨,١ في الرقة" بينما "المعدل الوطني العام بلغ ٩٢,٥". ويقول أحد تقارير المكتب المركزي للإحصاء إن " المحافظات الشمالية والشمالية الشرقية تتصدر لائحة الأمية، وبلغ أعلى معدل لها في محافظة الرقة، حيث وصلت النسبة فيها إلى أكثر من ٣٨٪" بينما "المعدل الوطني العام هو ١٩٪".

وقد تفاقمت الأوضاع الاقتصادية بعد تولي بشار الأسد للسلطة سنة ٢٠٠٠، وانتهاج سياسة السوق الاجتماعي واتجاهه نحو الفعاليات الخدمية، علاوة على ذلك ، كان على المنطقة أن تدفع ثمن سياسات وقرارات الحكومات المتعاقبة، فمثلاً تشير التقديرات إلى أن نسبة الفقر الإجمالي في هذه المنطقة ارتفعت سريعاً بعد أول قرار لرفع سعر مادة المازوت في أيار من عام ٢٠٠٨، و"تحركت النسبة من ٣٩٪ في تشرين الأول عام ٢٠٠٧ إلى ٤٥٫٧٪ في حزيران من عام ٢٠٠٨".

وفي السنوات من ٢٠٠٥ إلى ٢٠١٠ أطلق الإقليم أوضح إنذار لاقتراب لحظة الانفجار الكبير في سورية، عندما نزح نحو مليون شخص عن ديارهم وقراهم في محافظات دير الزور والحسكة والرقة وريف حلب الشرقي، ليقطنوا في مخيمات بائسة على تخوم المدن الداخلية، "بسبب الافتقار إلى أساسيات العيش، الناجم بالدرجة الأولى عن انعدام التنمية، المترافق مع زيادة سكانية ملحوظة".

إن عقد مقارنة بسيطة بين الإمكانيات الاقتصادية للمنطقة، ومؤشرات التنمية البشرية فيها، ينبئ مسبقاً بما يمكن أن يكون عليه حال السكان المحليين، فهناك دون أدنى مجال للشك مشاعر مرتبطة بمفهوم الحرمان النسبي، ولا يكاد فرد أو جماعة من سكان المنطقة لا يشكو من أن ما يحصل عليه، وهو حدّ الكفاف، هو أقل بكثير مما يستحقه أو يتوقعه، خاصة عند مقارنة وضعه بمواطنيه الآخرين، وهو ما ينسبونه عموماً لغياب العدالة الاجتماعية، و غياب مبدأ تساوي الفرص للمواطنين، والشواهد

التي يقدمونها في إطار عرض مظلوميتهم تكاد لا تحصى، تبدأ بالثروة النفطية التي لم ينلهم منها سوى التلوث الناجم عن آلاف الآبار، أما وظائفها المجزية فإن نحو ٩٠٪ منها تمنح لأبناء المناطق البعيدة، خاصة الساحل السوري، بينما يضطر أبناء المنطقة للهجرة والعمل في الداخل السوري، أو في دول الجوار، خاصة لبنان، حيث تشير تقديرات خاصة إلى وجود نحو ٨٠٠ ألف عامل من شمال شرق سوريا فيه، إذ يهاجر معظم الذكور من سن ١٥ وما فوق للعمل هناك بعد تزايد عدد السكان وتضاؤل الملكية الفردية وتدني الإنتاجية، وعدم إطلاق أي مشاريع تنموية تستوعب الزيادة السريعة في الايدي العاملة.

حالة الاستياء من التمييز والحرمان النسبي تتصاعد على نحو خطير بين المتعلمين، إذ إن فرصتهم في التوظيف في قطاعات العمل الحكومي ووظائفه متدنية جداً، ويكاد يكون وجودهم في مؤسستي الأمن والجيش، الحاكمتين الفعليتين للبلاد، رمزياً أو معدوماً.

وتتدنى نسبة استيعابهم في القطاع الحكومي والخاص بمناطقهم بشكل كبير مقارنة ببقية المناطق، وعلى سبيل المثال، ووفق المكتب المركزي للإحصاء في سورية، بلغ عدد العاملين في قطاع "إداريون وأعمال مكتبية"، أي موظفو الدولة الذين يسيرون معاملات المواطنين، عام ٢٠١٠ في محافظة الحسكة ١٣٤٣٤ موظفاً، بينما بلغ عدد العاملين في هذا القطاع للعام ذاته في محافظة طرطوس، ٣٠٦١١ موظفاً، أي أكثر من ضعفي الأولى، والمفارقة هي أن عدد سكان محافظة الحسكة يقترب من ضعفي عدد سكان

طرطوس، فقد بلغ للأولى ١٤٢٥ ألفاً و ٧٦٨ لطرطوس في العام نفسه. ويعزو سكان المنطقة التميز والتهميش الاقتصادي والتنموي لأسباب سياسية، تتلخص في كون السكان بالأغلبية الساحقة من السنّة "عرباً وأكراداً" ، ولكونهم قبائل يخشى منهم النظام كمتحدات اجتماعية كبيرة ومتماسكة يمكن أن يؤدي تحركها سياسياً فيما لو كانت بأوضاع جيدة إلى تهديد سلطته.

التكوين الاجتماعي للمنطقة:

تتميز هذه المنطقة بتكوين اجتماعي يغلب عليه التكوين القبلي بالنسبة للعرب السنة، بينما خفت صوت العشائر الكردية التقليدية لصالح التنظيمات السياسية العقائدية التي تنادي بحقوق الأكراد.

وبالتالي أصبح لدينا بنيتان مجتمعيتان متناقضتان في نفس المنطقة ،البنية الأولى هي البنية القبلية التقليدية بمرجعياتها التقليدية بالنسبة للعرب، والبنية الثانية هي البنية السياسية القائمة على التنظيم الحزبي السياسي بالنسبة للأكراد .

هذا التناقض بين البنيتين يلعب دوراً كبيراً في عملية اشتقاق الشرعية لأي منظومة إدارية تكون قادرة على العمل وتحظى بموافقة السكان ورضاهم، فبينما قد يكون أسلوب الانتخاب ناجحاً في أوساط الأكراد باعتبار أن الاصطفافات والخيارات السياسية لهم ستكون ضمن المناخ السياسي

للأحزاب الكردية الفاعلة في الوسط الكردي، نجد أن موضوع الانتخابات في المرحلة الحالية في الوسط العربي قد لا يكون هو الشكل الأكثر جدوى بسبب غياب تنظيمات سياسية فاعلة وقادرة على التأطير المجتمعي، هذا النقص في البنية السياسية عند العرب السنة يمكن ردمه عبر النظر للقبيلة كبنية مجتمعية وسيطة قابلة لإفراز شرعية مناسبة في أوساط العرب السنة.

ولو درسنا المرحلة السابقة لوجدنا أن نظام البعث كان يحرص دائماً على ترك حوالي ١٠٪ من المقاعد النيابية للعشائر تحت اسم مقاعد المستقلين:

- في دير الزور يمثلون شيوخ قبيلتي العقيدات والبكارة بشكل مطلق.

- أما في الحسكة فيتناوب على المقاعد شيوخ من قبائل: الجبور، شمر، طي، البكارة.

- أما في الرقة فيتناوب شيوخ من قبائل العفادلة، الولدة، البوخميس، الصبخة، البوعساف.

إذن نستطيع تحديد القبائل العربية الفاعلة والمؤثرة من خلال القائمة السابقة، إضافة للقبائل الكردية الكبيرة التي توجد في محافظة الحسكة والتي لا تزال تحظى بكثير من النفوذ بعيداً عن سيطرة الأحزاب العقائدية الكردية ونذكر أهمها عشيرة المليّ (ديريك)، والدقوري (عامودا)، الهفيركان (درباسية) والكيكي (القامشلي)، والمرسينية (شرق القامشلي).

ضرورات

نعتقد أن طرح نموذج منطقة ميثاق يجب أن يكون قائماً على مواثيق الأمم المتحدة وشاملاً حرية العقيدة والتجارة، ما سيجعله مركز جذب لمعظم الفئات المحلية ولدول عدة ستقدم مساعدات للنموذج.

وجود دولة قوية ضامنة للنموذج مانعة للتدخل الإيراني الأرضي والروسي الجوي، وأيضاً ضمان أن تكون تركيا حليفاً يسمح بمعبر إلى البحر من أراضيها. وأيضاً خلق مصلحة اقتصادية للأردن في النموذج الجنوبي.

هوامش:

* كتبنا هذا المشروع وقدمناه قبل أن تتخلى جبهة النصرة بضغط دولي عن مناطق جنوب وشرق إدلب الطرق الدولية قبل عام ٢٠١٨

** كتبنا هذا المشروع وقدمناه قبل اتفاق نتنياهو/بوتين على السماح للقوات الروسية والنظام الأسدي في الوصول إلى مناطق درعا التي كانت محررة من النظام الطائفي العلوي.

المراجع والمصادر

- **(السريان في القامشلي بين الماضي المجيد والحاضر التليد)**، أوكين بولس منوفر برصوم، دون دار نشر: ١٩٨٢

- **(المذكرات)**، محمد كرد علي: الجزء الثاني، ط٣، مكتبة النوري، دمشق: ١٩٨٣

- **(أكراد سوريا: التاريخ والسياسة والمجتمع)، جوردي تيجيل**، ترجمة: محمد شمدين - ط٢ - دار الزمان ٢٠٢١

- **(أكراد سورية.. التاريخ، الديموغرافيا، السياسة) مهند الكاطع، ط١، دار القناديل: بغداد ٢٠٢٠**

- **(فلاحو سوريا: أبناءُ وجهائهم الريفيين الأقل شأنًا وسياساتهم)** حنا بطاطو، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات - ٢٠١٤

- **(حزب البعث: مأساة المولد، مأساة النهاية)** مطاع صفدي، دار الآداب - بيروت: ١٩٦٤

- **(البعث)**، د. سامي الجندي: دار النهار - بيروت ١٩٦٩

- **(الصراع على السلطة في سوريا)**، نيقولاس فان دام، مكتبة مدبولي – القاهرة: ١٩٩٥

- **(التمرد السوري)**، فؤاد عجمي، ترجمة أحمد الشنمبري، ط١، دار جداول- بيروت: ٢٠١٣

- **(فقه الزكاة)**، يوسف القرضاوي- ط ٢ – مؤسسة الرسالة: بيروت ١٩٧٣

بالإضافة إلى المقالات الصحفية التي وثقت وأثبتت في هوامش فصول الكتاب.

المؤلف في سطور

محمد غسان عبود

- رجل أعمال وإعلامي ومؤسس ومالك مجموعة أورينت الإعلامية. من مواليد مدينة إدلب ١٩٦٧
- حاصل على بكالوريوس في الإعلام من قسم الصحافة بكلية الإعلام بجامعة دمشق عام ١٩٩١ بدرجة ممتاز. رسالة تخرج بعنوان (صورة الصحفي في السينما العربية).

النشاط الإعلامي والسياسي

- بدأ حياته العملية صحفيا في جمعية المهندسين في أبوظبي بالإمارات العربية المتحدة.
- أسس عام ٢٠٠٨ مؤسسة لايف بوينت للإنتاج الفني، لتكون نواة محطة تلفزيونية هي (تلفزيون أورينت) الذي انطلق بثه في الثاني من شباط/ فبراير عام ٢٠٠٩ واستطاع على مدار عقد كامل من عمره، قبل أن يتحول للبث عبر السوشال ميديا في السابع من نيسان/ إبريل عام ٢٠٢٠ أن يكون واحدا من أبرز التلفزيونات الخاصة في المنطقة العربية ومنبرا قوياً للثورة السورية والربيع العربي، كما تحول

إلى التلفزيون الأكثر مشاهدة وتأثيراً لدى السوريين داخل وخارج سورية.

- لعب غسان عبود دوراً بارزاً في نقل صوت الثورة السورية منذ اندلاع شرارتها الأولى، كما أنجز بالتعاون مع نخب سورية بارزة أول مؤتمر للمعارضة السورية عقد في مدينة أنطاليا التركية- أيار/ مايو عام ٢٠١١

- شارك كسياسي مستقل في العديد من المؤتمرات التي عقدت لبحث القضية السورية، أبرزها: مؤتمر أصدقاء سوريا في تونس شباط/ فبراير ٢٠١٢ ومؤتمر المعارضة السورية في القاهرة في تموز/ يوليو ٢٠١٢ وفي سلسلة المشاورات التي أجراها المبعوث الدولي الأسبق ستيفان ديمستورا في مقر الأمم المتحدة في جنيف في أيار / مايو عام ٢٠١٥ بناء على دعوة وجهها له الأخير، ضمن سلسلة مشاورات شملت أطيافاً من المعارضة السورية، والشخصيات المؤثرة في الشأن السوري.

- زار الولايات المتحدة الأمريكية في حزيران/ يونيو ٢٠١٣، والتقى عدداً من مسؤولي الخارجية الأميركية على رأسهم معاونة وزير الخارجية آنذاك (دانا سميث) وأعضاء في الكونغرس الأميركي في مقدمتهم رئيس مجلس العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ السناتور (إدوارد رويس)، لمناقشة القضية السورية، كما قامت الجالية السورية الأمريكية بالتعاون مع أساتذة جامعة (هارفارد) الأمريكية الشهيرة، بدعوته إلى ندوة خاصة لعرض رؤيته عن الثورة السورية

ومستقبل سوريا وإطلاع الجالية على نشاطات مؤسساته الخيرية. وأقيمت الندوة في إحدى أهم قاعات جامعة هارفارد.

- كتب عشرات المقالات في الصحف والمواقع الإلكترونية حول القضية السورية منذ بداية اندلاع الثورة السورية ضد حكم الأسد عام ٢٠١١، كما واظب ابتداء من آذار/ مارس ٢٠٢١ على كتابة مقال رأي أسبوعي في موقع (أورينت نت) بعنوان: كل اثنين.

النشاط التجاري

- اتجه عام ١٩٩٤ للعمل في مجال تجارة السيارات، وافتتح معرضا في إمارة الشارقة، سرعان ما توسع ونما حتى أضحى نواة لمجموعة تجارية كبرى هي (مجموعة غسان عبود) التي تتخذ من ميناء جبل علي بإمارة دبي مقراً لها، والتي امتدت أنشطتها وخطوط توريدها الخاصة بالعديد من العلامات التجارية العالمية لـ ١٢٠ دولة.

- أسس عام ٢٠١٦ مجموعة (كريستال بروك) للاستثمارات الفندقية وإدارة الضيافة.. وتمكن من خلال امتلاك عقارات فندقية في أستراليا من توسيع عمل المجموعة لتدير اليوم (٨) فنادق، كما استثمر في مجال الأعمال الرعوية في أستراليا.

- أسس عام ٢٠١٧ سلسلة متاجر (جرانديوس) لتجارة التجزئة والمواد الغذائية، ووصل عدد فروعها إلى (١٨) فرعاً في كل من أبوظبي ودبي ورأس الخيمة.

- أسس عام ٢٠١٧ شركة (جاليجا) للشحن البحري والخدمات اللوجستية، وفي شهر أيار/ مايو من عام ٢٠١٨ تم إنشاء مرفق لوجستي بمساحة ٣١٥٠٠٠ متر مربع في مدينة خليفة الصناعية (كيزاد) في إمارة أبو ظبي.

- أطلق عام ٢٠٢٠ منصة (بايجرو) للتسويق الإلكتروني، وهي سوق تجاري إلكتروني يسعى لربط التجار والمصانع بالعملاء التجاريين في الإمارات العربية المتحدة بغية تعزيز الوصول وتقليل الكلفة مع الحفاظ على الجودة. وقد حصدت منصة (بايجرو) على جائزة السوق الإلكتروني، ضمن حدث جوائز التجارة الإلكترونية لعام ٢٠٢١، المنظم من قبل مجلة (رواد الأعمال Entrepreneur ME) بالتعاون مع غرفة تجارة وصناعة دبي، ودبي للمشاريع الناشئة، بناءً على نجاحها المتميز ونموها الاستثنائي خلال عامها الأول.

- أسس العديد من شركات التوزيع التجارية في مجالات عدة كشركة (أوليف كنتري) التي تعمل على إعادة تشكيل سلسلة التوريد التقليدية في مجال صناعة المواد الغذائية، و(باري بارتس ٢٤) وهو سوق تجاري رقمي لقطع غيار السيارات، يربط الموردين والموزعين بورشات العمل.

- أسس شركة (جايلان) للرعاية الصحية لتسويق وتوزيع وبيع الأجهزة الطبية ومستلزمات المختبرات، وقد أطلقت العام ٢٠٢٢ مستشفى لجراحة اليوم الواحد في الشارقة، وستتفتح مستشفيين آخرين في دبي.

- تعاون عام ٢٠٢٢ عبر مجموعة غسان عبود التجارية مع مجموعة موانئ أبو ظبي لتدشين أحد أكبر مراكز المنطقة لتجارة الموادة الغذائية بالجملة والخدمات اللوجتسية المرتبطة بها، كما تعاون مع المجموعة ذاتها لتدشين المركز الإقليمي لتجارة السيارات وجميع المنتجات المتعلقة بها في أبوظبي.

النشاط الإنساني

- أطلق وموّل في تموز من عام ٢٠١٢ مؤسسة أورينت للأعمال الإنسانية، التي لعبت بإدارة مؤسسها الدكتور عمار مارتيني دوراً بارزاً في العمل الإغاثي خلال الثورة السورية، وحظيت بثقة وشراكة كبريات المؤسسات الإغاثية في العالم، وعضوية منظمة تحالف الأديان. وقد أنشأت مؤسسة أورينت الإنسانية ١٠ مستشفيات في مناطق شمال غرب وشمال شرق وجنوب سوريا، وأقامت المؤسسة بمساعدة فريق تجاوز ١١٠٠ طبيب وممرض وعامل ومستخدم نحو ٧٢ نقطة طبية، عالجت أكثر من ٣ ملايين مريض، وأجرت نحو ٤٠ ألف عملية جراحية بتخدير كامل ومثلها عمليات جراحية بنصف تخدير، ومنظومة إسعاف ومنظومة حملات اللقاحات ومدرسة خرجت نحو ٢١ ألف تلميذ سوري. وبعد استخدام نظام الأسد للسلاح الكيماوي في حربه على المدنيين، تبرع بنحو مليون إبرة أتروبين وزعتها أورينت على عموم المدن السورية، كما أقام عدداً من المخيمات للأسر المنكوبة شمال إدلب.

- بموازاة العمل الذي تقوم به أورينت الإعلامية لتوثيق الجرائم المرتكبة ضد السوريين، حرصت مؤسسة أورينت الإنسانية على تسجيل حضور قوي لها في ميدان القانون، حيث تعاونت المؤسسة مع أطباء من أجل حقوق الإنسان لتدشين مركزٍ للتوثيق، ويعمل المركز بشكل قانوني على توثيق الضحايا وجرائم الحرب المرتكبة من قبل نظام الأسد وكل سلطات الأمر الواقع الأخرى.

غسان عبود

Orient

الحلم السوري وحلف الأقليات

Orient







لم يترك عبود شيئاً مما يقال له "محرمات" إلا وفتح صندوقه، الجيش، الشرطة، الأمن، سلطة الأقلية، حلف الأقليات، المعارضة، الثورة، عملاء النظام، تدخلات الدول القريبة والبعيدة ، لكنه لم يفعل ذلك من باب الطرف المقابل، أي لم يكتب عن العلوي لأنه سني بل لأنه سوري، كما إنه بهذه الجرأة رفع الغطاء عن المبتزين الذين جهدوا لتكريس "قدسية" هذه المواضيع التي تحدث عنها بكل وضوح كاشفاً أن تحييدها نوع من المشاركة في تكريس مخاوفها.

علي الرز



